قبس من حياة الرسول صلى الله عليه وآله

قبس من حياة الرسول صلى الله عليه وآله

الجزء الأول

تأليف

الحاج محمد المرهون

منشورات

مؤسسة المصطفى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

آيات قرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾(1).

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾(2).

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(3).

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(4).

---

(1) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧.

(2) آل عمران: ١٤٤.

(3) الأحزاب: ٤٠.

(4) البقرة: ٢٨٦.

الإهداء

أبتـاه يـا نبـع الحيـاة البـاقي　　　يا دمعة سـقطت علـى أوراقـي
يا من سقاني مـن نعـيم حنانـه　　　حبـاً وعطفـاً رحمـة إشـفاقِ
يا من هـداني للمكـارم كلهـا　　　بـالعلم ربـاني وبـالأخلاقِ
هذا هديـة مخلـص فـي حبـه　　　قـدمتها وعبيرهـا أشـواقي
هذا الكتاب هديـة منـي إلـى　　　من لست أنساه علـى الإطـلاقِ

يا قارئاً بعد موتي منكُمْ سفري ... اقرأ لصاحبه آياً من السورِ
فقد بلي من له خطت أكف يد ... وكان من بعده في صورة الخبرِ
وانظر لصورته تذكر مواقفه ... فالمرء يفنى ويبقى الذكر بالصور

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمضي القرون والدهور، وشخصية الرسول الأعظمﷺ موضع اهتمام الكتاب والدارسين على اختلاف نِحَلهم، وشتى مذاهبهم، يجدون فيه المادة الخصبة للدراسة، ويلتمسون لديها ما يجلو أسرار العظمة الإنسانية كما تمثلت في بشرٍ رسولٍ بَهَر الدنيا، وصَنَع التاريخ؛ ذلك لأن الإنسانية على كثرة ما عرفت من تاريخها الطويل من رُسُلٍ وأنبياءٍ وقادةٍ وأبطالٍ ستظلّ أبد الدهر ترنو إلى هذا النبي العربي الذي اصطفاه الله بشراً رسولاً. وهذا الإيمان العميق بعظمة البشر الرسول هو الذي وجّه دراساتي للجوانب التي أخذْتها من شخصية ذلك الوليد اليتيم الذي وضعته امرأة تأكل القديد. أبتغي بذلك الهداية والعبر، والموعظة الحسنة؛ لعلها تكون يوم الحساب نوراً يهديني إلى الصراط المستقيم.

المؤلف

فضل النسب

النسب هو سبب التعارف، وسلّم التواصل، به تتعاطف الأرحام الواشجة، وعليه تحافظ الأواصر القريبة. وهو من الأمور المطلوبة، والمعارف المندوبة؛ لما يترتّب عليها من الأحكام الشرعية والمعالم الدينية.

فالتعارف بين الناس لا يعذر مسلم بالجهل به؛ لئلّا يعزى[1] أحد إلى غير آبائه، ولا ينسب إلى سوى أجداده. وإلى ذلك أشار القرآن الكريم في سورة الحجرات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

وعلى هذا يترتّب أحكام الوراثة، فقد جاء في الحديث: «**تعلّموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم، وتصلون به أرحامكم**».

فمن لا يعرف النسب لا يعرف الناس، ومن لا يعرف الناس لم يعد من الناس.

وهذا ما جرى للإمام علي عليه السلام مع أخيه عقيل من اعتبار النسب في كفاءة المصاهرة، ومراعاة النسب الشريف يوم قال له: «**ابغي لي امرأة قد ولدتها**

---

(١) يعزى: يُنسب.

(٢) الحجرات: ١٣.

الفحولة»[1] ـ وكان عقيل ممن اشتهر بعلم الأنساب وأخبار العرب، وكان يُبسط له بساط في مسجد الرسول ويجلس عليه، ويجتمع الناس حوله يسألونه عن أنساب العرب وأخبارهم ـ فقال له: أينك عن أم البنين ـ فاطمة بنت حزام الكلابية ـ فهي من بيت لا يوجد في العرب أشجع ولا أفرس من آبائها، وفي حقهم يقول لبيد للنعمان بن المندر ملك الحيرة:

نحـــن بنـــو أم البنـــين الأربعـــه ... ونحن خير عامر بـــن صعصـــعه

الضاربون الهام وسط المجمعه

فلم ينكر عليه أحد من العرب، ولا من غيرهم.

وكان ممن له المقام الأرفع في علم النسب أبو بكر. روى عكرمة عن ابن عباس عن الإمام عليعليه السلام قال: «**لما أُمر رسول اللهﷺ أن يعرض نفسه على القبائل، خرج مرة وأنا معه وأبو بكر، فانتهينا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامتها، أم لهاذمها؟ قالوا: بل من هامتها العظمى. قال: وأي هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذهل الأكبر. قال: فمنكم عوف بن محلم الذي يقال فيه: الأمر بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: فمنكم حباس بن مرة الحامي الذمار، والمانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم الحارث بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنعمها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة المفردة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال: فلستم بذهل الأكبر، أنتم من**

---

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧.

ذهل الأصغر. فقام إليه غلام من شيبان يقال له دغفل، وقال:

إن علــى ســائلنا أن نســأَلَهْ ... والعبء لا تعرفه أو تحملَهْ

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئاً من خبرنا، فممّن الرجل؟ قال أبو بكر: من قريش. قال: بخٍ بخٍ، أهل الشرف والرئاسة، فمن أي القرشيّين أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة. قال: أمكنت والله الرامي من صفا الثغرة ـ يعني وسط النحر ـ فمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل كلها، وكان يدعى مجمعاً؟ قال: لا. قال: فمنكم هاشم الذي هشم الثريد وأطعم الحجيج؟ قال: لا. قال: فمنكم شيبة الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء الذي وجهه كالقمر في ليلة الظلماء؟ قال: لا. قال: فمن أهل الإفاضة بالناس أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. وجذب زمام ناقته ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال الفتى:

صادف دَرُّ السيل دَرّاً يدفعه ... يهيضه حيناً وحيناً يصدعه[1]

أما والله يا أخا قريش، لو تثبتّ لأخبرتك أنك من رعيان قريش، ولست من الذوائب. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله». قال علي عليه السلام فقلت: «وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على بائقة، ما من طامة إلّا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق».

عدنان

وهو الذي ينتهي إليه نسب النبي محمد صلى الله عليه وآله:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمري ولكن منه شيبانُ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٢٩٤، ٢٩٨.

فكم أب قد علا بابن له شرفاً ... كما علا برسول الله عدنانٌ

إن علم الأنساب من العلوم الهامة، وبه يُعرف الأصل من الفرع، وقد حثّت الشريعة الإسلامية على رعاية الأنساب ومعرفتها، وبَنَت على أثر ذلك أحكاماً يهتمّ المسلم بحفظها في حدود حاجاته الشرعية. وقد حثّ الرسول العظيم على تعليم النسب وحفظه، فقالﷺ كما جاء في صحيح الأخبار: «**تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**».

وقد عُرف عن العرب في العصور المتقدّمة قبل الإسلام حفظهم لعلم النسب، فحفظوا أنسابهم إلى عدنان، أو قحطان، أو إلى إسماعيل، أو إلى آدم أبي البشر إلّا إن هذه الدعوى التي يدّعيها بعض الناس لم يقم عليها دليل.

ويكفينا قول ابن عباس: إن النبي محمداًﷺ إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد ابن عدنان، ويمسك، ويقول: «**كذب الناسبون**» مرتين أو ثلاثاً، ويقول: ﴿**وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً**﴾(١).

وهكذا نهى رسول اللهﷺ عن تجاوز معدّ؛ لعلمهﷺ أن تباعد الأنساب، وكثرة الآراء في هذه المدة والأعصار أوّت إلى وقوع الاختلاف فيه.

وعن عروة بن الزبير قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان، ولا ما وراء قحطان إلّا تخرّصاً.

وقال أبو الأسود: سمعت أبا بكر بن سليمان يقول ـ وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم ـ: ما وجدنا في علم عالمٍ، ولا شعر شاعرٍ أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان بثبت.

---

(١) الفرقان: ٣٨.

أما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب، فمحفوظة مشهورة جداً لا يتمارى فيها اثنان. والنسب النبوي الشريف إليه أظهر وأوضح من فلق الصباح. وعدنان هو أحد من تقف عنده أنساب العرب، وهو القدر المتّفق عليه من نسب النبي محمدﷺ، أما ما فوق ذلك، فمختلف فيه، ولا يعتمد عليه في شيء، غير أن مما لا خلاف فيه أن عدناناً من ولد إسماعيل نبي الله عليه السلام بن إبراهيم خليل الله عليه السلام، وإنما الخلاف في عدد ما بين عدنان وإسماعيل من الآباء، فمقلّ ومكثر.

وجاء عن بعض نسّاب العرب أن نسب عدنان يرجع إلى قيدار بن إسماعيل، وأن القيدار كان ملكاً في زمانه، ويقال: إن معنى قيدار: «الملك». وقد انتمى قصي بن كلاب إلى قيدار في بعض أشعاره، فقال:

فلست لحاضن إن لم تأثل ... بها أولاد قيدر والنبيتُ

يعني بذلك: نبت بن قيدر بن إسماعيل.

فمما لا شك فيه أن سرد النسب الزكي من محمد بن عبد الله إلى معدّ بن عدنان لا خلاف فيه بين العلماء، فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره ـ في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1] ـ: لم يكن بطن من بطون قريش إلّا ولرسول اللهﷺ نسبٌ يتّصل بهم، فجميع قبائل العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء، وكثيرٌ منهم بالأمهات أيضاً.

قالﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني**

(١) الشورى: ٢٣.

هاشم، واصطفاني من بني هاشم. فلم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّىً مهذباً، لا تتشعّب شعبتان إلّا كنت في خيرهما».

قال البوصيري.

لم تزل في ضمائر الكون تختا ر لك الأمهات والآباءُ

إن الله قد اختار نبيهﷺ من أزكى القبائل، وأفضل البطون، وأطهر الأصلاب، فما تسلل شيء من أدران الجاهلية إلى شيء من نسبه. يقول الماوردي في كتاب (أعلام النبوة): وإذا اختبرت حال نسبه، وعرفت طهارة مولده، علمت أنه سلالة آباء كرام، ليس فيهم مسترذل، بل كلهم سادة قادة، فطهارة المولد من شروط النبوة.

فالذي صحّ عن الرسول الأعظمﷺ أنه انتسب إلى عدنان، ولم يتجاوزه؛ لأن ما بعد عدنان من الأسماء مضطرب فيه؛ لأن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض.

ولما كان للنبيﷺ من شرف ونسب وعزة بين الأجناس، فقد وجب معرفة نسبه الشريف، ولا بد لصحة الإيمان من معرفة ذلك، ولا يعذر مسلم في الجهل به. فعدنان هو الجد الأكبر للرسول الأعظمﷺ، فيجتمعون حوله، وينتمون إليه. وسمي عدناناً من العدن، وهو الإقامة، وهو قولهم: عدن بالمكان، إذا أقام به. ويقال: هو الذي تعرف به مدينة عدن باليمن.

يقول الزهري: وعدن بلد على سيف البحر في أقصى بلاد اليمن، وسميت اليمن؛ لأنها عن يمين الكعبة.

ولعدنان من الأبناء ولدان: عك بن عدنان، ومعدّ بن عدنان. وعكّ هم الذي

حاربوا عمرو بن عامر وقومه عند خروجهم من اليمن حتى أخرجوهم من بلادهم. وكان سبب خروجه من اليمن ـ كما جاء في سيرة ابن هشام ـ أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء، فيصرّفونه حيث شاؤوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النقلة من اليمن، فكاد قومه، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي، وعرض أمواله للبيع، فاغتنموا غضبه، واشتروا منه أمواله.

وانتقل في ولده وولد ولده، فقال: الأزد لا نتخلف عن عمرو. فباعوا أموالهم، وخرجوا معه، فساروا حتى نزلوا بلاد عكّ مجتازين، يرتادون البلدان، فحاربتهم عكّ، فكانت حربهم سجالاً. وفي ذلك يقول عباس بن مرداس يفخر بعك:

وعك بن عدنان الـذين تلقّبـوا بغسّان حتى طُرّدوا كـلَّ مطـرد

فارتحلوا عنهم، وتفرقوا في البلدان.

فينبغي لمن أراد أن يذكر نسب النبي محمد صلى الله عليه وآله أن يوصله إلى عدنان ويقف؛ اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وآله.

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

يقول الشاعر:

ونسبةُ عزٍّ هاشـمٌ مـن أوصـولها ومحتدها المرضـي أكـرم محتـدِ
سمت رتبة عليا فـأعظم بقـدرها ولـم تسـمُ إلا بـالنبي محمـدِ

معد بن عدنان

وبنو معد بطن من بني عدنان، وهو بطن متّسع، ومنه تناسل جميع بني عدنان، وهو جد جاهلي من سلالة النسب النبوي الشريف، وكنيته أبو قضاعة. وأمه مهدَّد بنت اللّهم بن جلحب بن جديس بن جاثر بن إرم. ومعد ـ بسكون العين ـ معناه القوة.

وقيل: إنما سمي معد؛ لأنه صاحب حروب وغارات على بني إسرائيل، ولم يحارب أحداً إلّا ورجع بالنصر والظفر بسبب نور النبي محمدصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ الذي في جبهته. ويقال له أبو العرب، وكان مع بخت نصر حين غزا حصون اليمن.

قال ابن كثير: ويقال: إن الله سبحانه وتعالى أوحى في ذلك الزمان إلى أرميا بن حلقيا أن «**اذهب إلى بخت نصر فأعلمه أني قد سلطته على العرب**».

وأمر الله أرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق؛ كيلا تصيبه النقمة فيهم؛ «**فإني مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل**». وكان عمره يومذاك اثنتي عشرة سنة.

ففعل أرميا ذلك، واحتمل معداً على البراق إلى أرض الشام، فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس، وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشم من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده.

ثم عاد بعد أن هدأت الفتن بموت بخت نصر، وتمخضت جزيرة العرب، وكان رخيا ـ كاتب أرميا ـ قد كتب نسب معد في كتاب عنده؛ ليكون في خزانة أرميا، فيحفظ بذلك نسب معد، والله أعلم.

ولمعد بن عدنان من الأبناء أربعة:

١ـ نزار بن معد بن عدنان.

٢ـ قضاعة بن معد بن عدنان، وهو بكر أبيه، وبه كان يكنى.

٣ـ أياد بن معد بن عدنان.

٤ـ قنص بن معد بن عدنان.

وأمهم معانة بنت جوشم، من بني دبّ بن جرهم.

نزار بن معد

نزار ـ بكسر النون ـ ابن معد بن عدنان جد جاهلي من سلسلة النسب النبوي الشريف، كنيته أبو أياد، ويقال: يكنّى أبا ربيعة. وأمه معانة بنت جوشم بن جلهمة بن عمرو من بني دب بن جرهم. كان في وجهه نور النبوة، وله سيادة وثروة كبيرة.

وقيل في سبب تسميته نزار: أنه لما ولدته أُمه نظر إليه أبوه معد بن عدنان، فرأى نور النبوة بين عينيه، الذي كان ينتقل في الأصلاب الطيبة والأرحام المطهرة إلى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ففرح به فرحاً شديداً؛ ونحر وأطعم، وقال: إن هذا كله نزر، أي قليل بحق هذا المولود؛ فسمي «نزاراً» لذلك.

وكان أجلَّ أهل زمانه وأكبرهم عقلاً، وكان له من الأبناء أربعة أولاد: مضر، وأياد ـ وهما شقيقان أمهما سودة بنت عك بن عدنان ـ وأنمار، وربيعة، وهما شقيقان أيضاً، وأمهما جمعة بنت عك بن عدنان، وقيل: جلالة بنت وعلان من جرهم، وفيهم يقول الشاعر:

وفتـــوٍ حســـن أوجههـــم ... من أيـاد بـن نـزار بـن معـد

فلما حضرت نزار الوفاة أحضر أولاده الأربعة، وقسّم ثروته بينهم، وقال: هذه

القبة ـ وهي من أدم حمراء ـ وما أشبهها من مالي لمضر، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من مالي لربيعة، وهذه الجارية الشمطاء وما أشبهها من مالي لأياد، وهذه البدرة وما أشبهها من مالي لأنمار. وقال لهم: إذا اختلفتم في القسمة، فعليكم بالأفعى الجرهمي ملك نجران.

ولما مات نزار بن معد بن عدنان اختلف أولاده الأربعة في القسمة، فذهبوا إلى الأفعى الجرهمي ملك نجران كما أوصاهم أبوهم بذلك. فلما توسّطوا الصحراء وجدوا في طريقهم كلأً قد رعي، فقال مضر بن نزار: إن البعير الذي رعى هذا الكلاء لأعور. فقال ربيعة بن نزار: إن البعير الذي رعى هذا الكلاء لأبتر. وقال أنمار بن نزار: إن البعير محمل بسمن وعسل. وقال أياد بن نزار: إن البعير الذي رعى هذا الكلاء شرود.

فلم يسيروا إلّا قليلاً حتى لقيهم رجل تخفّ به راحلته، فسألهم عن البعير، فقال مضر: هو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: هو أبتر؟ قال: نعم. فقال أنمار: هو محمل بسمن وعسل؟ قال: نعم. قال أياد: هو شرود؟ قال: نعم، هذه والله صفة بعيري، دلّوني عليه، فحلفوا له أنهم ما رأوه، فقال: كيف أصدقكم، وأنتم وصفتم بعيري بصفته؟ ودعاهم إلى الأفعى الجرهمي، فقالوا: إنا ذاهبون إليه، فهلمَّ معنا.

فساروا جميعاً حتى وصلوا نجران، ودخلوا على الأفعى الجرهمي، فقال صاحب البعير: إن هؤلاء أصابوا بعيري، ووصفوا لي صفته. فقال لهم: ما تقولون؟ فحلفوا له أنهم لم يروه، فقال لهم: كيف وصفتموه ولم تروه؟ فقال مضر: رأيته يرعى جانباً، ويدع جانباً؛ فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيت بعره مجتمعاً؛ فعلمت أنه أبتر. وقال أنمار: نظرت إلى مبركه، فوجدت في الجانب الأول ذباباً وفي الجانب الثاني نملاً؛ فعلمت أنه محمل بسمن وعسل. وقال أياد: رأيته يرعى نبتة

ويتجاوزها إلى أخرى، فعلمت أنه شرود.

فقال الأفعى الجرهمي: اذهب واطلب بعيرك، فليس لهم به علم. ثم أقبل عليهم وسألهم عن أمرهم، فأخبروه، فقال: أتحاجّون إلي، وأنتم كما أرى؟

ثم دعا لهم بطعام وشراب، وأوكل بهم من يسمع كلامهم، فلما أكلوا وشربوا قال مضر: لم أرَ كاليوم خمراً لولا أنّ كرمته زرعت على مقبرة. وقال ربيعة: لم أرَ كاليوم لحماً أطيب لولا أنه غذي من لبن كلبة. وقال أنمار: لم أرَ كاليوم خبزاً لولا أن من عجنته وخبزته حائض. وقال أياد لم أرَ كاليوم رجلاً عظيماً إلّا إنه ليس لأبيه الذي يُدعى له.

فأعلم الموكل بهم الأفعى بكلامهم، فدعا بالساقي وسأله عن الخمرة، فقال: إنه من كرمة زرعت على قبر أبيك. ودعا بالراعي وسأله عن الشاة، فقال: ماتت أمها فأرضعتها من لبن كلبة، وسأل صاحبة الخبز، فقالت: إنها حائض. وجاء ودخل على أُمه، وسألها، فقالت: كان أبوك ملكاً ذا ثروة عظيمة، وكان لا يولد له، فخشيت أن يذهب الملك والثروة، فأمكنت أحد الخدم من نفسي، فجئت بك.

فأقبل على أولاد نزار، وسألهم عما قالوا، فقال مضر: الخمرة إذا شربت أزالت الهم، وهذه تجلب الهم؛ فعلمت أن الكرمة زرعت على مقبرة.

وقال ربيعة: إن شحم الشاة فوق لحمها وهذه شحمها تحت لحمها، فعلمت أنها رضعت من كلبة. وقال أنمار: رأيت صاحب الطعام لم يحضر معنا، ولم يشاركنا في الأكل؛ فعرفته من طباعه؛ لأن أباه لم يكن كذلك. وقال أياد: رأيت الخبز إذا فت انتفش في الطعام، وهذا بخلاف ذلك، فعلمت أن صاحبة العجين حائض.

فقال الأفعى: صفوا لي حاجتكم، فقصّوا عليه ما أوصاهم به أبوهم، فقضى بالقبة الحمراء وما أشبهها من الدنانير وإبل وخيل لمضر فسمي مضر الحمراء.

وقضى بالخباء الأسود وما شابهه من خيل وإبل وخيام لربيعة. وقضى بالبدرة وما شابهها من دراهم وأراضٍ لأنمار. وقضى بالخادمة الشمطاء وما شابهها من مال وخيل بلق وإبل لأياد. فقبلوا بحكمه وخرجوا شاكرين.

مضر بن نزار

هو مضر بن نزار بن معد بن عدنان، جد جاهلي من سلسلة النسب النبوي الشريف، كنيته أبو الياس، وأمه سودة بنت عك بن عدنان. يقال: إنه أول من كتب الكتاب العربي على الصحيح.

يقول القتبي: ومعنى مضر هو من المضيرة، أو من اللبن الحامض. والمضيرة طعام يطبخ باللبن الحامض؛ فسمي مضر لبياضه. والعرب تسمي الأبيض أحمر؛ فلذلك قيل: مضر الحمراء.

وقيل في سبب تسميته بمضر الحمراء: أن أباه نزار لما حضرته الوفاة ـ وكان أغنى بني معد ـ قسّم أمواله بين أولاده، فقال لمضر: يا بني، هذه القبة ـ وهي من أدم حمراء ـ وما أشبهها من مالي هي لك. فسمي مضر الحمراء.

وقيل: إنما سمي مضر بهذا الاسم؛ لأنه كان يمضر القلوب ـ أي يأخذها لحسنه وجماله ـ ولم يره أحد إلّا أحبه؛ لما كان يشاهد في وجهه من نور النبوّة.

وكان على دين إبراهيم الخليل، وفي الرواية: «**لا تسبوا مضر؛ فإنه كان على ملة إبراهيم**»، وكانت لبني مضر الرئاسة بمكة والحرم.

وهو أول من سنّ الحداء للإبل في العرب، وكان من أحسن الناس صوتاً، وهو أول من حدا من العرب للإبل، والسبب في ذلك أنه سقط من بعيره فانكسرت يداه، فكان يمشي خلف الإبل، ويصيح: وا يداه وا يداه، ويترنم بذلك ـ وكان

أحسن الناس صوتاً ـ فاعتنقت الإبل، وذهب كلالها، فكان ذلك أصل الحداء عند العرب؛ لأن الأبل تنشط بالحداء، وتسرع في مشيها لاسيما إذا كان صوت الحادي حسناً؛ فإنها عند سماعه تمدّ أعناقها، وتصغي إلى الحادي، وتسرع في سيرها، وتستخف الأحمال الثقيلة، وربما قطعت المسافة البعيدة في زمن قصير، وربما أخذت مسير ثلاثة أيام في يوم واحد، فوضع الحداء، وزاد الناس عليه.

وقال بعض باستحبابه؛ للسرعة في السير، وتنشيط النفوس، وترويحها، وتسهيل السير عليها.

ولمضر بن نزار من الولد اثنان هما: الياس بن مضر، وعيلان بن مضر. وأمهما الرباب بنت حمير بن معد بن عدنان.

وما يؤثر عنه قوله:

من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة.

خير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلّا جسر فواق، وهو ما بين الحلبتين.

الياس بن مضر

هو الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. جد جاهلي من سلسلة النسب النبوي الشريف، كنيته أبو مدركة، وأمه الرباب بنت حمير بنت معد بن عدنان. قال الأنباري: الياس ـ بكسر الهمزة، وقيل: مفتوحة، وقيل همزة وصل ـ والياس والياسين بمعنى واحد، كما تقول ميكال وميكائيل.

وقال المفسرون: معنى قوله تعالى ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[1]، يعني محمد بن

---

(١) الصافات: ١٣٠.

عبد الله، والياسين: الياس. وهو موافق لاسم نبي الله الياس الذي جاء اسمه في التنزيل ضمن خمسة وعشرين نبي ذكرهم الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم، فقال تعالى في سورة الصافات: ﴿**وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾(١)، وفي سورة الأنعام: ﴿**وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾(٢).

وقال الأنباري: إنما سمي الياس بهذا الاسم بضدّ الرجاء، واللام فيه للتعريف، والهمزة همزة وصل.

ويقال: سمي بهذا الاسم؛ لأن أباه مضر كان قد كبر سنه، ولم يولد له ولد، فولد له هذا الولد، فسماه الياس؛ لأنه أتى بعد يأس من الولد.

وكان شريفاً فاضلاً، فعظم أمره، وعلا شأنه عند العرب، حتى كانت تدعوه بكبير قومه وسيد عشيرته، وكانت لا تقضي أمراً دونه. وكان يسمع في صلبه صوت تلبية النبي محمدﷺ المعروفة في الحج.

وقد جاء في حديث: «**لا تسبوا الياس؛ فإنه من المؤمنين**»، وكان في قومه مثل لقمان الحكيم في قومه.

وهو أول من أهدى البُدُن إلى بيت الله الحرام، وهو أول من ظفر بالحجر لما غرق البيت الحرام أيام الطوفان في زمن نبي الله نوحعليه السلام، فأخذه ووضعه في زاوية الكعبة في محله اليوم. كذا في (حياة الحيوان).

وقد جاء عن بعض بنيه شعر يفتخر فيه به وبأُمه خندف، فيقول:

إني لدى الحرب رخي اللببِ   أمّي خندف وإلياس أبي

---

(١) الصافات: ١٢٣.

(٢) الأنعام: ٨٥.

ولما مات الياس حزنت عليه زوجته خندف حزناً شديداً، فلم يظلها سقف بيت بعد موته؛ لحزنها على الياس حتى ماتت. وخندف اسمها ليلى بنت حلوان ابن عمران بن الحاف القضاعية، أم جاهلية ينسب إليها بنوها من زوجها الياس بن مضر العدناني.

يقول الشريشي: وهي أم عرب الحجاز، وجميع ولد الياس منها. وقيل: سبب تسميتها خندف أن زوجها الياس رآها يوماً تمشي، وتخندف في مشيتها، فقال: لها مالك تخندفين؟ قالت: ما زلت أخندف في أثركم. فسميت خندف.

والخَنْدَفَةُ ضربٌ من المشي.

ويقال: خندف هذه هي التي كان يفخر بأمومتها يزيد بن معاوية عندما جيء له برأس الحسين، وأخذه بيده، وجعل يضربه بالعصا ويقول:

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعلْ

لأهلوا واستهلوا فرحاً ... ولقالوا يا يزيد لا تشلْ

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزلْ

وخندف هذه التي عرف بها بنو الياس هي التي ضربت الأمثال بحزنها على زوجها الياس، وتركت بيتها، وساحت في الأرض تبكي زوجها الياس. وتندبه، حتى ماتت كمداً، وضربت الأمثال بحزنها على زوجها، فقيل: «أحزن من خندف».

وكانت وفاته يوم الخميس، فكانت إذا جاء يوم الخميس خرجت إلى قبره، وجعلت تبكي عنده وتنوح من أول النهار إلى آخره؛ فعمل يوم الخميس للأموات من ذلك اليوم في بعض البلدان، وهو بدعة جاهلية. ولالياس بن مضر من زوجته

خندف ثلاثة أولاد هم: مدركة بن الياس، ويقال له عامر، ومدركة لقب له. وطابخة بن الياس، ويقال له عمرو، وطابخة لقب له. وقمعة بن الياس. وكانوا ينسبون لأمهم خندف أكثر ممّا ينسبون لأبيهم؛ لأنها تركتهم شغلاً بحزنها على أبيهم الياس. فرحمهم الناس، وقالوا: هؤلاء أولاد خندف التي تركتهم صغاراً أيتاماً؛ حتى عرفوا ببني خندف.

ويقال: إن السبب في لقب عامر بمدركة، وعمرو بطابخة أنهما كانا في إبل لهما يرعيانها، فاقتنصا صيداً، فقعدا عليه يطبخانه، فعدت عادية على إبلهما، فقال عامر لأخيه عمرو: أتدرك الإبل، أم تطبخ الصيد؟ فقال عمرو: بل أطبخ الصيد.

فلحق عامر بالإبل فأدركها وجاء بها، وجلس عمرو يطبخ الصيد. فلما راحا إلى أبيهما الياس حدثاه بما جرى لهما، فقال لعامر: أدركت الإبل، فقد أدركت ما طلبنا؛ فأنت مدركة. وقال لعمرو: طبخت الصيد فأنضجت ما طبخنا، فأنت طابخة. فكانا لا يعرفان بين الناس إلّا بهذين الاسمين.

أما هشام بن محمد فيقول: كان السبب في ذلك أن أباهما الياس خرج معهما في نجعة، فنفرت إبلهم من أرنب، فخرج إليها عامر فأدركها؛ فسمي مدركة، وأخذها عمرو فطبخها؛ فسمي طابخة، والله أعلم.

مدركة بن الياس

هو مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. جد جاهلي من سلسلة النسب النبوي الشريف، واسمه عامر، وكنيته أبو الهذيل. وقيل: أبو خزيمة، ولقبه مدركة. وأمه خندف بنت حلوان بن عمران بن الحاف القضاعية. وقيل: اسمها ليلى، وتعرف بخندف.

والصحيح عند الجمهور أنه عامر، وقيل له مدركة؛ لأنه أدرك كل عزّ وفخر كان في آبائه، وكان فيه نور النبي محمدﷺ. ولعل المراد: ظهوره فيه، وكان ظاهراً بيّناً فيه. ولمدركة بن الياس من الولد اثنان هما: خزيمة بن مدركة، وهذيل بن مدركة، وأمهما امرأة من قضاعة.

ويقال: قد اشتهر من هذيل بن مدركة في الجاهلية وصدر الإسلام أكثر من سبعين شاعراً، وكانت منازل بني مدركة في تهامة.

خزيمة بن مدركة

هو خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. جد جاهلي، وهو من سلسلة النسب النبوي الشريف، وكنيته أبو أسد، وأُمه سلمى بنت أسلم بن الحاف القضاعية. وخزيمة: تصغير خزمة، وهي واحدة الخزم، وهو موجود في أسماء الأنصار وغيرهم، وهي المرة الواحدة من الخزم، وهو شد الشيء وإصلاحه.

وقال أبو حنيفة الدينوري في كتابه (النبات): شجر الخزم مثل شجر الدوم، تتخذ من سعفه الحبال، ويصنع من أسافله خلايا النحل، وله ثمر لا يأكله الناس، لكن تألفه الغربان وتستطيبه.

وقيل: إنما سمي خزيمة؛ لأنه خزم ـ أي جمع فيه ـ نور النبي محمدﷺ الذي كان في آبائه. ولخزيمة من الولد أربعة هم: أسد بن خزيمة، وأسدة بن خزيمة، والهون بن خزيمة، وكنانة بن خزيمة. وأمهم عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان ابن مضر.

كنانة بن خزيمة

هو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. جد جاهلي من سلسلة النسب النبوي الشريف. وكنيته أبو النضر، وأُمه عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان بن مضر.

سمي كنانة؛ لأنه لم يزل في كن من قومه. وقيل: سمي كنانة؛ لستره على قومه، وحفظه لأسرارهم.

وكان شيخاً حسناً، عظيم القدر، رفيع الشأن، تحجّ إليه العرب لعلمه وفضله. وكان يخبرهم بمجيء الرسول الأعظم محمد بن عبد اللهﷺ، ويقول: قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد، يدعو إلى الله، وإلى البر والإحسان، ومكارم الأخلاق؛ فاتبعوه تزدادوا شرفاً إلى شرفكم، وعزاً إلى عزّكم، ولا تكذّبوا ما جاء به؛ فهو الحق. ويقول:

أقسم بالكعبة والأركانِ ... أخبركم بالحق والبيانِ
من أجل مبعوث عظيم الشانِ ... يبعث بالتنزيل والفرقانِ
وبالهدى وفاضل البرهانِ ... تبطلْ به عبادة الأوثانِ

قال ابن دحية: وكان كريماً، يأنف أن يأكل وحده، فإذا لم يجد أحداً يأكل معه، جعل يأكل لقمة، ويرمي لقمة على صخرة ينصبها بين يديه أنفر من أن يأكل وحده فلربما يمر بها جائع أو طير أو وحش.

ولكنانة بن خزيمة من الأبناء أربعة هم: النضر بن كنانة، ومالك بن كنانة، وعبد مناة بن كنانة، وملكان بن كنانة. فالنضر وملكان ومالك أمهم برة بنت مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وأم عبد مناة هالة بنت سويد.

ومما يؤثر عنه قوله: رُبّ صورة تخالف المخبرة، قد غرت بجمالها، واختبر قبح فعالها، فاحذر الصور، واطلب الخبر.

النضر بن كنانة

هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان، من سلسلة النسب النبوي الشريف. كنيته أبو يخلد، وأمه برة بنت مر بن طابخة بن الياس بن مضر. وقيل: اسمه قيس، ولُقّب بالنضر؛ لنضارة وجهه، وحسنه وجماله؛ مما فيه من نور النبوة.

بنوه قبائل وبطون كثيرة، كانت مساكنهم حول مكة وما والاها. وفي النسّابين من يرى أنهم جماع قريش عند الفقهاء، فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قريش، ويقال لأولاده الذين منهم مالك وأولاده قريش.

وللنضر بن كنانة من الولد اثنان هما: مالك بن النضر، ويخلد بن النضر، وأمهما عاتكة بنت سعد بن الظرب العدواني، والد عامر بن الظرب الذي حكم العرب ثلاثمئة سنة، الذي يعدّ قوله حكماً وقضاؤه فعلاً. وفي عدوان يقول ذو الأصبع:

عــذير الحــي مــن عــدوا	**ن كـــانوا حيـــة الأرضِ**
بغـــى بعضـــهم بعضـــاً	**فلـــم يرعــوا علـــى بعــضِ**
ومـــنهم كانـــت الســـادا	**ت والموفـــون بـــالفرضِ**
ومـــنهم مـــن يجيـــز النـــا	**س بالســـنة والفـــرضِ**
ومـــنهم حكـــم يقضـــي	**فـــلا يـــنقض مـــا يقضـــي**

ويقال: إن النضر بن كنانة هو أول من سنّ الديّة في العرب: مئة من الإبل، وذلك أنه قتل أخاه، فوداه مئة من الأبل، فجرت بذلك السنة.

وفي ذلك يقول الكميت:

أبونا الذي سن المئين لقومـه	**ديات وعـداها سـلوفاً منيبهـا**

أصل قريش

لقد عرف عن العرب في العصور المتقدمة قبل الإسلام حفظهم لعلم النسب، فحفظوا أنسابهم إلى عدنان أو قحطان، أو إلى إسماعيل بن إبراهيم، أو إلى آدمعليه السلام، وبذلك بقيت الأنساب محفوظة خالصة من الشك والشبهة إلى أن جاءت الدعوة المحمدية، وحثّت على ذلك.

فالعناية بالنسب غير مستغربة من قوم يعرف حرصهم المفرط على الأنساب، وولعهم بذكرها من قديم. وبقي ذلك إلى ما بعد الإسلام بقرون حتى لتسمع جرير بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان في قصيدة له يقول فيها:

فما الأم التي ولدت قريشاً … بمقرفة النجاد ولا عقيمِ

وما قوم بأنجب من أبيكم … ولا خال بأكرم من تميمِ

يقول ابن هشام: يعني بذلك أم النضر بن كنانة، وهي مرة بنت مر أخت تميم ابن مر، وهو الذي لُقّب بقريش، وقيل: النضر نفسه هو قريش، ومن لم يكن من ولده فليس قرشي، وهو الذي عليه الأكثرون. ويروى أن النبي محمداًصلى الله عليه وآله سُئِل: مَن قريش يا رسول الله؟ قال: «**من كان من ولد النضر فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس قرشياً**».

وعن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله قال لوفد كندة حين قدموا عليه المدينة، وقالوا له: يا رسول الله أنت منا؟ قال: «**لا، نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو أُمنا، ولا ننتفي من أبينا**».

وقيل في السبب في تسمية النضر بن كنانة بقريش: قال البيهقي: عن أبي نصر ابن قتادة قال: سأل معاوية ابن عباس لِمَ سميت قريش قريشاً؟ قال: قريش تصغير قرش، وهو دابة في البحر من أعظم دوابه، لا تدع شيئاً من الغث والسمين إلّا أتت عليه، فاتفق أن النضر بن كنانة خرج في سفر له فركب سفينة، فلما كان في بحر الهند قبل بحر القلزم الذي أغرق الله فيه فرعون وشيعته، تعرض للسفينة حيوان بحري كبير يقال له القرش، وهي دابة عظيمة في دواب البحر، لا تدع دابة إلّا أكلتها، فجميع الدواب تخافها؛ لشدتها وقوتها، وهي سيدة الدواب البحرية على الإطلاق. وهي تمنع السفن من السير في البحر، وتدفع السفينة فتقلبها، وتضربها فتكسرها. تأكل ولا تؤكل، لا يرده شيء، ولا يهاب من شيء إلّا النار.

فصاح أهل السفينة: القرش القرش، يريد أن يقلب سفينتنا. فسمع النضر كلامهم ـ وكان مسلحاً بحراب ـ فجعل يرميه بالحراب حتى قتله، واستطاع حز رأسه، ثم جاء به إلى مكة ونصبه على جبل أبي قبيس، فكان الناس ينظرون إليه متعجبين، ويقولون: قتل النضر قريشاً. فسمي النضر قريشاً. ثم أنشده شعر الجمحي:

وقريش هي التـي تسـكن البحـر ... بهـا سـميت قـريش قريشـا

تأكـل الغـث والسـمين ولا تتـ ... ـرك فيه لـذي الجنـاحين ريشـا

هكـذا فـي الـبلاد حـي قـريش ... يـأكلون الـبلاد أكـلاً كميشـا

ولهـم أخـر الزمـان نبـي ... يكثـر القتـل فـيهم والخموشـا

وللنسابين خلاف طويل في قريش؛ فقال بعضهم: قريش كان اسم شخص يدعى قريش بن يخلد بن النضر بن كنانة، وكان جاهلياً من أهل مكة، وكان دليل

بني كنانة في تجاراتهم، فإذا أقبل في القافلة قالوا: قدمت عير قريش، وإذا خرج قالوا: خرجت عير قريش، فغلب لفظ قريش على من كان في عهده من بني النضر بن كنانة، فسموا قريشاً.

وكان له ابن يدعى بدر بن قريش، هو الذي حفر بئر بدر المنسوبة إليه، والتي كانت عندها الواقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

وقيل: سميت قريش قريشاً من التقريش والتقرّش: التجارة والاكتساب. قال الجوهري: القرش: الكسب والجمع، وقد قرش يقرِش، وبه سميت قريش قريشاً، وهي قبيلة كبيرة، أبوهم النضر بن كنانة، فكل من كان من ولده فهو قرشي. قال اليشكري:

إخـوة قرّشـوا الـذنوب علينـا ... من حديث من عمرنـا وقـديمِ

وقال الزبير بن بكار: أجمع النسابون من قريش وغيرهم على أن قريشاً تفرّقت عن فهر بن مالك، وهو جماع قريش عند الأكثر. وقيل: قريش اسم لفهر بن مالك، وسمي قريش؛ لأنه كان يقرش ـ أي يفتش عن خلة حاجة المحتاجين من الناس فيسدها من ماله ـ وكان بنوه يقرشون أهل الموسم ـ أي يفتشون عن حوائجهم فيزودونهم بما يبلغهم بلادهم ـ فسموا بذلك قريشاً، واستشهدوا لقولهم: إن التقريش هو التفتيش بقول الشاعر:

أيهـا النـاطق المقـرِّش عنـا ... عند عمـرو فهـل لهـن انتهـاءّ

وقال الكعبي: إنما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم، ولا حاضن ولا حاضنة، وقيل: إن أول من لقب بقريش هو قصي بن كلاب؛ لأن اشتقاق قريش من التقرش، هوالتجمع بعد التفرق؛ فلقب قصي بذلك، لأنه عندما حاربته

خزاعة، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال، وأسكنهم مكة لتقوى بهم عصبته، فسمي مجمعاً، وبه جمع الله القبائل من قريش بعد تفرّقها. وفي ذلك يقول حذافة العدوي في قصيدته التي يمدح فيها عبد المطلب، والتي مطلعها:

بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه   يضيء ظلام الليل كالقمر البدرِ

إلى أن يقول فيها:

أبوكم قصي كان يُدعى مجمّعاً   به جمع الله القبائل من فهرِ
هُمُ ملؤوا البطحاء مجداً وسُؤدداً   وهم طردوا عنا غزاة بني بكر

فجمع قصي القبائل بعد تفرقها في البلاد إلى اثنتي عشرة قبيلة من نواحي مكة وبطاحها وظواهرها، فأسكن بطون قريش كلّها الأباطح فسموا قريشَ الأباطح، وأسكن الآخرين بظهر مكة، فسموا قريش الظواهر. والأولى أشرف من الثانية.

ويقال في النسبة إلى قريش: قرشي وقريشي، قال الجوهري:

لكل قريشي عليه مهابة   سريع إلى داعي الندى والتكرمِ

مالك بن النضر

هو مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان. وهو من سلسلة النسب النبوي الشريف، وكنيته أبو الحارث، وأمه عكرشة بنت عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر. ويقال: إن اسمها عاتكة، وعكرشة لقبها. وقيل: سمي مالكاً؛ لأنه ملك العرب وسادهم. وله من الأبناء:

فهر بن مالك

فهر بن مالك، وأمه جندلة بنت الحارث بن مضاض الجرهمي. فهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، من سلسلة النسب النبوي الشريف. وكنيته أبو غالب. والفهر: الحجر الطويل.

وقيل: اسمه قريش، وفهر لقب له، فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي.

وكان فهر رئيس الناس في مكة، وقائداً عاماً لبني كنانة ومن انضم إليها من مضر وغيرهم. يقول ابن إسحاق: ولما جاء حسان بن كلال ملك اليمن مغيراً على الحجاز مع حمير وغيرهم من القبائل اليمنية يريد هدم الكعبة ونقل أحجارها من مكة إلى اليمن ليبني بها بيتاً، ويجعل حجّ الناس عنده في بلاده، أقبل بجيوشه حتى نزل بنخلة ـ وهو وادٍ قريب من مكة ـ وأغار على سرح الناس نهباً، ومنع الطريق، فلما رأى فهر ذلك جمع قبائل كنانة وخزيمة وأسد وباقي العرب، وخرجوا لقتاله بقيادة فهر بن مالك، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فتغلب عليهم فهر، وأسر الملك حساناً، وانهزمت حمير ومن انضم إليهم من قبائل اليمن.

وبقي الملك حسان في الأسر عند فهر بن مالك ثلاث سنين، حتى افتدى نفسه منهم بمالٍ كثير، وخرج من حبسه، وسار إلى اليمن، فمات بين مكة واليمن. فهابت العرب فهراً وعظموه، وعلا قدره، واشتهر أمره.

وكانت منازل بني فهر حول مكة، وهم بطون كثيرة من قريشٍ وغيرهم.

ولفهر من الأبناء أربعة هم: غالب بن فهر، والحارث بن فهر، ومحارب بن فهر، وأسد بن فهر. وأُمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة.

ومما يؤثر عنه قوله لابنه غالب: يا بني، قليل ما في يدك أغنى لك من كثير مما أخلق وجهك وإن صار إليك(١).

غالب بن فهر

هو غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. من سلالة النسب النبوي الشريف، وأُمه ليلى بنت الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل بن مدركة، وكنيته أبو تيم. ولغالب ابن فهر من الأبناء ولدان هما: لؤي بن غالب، وتيم بن غالب وأُمهما سلمى بنت عمرو الخزاعي.

وتيم بن غالب يلقب: الأدرم، ومعنى الأدرم ـ كما جاء في سيرة ابن هشام ـ: المنقوص الذقن، وكان تيم بن غالب كذلك، فسمي الأدرم.

وقال الزبير: وبنو الأدرم هؤلاء هم أعراب مكة، وهم من قريش الظواهر النازلين بظهر مكة، لا من قريش البطاح الذين هم قبائل عبد مناف.

لؤي بن غالب

لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهو من سلسلة النسب النبوي الشريف، كنيته أبو كعب، وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي، وقيل: عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة، وهي أول العواتك اللاتي ولدن رسول اللهﷺ فقالﷺ: **«أنا ابن العواتك»**.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٣٣، السيرة الحلبية ١: ٢٦.

ولؤي بالهمزة أكثر من عدمها، ويقول البعض: لوي، بغير همز.

قال الأنباري: وهو تصغير لأي؛ لأن اللأي هو البطء، كأنهم يريدون معنى الاناة وترك العجلة، وذلك أنه وجد في شعر أبي أسامة قوله:

فــدونكُمُ بنــي لأي أخــاكم ودونــك مالكــاً يــا أم عمــرو

وللؤي بن غالب من الأبناء أربعة هم: كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي ـ وأُمهما مخشية بنت شيبان بن محارب بن فهر ـ وسامة بن لؤي، وعوف بن لؤي، وأُمهما ماوية بنت كعب بن القين من بني قضاعة.

يقول ابن هشام: سميت بالماوية ـ وهي المرأة ـ كأنها نسبت إلى الماء؛ لصفائها، وقلبت همزة الماء واواً.

وهم أهل الحرم، ولهم ورثة البيت الحرام، قال شاعرهم في ذلك:

أبونــا كنــاني بمكــة قبــره بمعــتلج البطحــاء بــين الأخاشــبِ
لنا الربع من بيـت الحـرام وراثـة وربع البطاح عنـد دار ابـن حاطـبِ

وقال أحد بني مرة بن عوف يفخر بأخوته وقومه حين هرب من النعمان بن المنذر ولحق بقريش:

لعمــرك إننــي لأحــب كعبــاً وســامة إخــوتي حــب الشــرابا
فقــومي إن ســئلت بنــو لــؤي بمكــة علّمــوا مضــر الضــرابا

ويقال: إنه وقع بين سامة بن لؤي وأخيه عامر بن لؤي شيء، ففقأ سامة عين عامر، فأخافه عامر، فخرج هارباً عنه إلى عمان على ناقة له، فبينما هو يسير على ناقته وضعت رأسها ترتع، فأخذت حية بمشغرها فهصرتها حتى وقعت الناقة لشقها، ثم نهشت سامة فقتلته، ومات غريباً. فقال سامة حين أحس بالموت ينعى نفسه،

وقيل: إنه كتب بإصبعه في الأرض:

عينُ فابكي لسامة بن لؤي　　علقت ساق سامة العلاقه
لا أرى مثل سامة بن لؤي　　يوم حلوا به قتيلاً لناقه
بلّغا عامراً وكعباً رسولاً　　إن نفسي إليهما مشتاقه
إن تكن في عمان داري فإني　　غالبيّ خرجت من غير فاقه
رب كأس هرقت يابن لؤي　　حدد الموت لم تكن مهراقه
رمت دفع الحتوف يابن لؤي　　ما لمن رام ذاك بالحتف طاقه

كعب بن لؤي

هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. من سلالة النسب النبوي الشريف، أُمه ماوية بنت كعب بن القين القضاعية. وقيل له: كعب؛ لعلوه وارتفاعه؛ لأن كل شيء علا وارتفع فهو كعب، ومن ثم قيل للكعبة: كعبة.

وكعب بن لؤي هو أول من جمع قومه يوم العَروبة ـ أي يوم الرحمة الذي هو يوم الجمعة ـ وهو أول ما أُسمي يوم الجمعة؛ لاجتماع قريش فيه إليه. وقيل: لم تسم العروبة الجمعة إلّا منذ أن جاء الإسلام على قول بعضهم.

وكان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم العروبة ـ أي يوم الرحمة الذي هو يوم الجمعة ـ ويعظهم، ويذكّرهم بمبعث النبي محمدﷺ، ويخبرهم أنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، ويقول لهم: سيأتي لحرمكم نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، وينشد ويقول:

على غفلة يأتي النبي محمد　　فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم يشير إلى نفسه ويقول:

أرى لقومي ما أرى لنفسي — أن يتبعوا خير نبي الأنسِ

برهانه مثل شعاع الشمسِ — يبعث في مكة دار الخمس

بمحكم التنزيل غير اللبسِ

ثم يقول: يا معشر قريش، من أدركه منكم فليؤمن به ويصدقه؛ فإن قومه سيؤذونه ويكذبونه ويقول:

يا ليتني شاهدٌ فحواءَ دعوته — حين العشيرة تبغي الحق خذلانا

وكان بينه وبين مبعث النبي محمدﷺ خمسمئة وستون سنة، وقيل: أقل، وقيل: أكثر.

وكعب هو أول من قال: «أما بعد» حينما تجتمع إليه قريش، فحين يقوم فيهم خطيباً يقول: أما بعد: فاسمعوا وعوا، وتعلّموا تعلموا، وتفّهموا تفهموا، ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، والأنثى والذكر والزوج إلى بِلىً صائرون. فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمّروا أموالكم، واصلحوا أعمالكم، فهل رأيتم من هالك رجع، أم ميت نشر؟ الدار أمامكم، والظن خلاف ما تقولون. زيّنوا حرمكم وعظموه، وتمسّكوا به ولا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم. ويقول:

نهار وليل واختلاف حوادث — سواء علينا ليلها ونهارُها

يؤوبان بالأحداث حتى تأوبا — وبالنعم الضافي علينا ستورُها

صروف وأنباء تقلب أهلها — لها عقب ما يستحلّ مريرُها

على غفلة يأتي النبي محمد — فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرُها

ولعلوه وارتفاع شأنه؛ أرّخوا بموته حتى كان عام الفيل، فأرّخوا به. ولما مات عبد المطلب أرّخوا به، ثم كان التاريخ بالهجرة النبوية الشريفة.

ولكعب بن لؤي من الأبناء ثلاثة هم: مرة بن كعب، وعدي بن كعب، وهصيص بن كعب. وأمهم وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر.

مرة بن كعب

هو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. من سلسلة النسب النبوي الشريف، وكنيته أبو يقظة، وأمه وحشية بنت شيبان بن محارب ابن فهر بن مالك بن النضر. ومرة منقول من وصف الحنظلة والعلقمة، وكثيراً ما تسمي العرب بحنظلة وعلقمة. ولمرة بن كعب من الأبناء ثلاثة هم: كلاب بن مرة، وتيم بن مرة ـ وأُمهما هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن فهر بن مالك ـ ويقظة بن مرة، وأمه البارقية: امراة من بارق من أسد.

كلاب بن مرة

هو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. من سلالة النسب النبوي الشريف، وأُمه هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن فهر ابن مالك. وكنيته أبو زهرة. ويقال: اسمه حكيم، وقيل: عروة. ولقب بكلاب؛ لأنه يحب الصيد، وأكثر صيده كان بالكلاب.

ولفظ كلاب هو لفظ منقول إما من المصدر الذي هو معنى المكالبة أي المضايقة

على الأعداء، أو من الكلاب ـ جمع كلب ـ لأنهم يريدون الكثرة. ويقال سمي بسم المسمار الذي في قائم السيف تكون في علاقته، وسمي به على أنه من حملة السيف، ومن الشجعان الفرسان. ويقال: كلاب باسم نجوم أول فصل الشتاء، وهم أربعة: الذراع، والنثرة، والطرفة، والجبهة، فسمي بها دلالة على العلو والرفعة، وحسن الطالع.

وكان من عادة أن يسموا أبناءهم بشرّ الأسماء يرهبون به عدوهم، وقد سُئل أبو الرقيش الأعرابي: لم تسمون أبناءكم بشرّ الأسماء، نحو كليب وذؤيب، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحور رزق ومرزوق ورباح؟ فقال: نسمي أبناءنا لأعدائنا، ونسمي عبيدنا لأنفسنا. يريد أن الأبناء عدة للأعداء، وسهام في نحورهم، فاختاوا لهم هذه الأسماء.

وكلاب الجد الثالث لآمنة بنت وهب والدة الرسول الأعظمﷺ، وفي كلاب يجتمع نسب أبيه عبد الله بن عبد المطلب، وأمه آمنة بنت وهب.

ولكلاب من الأبناء اثنان هما: قصي بن كلاب، وزهرة بن كلاب، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل، أحد بني الجدرة. ولقبوا بني الجدرة؛ نسبة إلى جدّهم عامر بن عمرو الأزدي، وكان قد بنى للكعبة جداراً حين دخلها السيل، وصُدع بناؤها، ففزعت قريش لذلك، وخافوا تهدادها إن جاء سيل آخر، وأن يذهب بشرفهم ودينهم، فبنى عامر لها جداراً، فلما بنى ذلك الجدار سمي الجادر، ولقب أولاده بعده بني الجدرة، وفيه يقول الشاعر:

ما نرى في الناس شخصاً واحداً ... من علمناه كسعد بن سيلْ
فارساً اضبط فيه عسرة ... وإذا ما واقف القرن نزلْ
فارساً يستدرج الخيل كما اســ ... ـتدرج الحرّ القطامي الحجلْ

قصي بن كلاب

هو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الكناني القرشي المكي ولادةً وإقامةً ووفاةً. سيد قريش ورئيسهم في عصره، والأب الخامس في سلسلة النسب النبوي الشريف. كان له الحجابة والسقاية والوفادة والندوة واللواء، وكانت قريش تتيمن برأيه، فلا تبرم أمراً إلّا في داره.

اسمه زيد بن كلاب، وقصي لقبه، وأُمه فاطمة بنت سعد بن سيل الأزدي. وسمي قصياً ـ بالتصغير ـ لأنه شبَّ بعيداً عن قومه وعشيرته وبلده، غريباً عن أهله ووطنه في بلاد قضاعة.

يقول اليعقوبي في روايته: إن كلاب بن مرة كان له ولدان هما: زهرة بن كلاب، وزيد بن كلاب من زوجته فاطمة بنت سعد بن سيل، فلما مات كلاب ابن مرة، وخلف زوجته أرملة تزوجها ربيعة بن حزام كبير بني عذرة من بني قضاعة ـ من أشراف الشام ـ واحتملها إلى بلاد قومه، فأخذت معها ابنها زيداً؛ لأنه كان فطيماً، وتركت ابنها زهرة في قومه بمكة المكرمة لكبره، فلما بَعُد عن بلاده سمته قصيّاً.

وأقامت مع زوجها ربيعة وولدت له ولداً اسمه رزاح، وشب زيد غريباً في حجر ربيعة لا يعرف لنفسه أباً غير زوج أُمّه، ولا يُدعى إلّا له، ولا يعرف قوماً غير القوم الذين يعيش معهم.

فلما كبر زيد وصار شاباً قوياً، ناضل رجلاً من قضاعة يدعى رقيعاً ـ من عذرة ـ فنضله زيد، فغضب المنضول، ووقع بينهما شرّ حتى تقاتلا وتنازعا، فعيّره رقيع بالغربة، وقال له: ألا تلحق بقومك وبلادك؛ فإنك لست منا، إنما أنت فينا ملصق؟ قال زيد: فمن أنا؟ قال رقيع: اسأل أمك.

فجاء زيد ودخل على أُمّه فاطمة، وقد وجد في نفسه مما قاله القضاعي شيئاً، فسألته عن أمره، فقال لها: من أبي؟ قالت له: أبوك ربيعة. قال: لو كنت ابنه ما نفيت. فقالت ما الخبر؟ فأخبرها بما قاله القضاعي، قالت: أو قال لك هذا؟ قال: نعم. فقالت: والله ما أحسن الجوار، ولا حفظ الحق. فأنت والله يا بُني أكرم منه نفساً، وأفضل والداً ونسباً وحسباً، وأشرف منه منزلاً، وأعلى منه كعباً، أنت من قريش، أبوك كلاب بن مرة، وأخوك زهرة، وأعمامك بمكة المكرمة جيران بيت الله الحرام، وسدنة الكعبة المشرفة، تفد إليهم العرب من كل مكان في السنة مرتين. فبلادك خير من بلاده، وقومك خير من قومه، ورهطك خير من رهطه، وآباؤك أشرف من آبائه.

فأثارت بذلك إحساسه، وأصبح يحس بالغربة عن قومه ووطنه، وكره أن يعيش غريباً بين قوم لا تربطه بهم رابطة النسب والعرق، فقال لأُمه: والله لا أقيم ها هنا أبداً. فقالت له أُمه: لا تعجل يا بني بالخروج؛ إنك لا تعرف الطريق إلى مكة، ولا تدري صعابها؛ فانتظر حتى يدخل الشهر الحرام فتدخل مع حجاج قضاعة؛ فإني أخشى عليك أن يصيبك أشرار الناس.

فأقام قصي حتى جاء موسم الحج، فانضم إلى حجاج قضاعة، فلما وصلوا إلى البلد الطيب، وقضوا مناسك حجهم، وأرادوا الرجوع، عالجه القضاعيون على الخروج معهم، والرجوع إلى بلادهم، فأبى وأنشد يقول:

أنا ابن العاصمين بني لؤي ... بمكة منزلي وبها ربيتُ

إلى البطحاء قد علمت معد ... ومروتها رضيت بها رضيتُ

فلست لغالب إن لم تأثل ... بها أولاد قيذر والنبيت

رزاح ناصـــري وبـــه أســـامي فلست أخاف ضـيما مـا حييـتُ

ويهتدي قصي إلى أخيه وذويه وأقاربه، فيحس بالراحة والاطمئنان.

زواج قصي

دخل قصي مكة فتى خالي الوفاض، فقيراً لا يملك مالاً ولا ثروة، فرأى أن يعمل في تجارة، وكان قد عرف بعض اُمورها، فكان كلما تقدمت به الأيام زاد ماله، ونمت ثروته، حتى تَكّون لديه رأس مال مكنه من المشاركة في القوافل، والاتّجار لحسابه.

وكانت سدانة البيت ـ يوم جاء قصي إلى مكة ـ بيد خزاعة، وكان سيدها حليلاً الخزاعي، وكان قصي قد شب وتكاملت رجولته، وصار له من المال ما يكفي، ومن السمعة الطيبة ما يغني، ففكر في الزواج ثم عزم عليه وسعى لتنفيذه.

فذهب إلى حليل يخطب لنفسه ابنته حُبّى ـ وكان حليل يومئذ يلي أمر مكة والحكم فيها وسدانة البيت، وهو آخر من ولي أمر البيت والحكم بمكة من خزاعة ـ فلقيه سيد خزاعة بالترحيب، وكان على معرفة به بعدما ذاع صيته، واشتهر أمره بين الناس بدماثة الخلق، وحسن الاستقامة، والجد في سبيل الثروة، وكان قومه قد عرفوا له فضله وشرفه فأكرموه وقدّموه عليهم، فلم يتردد في إجابة ما سأله، بل وافق على مطلبه، وزوّجه ابنته حُبّى برضا واقتناع، فجاءت له بأربعة أولاد هم: عبد مناف بن قصي ـ جدّ الأسرتين الهاشمية والأموية ـ وعبد الدار بن قصي، وعبد العزاء بن قصي، وعبد قصي بن قصي.

فلما انتشر ولده، وكثر ماله، وعظم شرفه، وعلا قدره، وكان حليل قد تقدم به العمر، وشارف على الكبر، وأحس أن أجله قد قرب، لم يجد حليل خيراً من أن

يوصي لابنته حُبّى بمفتاح البيت الحرام، فاعتذرت ابنته عن قبول المفتاح، واقترحت على أبيها أن يدفعه إلى أبي غبشان، واسمه سليم الخزاعي ـ لأن مهمة السدني تتطلب جهداً لا تستطيع امرأة مثلها أن تقوم بأدائه ـ ولم يعارض زوجها في ذلك.

إلا إن أبا غبشان لم تكن تردعه هذه المهمة الجليلة التي تولّى أمرها عن سابق عهده من التهتك والعربدة، والإدمان على شرب الخمرة، بل زاد مع الأيام مجونه، حتى فقد كل ما لديه من مال، وتبددت ثروته، فيعوزه الشراب يوماً فيأتي إلى قصي، ويعرض عليه أن يعطيه مفتاح الكعبة لقاء دراهم معدودات؛ فضرب به المثل فقيل: «**أخسر من صفقة أبي غبشان**».

فاستشار قصي زوجته حُبّى، فاستقر رأيهما على أن يتولى قصي أمر السدانة ـ حتى تبقى للكعبة الشريفة حرمتها وكرامتها ـ فكان أبو غبشان آخر من ملك أمر مكة والبيت من خزاعة.

وأخذ قصي المفتاح من الخزاعي، وصار يقوم بشؤون الكعبة بعد أن كانت ولاية البيت في خزاعة ثلاثمئة سنة، وفي ذلك يقول الشاعر:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت ... بزق خمر فبئست صفقة النادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت ... عن المقام وظل البيت والنادي

ولكن خزاعة قد اعتبرت ذلك من قصي تحدياً لزعامتها، وتقليصاً لنفوذها المستمر من الإشراف على الكعبة المشرفة، فثارت مستنكرة تحاول انتزاع المفتاح بالقوة من قصي، وجمعوا أحلافهم لحربه، فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريشاً قرعة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده؛

فاستنفر قومه من قريش وبني كنانة؛ ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة.

فلما أجابوه، كتب إلى أخيه من أُمه رزاح بن ربيعة إلى نصرته، والقيام معه، فخرج رزاح بن ربيعة لنصرة أخيه ومعه إخوته وجماعة من قومه يقودهم بنفسه، فوافى أخاه قصيّاً وقد تهيأ لحرب خزاعة وأحلافها، فاشتدّ ساعده، ونشبت معارك بينه وبين أخصامه دامية في مكان يعرف بالأبطح، وفقد الطرفان عدداً كثيراً من أنصارهما.

فلما كثرت القتلى والجرحى بينهم، تداعوا إلى الصلح، فحكموا بينهم رجلاً من أشراف العرب يقال له يعمر بن عوف بن كعب ـ وكان رجلاً شريفاً عارفاً، فجمعهم جدّ بفناء الكعبة، وقام فيهم خطيباً، ثم قال: أيها الناس، إن قصياً أولى بالكعبة، وأمر مكة من خزاعة، وإن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر مشدوخ تحت قدمي ـ أي موضوع ـ وإن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة، ففيه الدية مؤدّاة، وأن يخلّى بين قصي وبين الكعبة.

فسمي يعمر بن عوف بالشداخ؛ لما شدخ من الدماء، ووضع منها.

وهكذا استطاعت قريش بقيادة قصي أن تحقق النصر على خزاعة وبني بكر، وتنتزع منهما المكانة التي كانت تعتزّ بها، كما وفر لها السيطرة والهيبة على القبائل الأُخرى.

وأنشد رزاح في إجابته لأخيه قصي فقال:

ولما أتى من قصي رسول ... فقال الرسول أجيبوا الخليلا

نهضنا إليه نقود الجياد ... ونطرح عنا الملول الثقيلا

نسير بها الليل حتى الصباح ... ونكمي النهار لئلا نزولا

إلى أن يقول:

فلما انتهينا إلى مكة ... أبحنا الرجالَ قبيلاً قبيلا

نعاورهم ثم حد السيوف ... وفي كل أوب خلسنا العقولا

ونخبزهم بصلاب النسو ... ر خبز القوي العزيز الذليلا

قتلنا خزاعة في دارها ... وبكراً قتلنا وجيلاً فجيلا

نفيناهُمُ من بلاد المليك ... كما لا يحلون أرضاً سهولا

فأصبح سبيهم في الحديد ... ومن كل حيٍّ شفينا الغليلا

فرجع الحق إلى نصابه، ورد شارد العدل بعد إيابه، واستقرت بقريش الدار، وقضت من خزاعة المراد والأوطار، وتسلّمت بيتهم العتيق القديم.

تولي قصي أمر مكة

وهكذا تولى قصي بن كلاب أمر مكة، وصار رئيساً لقريش على الإطلاق بعد ـ أن أزاح بني خزاعة وبني بكر عن البيت الحرام، وجلاهم عن مكة ـ فلما تولى قصي أمر مكة ـ وكان ذلك عام ٤٤٠ ميلادية، بعد حكم طال ثلاثمئة سنة لخزاعة ـ أدخلوا فيها عبادة الأصنام والأوثان، بعد أن جاؤوا بها إلى بيت الله الحرام.

فأول مهمة قام بها قصي هي جمع قومه بعد تفرقهم في البلاد من الشعاب والأودية ورؤوس الجبال، وأسكنهم مكة لتقوى بهم عصبته؛ فسموا قريشاً من التقرّش، والتجمع ـ وسمي قصي مجمعاً، وفي ذلك يقول الفضل بن العباس:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهرِ

فلما جمع قصي قومه بمكة بعد تفرقهم ـ وكانوا خمسة وعشرين بطناً ـ رتبهم على

منازلهم في النسب، فجعل داخل الحرم ستة عشر بطناً كما في مروج الذهب للمسعودي، وهم:

١ـ بنو هاشم بن عبد مناف.

٢ـ بنو المطلب بن عبد مناف.

٣ـ بنو الحارث بن عبد المطلب.

٤ـ بنو أمية بن عبد شمس.

٥ـ بنو نوفل بن عبد مناف.

٦ـ بنو الحارث بن فهر.

٧ـ بنو أسد بن عبد العزى.

٨ـ بنو عبد الدار بن قصي.

٩ـ بنو زهرة بن كلاب.

١٠ـ بنو تيم بن مرة.

١١ـ بنو مخزوم.

١٢ـ بنو يقظة.

١٣ـ بنو مرة.

١٤ـ بنو عدي بن كعب.

١٥ـ بنو سهم.

١٦ـ بنو جمح.

وأمرهم أن يبنوا بيوتهم حول البيت الحرام، وقال لهم: إن فعلتم ذلك هابتكم العرب، ولم يستحلّوا قتالكم. فبنوا حول البيت من جهاته الأربع، وجعلوا أبواب بيوتهم جهة الكعبة المشرفة، ولم يتركوا إلّا قدر المطاف.

ولكل منهم باب ينسب إليه، وهو باقٍ إلى اليوم، كباب بني شيبة، وباب بني مخزوم.

وجعل خارج الحرم تسعة بطون وهم:

١ـ بنو مالك.

٢ـ بنو معيط بن عامر بن لؤي.

٣ـ بنو نزار بن عامر.

٤ـ بنو سامة بن لؤي.

٥ـ بنو الأدرم، وهم تيم بن غالب.

٦ـ بنو محارب بن فهر.

٧ـ بنو الحارث بن عبد الله بن كنانة.

٨ـ بنو عائدة، وهو خزيمة بن لؤي.

٩ـ بنو نباتة، وهو سعد بن لؤي.

فسمّوا القبائل الذين هم داخل الحرم قريش البطاح، والذين هم خارج الحرم قريش الظواهر، والأُولى أشرف من الثانية؛ لأن منهم بني هاشم، وبنو هاشم أشرف فرع من فروع قبيلة بني قريش؛ لأنه فرع النبي محمدﷺ الذي يقول فيه الشاعر:

من بني هاشم بن عبد مناف وبنو هاشم بحار الحياءِ

من قريش البطاح من عرف النا س لهم فضلهم بغير امتراءِ

وقال ذكوان للضحاك بن قيس وقد ضربه:

فلو شهدتني من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهرِ

وكان قريش لا يعرفون بهذا الاسم قبل قصي بن كلاب؛ فقد كان له الفضل في إبراز هذه الأُسرة وتسميتها بقريش التي لولا جهوده ونشاطه لم تكن بهذا الاسم.

ولما جمع قومه تملك عليهم وعلى أهل مكة، واستطاع بحكمته أن يوجه الأنظار إليه، ويجمع العرب حوله بما أحدثه في موسم الحج من إطعام الوفود، ورعايتهم، والسهر على مصالحهم، فحاز شرف مكة كله.

قال ابن عباس: كان قصي بن كلاب أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاعه به قومه، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها.

مآثر قصي

يقول الذين كتبوا تاريخ العرب: إن مكة قد بدأت بقصي بن كلاب عهداً تضاءلت إلى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم، ووجدت فيه وظائف دينية اضيفت إلى ما كان لها من قبل. فكان لقصي بن كلاب جميع الرئاسة.

١ـ السقاية

وهي سقاية الحاج. وكانت إحدى الشؤونات الفاخرة، والمآثر التي يُباهَى بها في الجاهلية. وكانت السقاية في عهد قصي بن كلاب تستعمل في حياض من أدم توضع بفناء الكعبة، ويستقي فيها الماء العذب من الآبار البعيدة على الإبل في المزاود والقرب قبل حفر زمزم. وربّما قذف فيها بعض التمر أو الزبيب في غالب الأحوال ليحلي الماء لسقي الحاج بمكة ومنى وعرفات. فجرى ذلك في أمره في الجاهلية على قومه حتى جاء الإسلام.

٢ـ الحجابة والسدانة

ومعناها خدمة الكعبة المكرمة، وحفظ النظام في الحج، وتولية مفاتيح الكعبة.

٣ـ الرفادة

وهي ما يجمع من الطعام للحجيج. وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من طيّب أموالها إلى قصي بن كلاب، فيصنع به طعاماً للحاجّ يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم، ورفد المنقطعين من الحاج، وإعادتهم إلى مواطنهم.

وذلك أن قصياً فرضه عليهم فأطاعوه، فقال لهم حين أمرهم: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرمه، والحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الأضياف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم. ففعلوا.

٤ـ القيادة

وهي الزعامة والرئاسة.

٥ـ اللواء

وهي الراية التي ترفعها القوم على رمح، وتكون علامة على قتال العدو، فيجتمعون تحتها للحرب. وهي راية قريش الكبرى، وتسمى (العقاب)، فإذا ما وقعت الحرب أخرجوها، وأعطوها لمن يثقون به من أولئك الرؤساء، وقدموه عليهم في الحرب. وبقوة هذه الراية جمع أبو سفيان العرب على حرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه.

٦ـ دار الندوة

الندوة هي رئاسة الاجتماعات التي كان يعقدها القوم خلال السنة. والدار هي

التي كان قريش ينتدون فيها، أي يجتمعون فيها للتشاور للخير والشر. وهي أول دار بنيت في مكة، ولم يكن في مكة غيرها. بناها قصي بن كلاب لإزاحة الظلم، وفصل الخصومات، وسماها دار الندوة، فإذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة في تلك الدار، فاشتوروا فيها، وفصلوها. ولا يعقد عقد لواء حرب لهم، ولا من قوم غيرهم ولا عقد نكاح إلّا بها.

وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام، ثم صارت هذه فيما بعد لحكيم بن حزام بعد بني عبد الدار، فباعها في زمن معاوية بمئة ألف درهم، فلامه على بيعها معاوية، وقال له: بعت شرف قومك بمئة ألف درهم؟ فقال: إنما الشرف اليوم بالتقوى، والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزق خمر، وها أنا قد بعتها بمئة ألف، وأشهدكم أن ثمنها صدقة في سبيل الله، فأيّنا المغبون؟

وكانت تسمى دار الإمارة؛ لأن قريشاً كانت لا تقضي أمراً إلّا فيها، فما تُنكح امرأة، ولا يتزوج رجل، ولا يتشاورون في أمر، ولا يعقدون لواء حرب إلّا فيها؛ تشريفاً لقصي بن كلاب، وتيمناً برأيه، ومعرفة لفضله، فكأن أمره الدين المتبع، لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته. وبها حاز شرف مكة كله، وأبقاه في ولده من بعده، ما يعرف أحد نازعهم فيه قط.

وقيل: إنما سميت دار الندوة؛ لأن قريشاً كانوا ينتدون فيها ـ أي يجتمعون فيها للخير والشر ـ والندي: مجمع القوم إذا اجتمعوا.

وكان من مآثره ـ كما جاء عن محمد بن عمر ـ آية كان أول من أحدث وقود النار في المزدلفة حين وقف بها حتى يهتدي إليها من دفع من عرفة، وهي أحد نيران العرب، قال الشاعر:

له نار تشب بكل ريع ... إذا النيران جللت القناعا
وما إن كان أكثرهم سواماً ... ولكن كان أرحبهم ذراعا

ولم تزل توقد تلك النار في الجاهلية، وفي الإسلام على عهد النبي محمدﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان.

وهو الذي بنى المشعر الحرام، وكان يقوم عليه أيام الحج، فسماه الله مشعراً، وأمر بالوقوف عنده.

ولما كثر القاطنون بمكة والزائرون إليها ـ وأصبح السقي على الأباعر من الآبار البعيدة لا يفي بالغرض، وكانت زمزم إذ ذاك مطمومة من زمن جرهم، وقد تناسو أمرها ـ احتفر قصي بئراً في دار أم هاني؛ لسقاية الناس، وسماها العجول وقال:

سقى الله العجول برغم عادِ ... وكانت في زيادته العجول

وهي أول سقاية احتفرت بمكة، وكانت العرب إذا استقت منها قالوا:

نروي من العجول ثم ننطلقْ ... إن قصياً قد وفى وقد صدقْ

ولما احتضر قصي أوصى أولاده فقال لهم: اجتنبوا الخمر، فإنها تصلح الأبدان وتفسد الأذهان. وقال: من أكرم لئيماً شاركه في لؤمه، ومن استحسن قبيحاً نزل إلى قبحه. وقال: من لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان. والحسود هو العدو الخفي. ويقال: وجد على بعض الأحجار بمكة مكتوب: إن المغيرة قصي بن كلاب أوصى قريشاً بتقوى الله وصلة الرحم.

وصية قصي ووفاته

عاش قصي بن كلاب سيداً في قريش، ورئيساً مطاعاً فيهم، وكان طوال حياته

عزيز الشأن، عالي القدر، لا ترد له كلمة، ولا يسفّه له رأي يعطيه، إلى أن صار شيخاً هرماً، فقد معها القدرة على إدارة المناصب التي كان يتولّاها وخاصة الحجابة والسقاية؛ لما كانت تتطلبه من جهد وعناء، فاختار من بين أبنائه الخمسة عبد الدار ـ وكان بكره وأكبر أولاده، وكان ضعيفاً ـ ففوضه أمر الوظائف التي كانت إليه من رئاسة قريش وشرفها؛ من الرفادة، والسقاية، والحجابة، واللواء، والندوة إليه.

وإنما خصه بها كلها دون إخوته؛ لأن إخوته قد شرفوا عليه في حياة أبيهم، وبلغوا في قومهم شرفاً كبيراً، فعز عليه ألّا يبلغ ابنه البكر عبد الدار ما بلغه أخوته من شرف ورفعة، فأحب قصي أن يُلحق بهم عبد الدار في السؤدد، فخصه بذلك، ودفع له كل ما كان بيده من أمر قومه، حتى تظل للقبيلة مكانتها المرموقة بين القبائل الأخرى، ولتحافظ على سمعتها الطيبة عند العرب.

وكان قصي لا يخالف له أمراً، ولا يرد عليه شيئاً صنعه؛ مما جعل أخوته لا ينازعونه في ذلك. فكان أن قال الشيخ لبكره عبد الدار: أما والله يا بني، لأُلحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك؛ والله لا يدخل منهم رجل الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلّا أنت بيدك، ولا يشرب أحد ماء بمكة من الحاج إلّا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلّا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورهم إلّا في دارك.

ودفع إليه كل ما في يده من المناصب والوظائف التي كانت إليه من رئاسة قريش؛ وشرفها من الرفادة، والسقاية، والحجابة، والقيادة، واللواء، ودار الندوة التي لا تقضي قريش أمراً من أمورها إلّا فيها. وقضى نحبه، ودفن بمقبرة الحجون

بمكة المكرمة، ورثته ابنته تخمر فقالت:

طرق النعيّ بعيـد نـوم الهجّـدِ   فنعى قصياً ذا النـدى والسـؤددِ
فنعى المهذّب من لـؤيّ كلهـا   فانهلّ دمعـي كالجمـان المفـردِ
فأرقت من حزن وهـم داخـل   أرق السـليم لوجـده المتنقّـدِ

ورثاه أحد الشعراء فقال:

غدوا في نواحي نعشـه وكأنما   قريش قريش يوم مات مجمَّعُ

ولقصي من الأبناء أربعة وبنتان، وأُمّهم حبّى بنت حليل الخزاعي:

عبد مناف بن قصي، ومنه عبد المطلب جدّ الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وعبد الدار بن قصي، ومنه بنو شيبة حجاب الكعبة، وعبد العزى بن قصي، ومنه سيدتنا خديجة أم سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، وعبد قصي بن قصي، وتخمر بنت قصي، وبرة بنت قصي.

عبد الدار بن قصي

مات قصي الذي مَلَكَ مكة ما عاش، وتركها لقريش ميراثاً مجيداً لا تنافسها في شيء منه قبيلة أخرى، حتى جاءها محمد بن عبد الله حفيد قصي وزهرة بني كلاب بمجد الدهر وعز الأبد. مات قصي بعد أن فرض هذه الوظائف التي كانت إليه؛ من رئاسة قريش وشرفها من الرفادة، والسقاية، والحجابة، والقيادة، واللواء، والندوة، ودفعها إلى ابنه عبد الدار، فكان دأبه كدأب أبيه؛ كرماً، وشجاعة، وحزماً، فسهر على شؤون بني قومه، وعلى حسن قيادتهم، حتى صار موضع إكبارهم وإعجابهم، الأمر الذي ساعده على تولّي القيادة في قريش.

ولبثت قريش على ما أراد لها قصي زمناً طويلاً، ومع دوران الأيام، وانقضاء

السنين مات عبد الدار وإخوته، وظهر للملأ من قريش بأن أبناء عبد مناف بن قصي الأربعة: هاشم، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل، يريدون أن يأخذوا تلك الوظائف من بني عمهم عبد الدار قائلين: إنما خصص قصي عبد الدار ليلحقه بإخوته، وقد انقرضوا جميعاً، فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه.

وأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عمهم عبد الدار مما كان جدهم قصي قد جعله إليه من الندوة، والحجابة، والسقاية، والرفادة، واللواء، والقيادة؛ إذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم؛ لشرفهم عليهم، وفضلهم في قومهم، وموقفهم في الجاهلية؛ لأنهم يقال لهم المجبّرون ـ بالباء ـ لكرمهم وفضلهم وسيادتهم على سائر العرب؛ ولأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم؛ ليدخلوا في التجارة إلى بلادهم.

فقال بنو عبد الدار: هذا أمر جعله قصي لأبينا، فنحن أحق به. واختلفوا كثيراً وانقسمت بطون قريش إلى فرقتين:

فرقة بايعت بني عبد الدار، وحالفتهم على ألّا ينزع منهم ما كان قصي قد جعله لأبيهم.

وفرقة بايعت بني عبد مناف، وحالفتهم على أنهم أحقّ بالأمر من بني عبد الدار؛ لمكانتهم في قومهم.

وعقد كل فريق على أمره حلفاً مؤكداً على ألّا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، بل يتحالفوا، وأخرجت بعض نساء بني عبد مناف ـ ويقال: إنها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب عمة الرسولﷺ ـ جفنة مملوءة طيباً، ووضعتها لأحلافهم في المسجد الحرام عند الكعبة المكرمة، فغمس القوم أيديهم فيها هم وأحلافهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم وهم يقسمون على الوفاء بالعهد، وحفظ

الذمة؛ فعرفوا باسم حلف المطيّبين.

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وأحلافهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألّا يتخاذلوا، ولا يسلّم بعضهم، ولا يتخلّوا عن أي منصب من مناصب الكعبة، ولا عن أي منصب من مناصب مكة، فسمّوا بالأحلاف.

وكادت قريش أن تقع بسبب هذا الاختلاف في حرب مدمرة لولا أن تداعى شيوخها وعقلاؤها إلى الصلح، على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة، وأن تكون الحجابة والندوة واللواء لبني عبد الدار، ورضي كل واحد من الفريقين بذلك، وتحاجز الناس عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوه حتى جاء الإسلام، فكان بيد أولاد عبد مناف كل مناصب الشرف في قريش: قيادة، ورفادة، وسقاية، وهي وظائف دينية ضخمة استحدث بعضها قصي بن كلاب، وبعضها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولّوه، وسجله الشعراء مباهين. قال أوس بن تميم السعدي مفاخراً بما كان قومه يتولون من إجازة الناس في الحج من عرفه:

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم … حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

مجد بناه لنا قدماً أوائلنا … وأورثوه طوال الدهر أحزانا

وقد حدّث النقلة، وأكده الرواة عن مدى ما وصلت إليه حرمة البيت العتيق، ومكان مكة عند العرب.. تلك المكانة التي تنافس من أجلها المتنافسون، وتقاتل المقاتلون؛ فقد حاربت خزاعة جرهماً حتى أخرجتهم من مكة، وظلت ولاية البيت في خزاعة يتوارثها بنوها كابراً عن كابر، حتى انتزعها منهم قصي بن كلاب، وطال المدى ومكة مهوى الأفئدة، وقبلة العرب، لا تكاد بقعة أُخرى تطمح إلى منافستها، أو تطمع في انتزاع مجدها، حتى ترتد دون الغاية خاسئة خاسرة.

وقد بلغ تقديس العرب للكعبة حدّاً أنه لما ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلّا حمل معه حجراً من حجارة البيت تعظيماً للحرم. وحيثما نزلوا وضعوه على الأرض، وطافوا به كطوافهم بالكعبة المشرفة. ومن حرمة الكعبة عند العرب أنها كانت غالباً ما تنذر لها الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان تتصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها.

عبد مناف بن قصي

هو عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان القرشي، المكي ولادة وإقامة ووفاة. من سلالة النسب النبوي الشريف، اسمه عبد مناف بن قصي، وأمه حبّى بنت حليل الخزاعي. وقيل: اسمه المغيرة، وعبد مناف لقب له. ومعنى المغيرة منقول من الوصف، والهاء فيه للمبالغة، أي أنه يغير على الأعداء.

وكان يلقّب قمر البطحاء؛ لحسنه وجماله، وكان نور النبي محمدصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يضيء في وجهه، وكان في يده لواء نزار، وقوس إسماعيل. وفي بنيه يقول الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت ... المخّ خالصة لعبد منافِ
الرائشين وليس يعرف رائش ... والقائلين هلم للأضيافِ
والضاربين الكبش يبرق بيضه ... والمانعين البيض بالأسيافِ
لله درك لو نزلت بدارهم ... منعوك من أزل ومن إقرافِ

ولما توفي قصي بن كلاب وصارت جميع الأمور إلى ابنه عبد الدار ـ كما أوصى

أبوه قصي بذلك ـ كان عبد مناف ـ الذي هو أخوه وأصغر منه سناً ـ إلى جانبه مع أنه لا يقل عن أخيه عبد الدار فضلاً، أو مزية، بل يفوقه عزة في النفس، وعلواً في الهمة، فالتفّت القلوب حوله، وصارت تتطلع إليه في كثير من الشؤون. فكان يحظى بمكانة خاصة عند الناس دون أخيه عبد الدار، وكان شعاره التقوى، ودعوة الناس إلى حسن السيرة، وصلة الرحم.

وعلى الرغم من بروزه ذلك وما كان له من المكانة القوية لم ينافس أخاه عبد الدار في المناصب العالية التي كان يشغلها، بل كان خير مساعد له على إدارتها ورعاية أمورها.

وكان لعبد مناف من الأبناء أربعة يقال لهم: أقداح النظار ـ أي الذهب ـ وهم: هاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، وعبد شمس بن عبد مناف، وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال، ونوفل بن عبد مناف ـ وأمه عاتكة بنت عمرو المازنية.

وكان يقال لهم المجبرون ـ بالباء ـ لأنهم كانوا أول من أخذوا الأمان لقومهم من ملوك الأقاليم ليدخلوا في التجارة إلى بلادهم، فكانوا يعيشون بذلك، فسادوا وشرفوا على سائر العرب، يقول فيهم الشاعر:

قل للذي طلب السماحة والندى ... هلا مررت بآل عبد منافِ

الرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلون هلم للأضيافِ

وقال أهل التاريخ: لا يعرف بنو أب تباينوا في محال موتهم مثل أبناء عبد مناف؛ فهاشم مات في غزة من أراضي الشام ودفن فيها، وعبد شمس مات بمكة المكرمة وقبره بالحجون، والمطلب مات بردمان من أراضي اليمن ودفن فيها، ونوفل مات بالمدائن بالعراق وتعرف بسلمان باك؛ نسبة لسلمان الفارسي المدفون فيها.

قال مطرود بن كعب الخزاعي يبكي المطّلب وإخوته حين أتاه نعي نوفل بن عبد مناف بالعراق، وكان آخرهم:

يـا ليلـة هيجـت ليلاتـي	إحـدى ليـاليّ القسـياتِ
ومـا أُقاسـي مـن همـوم ومـا	عالجـت مـن رزء المنيـاتِ
إذا تـذكرت أخـي نـوفلاً	ذكرنـي بالأولويـاتِ
أربعـة كلهـم سـيد	أبنـاء سـادات لسـاداتِ
ميْـت بردمـان وميْـت بسلـ	ـمان وميـت بـين غـزاتِ
وميّت اُسكن لحـداً لـدى الـ	ـحجون شـرقيّ البنيـاتِ
أخلصـهم عبـد منـاف فهـم	مـن لـوم مـن لام بمنجـاةِ
إن المغيـرات وأبناءهـا	مـن خيـر أحيـاء وأمـواتٍ

هاشم بن عبد مناف

هو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان القرشي المكي ـ ولادة ونشأة وإقامة ـ والغزي ـ وفاة ـ من سلسلة النسب النبوي الشريف، جدّ الهاشمين، وإليه نسبتهم على تعدد بطونهم.

ومن بنيه النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه، وهو أحد من انتهت إليه السيادة في الجاهلية، وهو أول من سنّ الرحلتين لقريش للتجارة: رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ورحلة الصيف إلى غزّة وبلاد الشام. وكان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الجود والكرم.

اسمه عمرو العلا، وكنيته أبو يزيد، وأمه عاتكة بنت مرة بن هلال. وكان هو وأخوه المطلب بن عبد مناف قد لقبا بالبدرين؛ لحسنهما وجمالهما، وكان هاشم أكبر أولاد عبد مناف، وكان ذا يسار وغنى وثروة دون إخوته، وله رأي سديد، وحصافة قوية.

فتولّى هو وحده من دون إخوته أُمور السقاية، والرفادة، والقيادة بمكة، فكان أول ما فكر فيه عقد المحالفات التجارية، واتفاقات الصداقة مع الممالك المحيطة بمكة؛ فعقد بنفسه مع الإمبراطورية الرومانية، ومع أمير غسان معاهدتي حسن جوار ومودة، وحصل من الإمبراطور الروماني على الإذن لقريش بأن تجوب بلاد الشام بحرية وأمان.

ثم أوكل إلى إخوته الاتّصال بحكّام البلاد المجاورين، حتى يعقدوا معهم اتفاقيات مماثلة. وبالفعل قام هؤلاء الأخوة بالمهمة؛ فأبرم عبد شمس بن عبد مناف مع النجاشي الأكبر ملك الحبشة اتفاقاً تجارياً، فاختلفوا بذلك السبب إلى الحبشة، وعقد نوفل بن عبد مناف عقداً تجارياً وأخذ أماناً من الأكاسرة، فاختلفوا بسبب ذلك إلى العراق وأرض فارس، وتعاهد المطلب بن عبد مناف مع الحميريين في اليمن على الأعمال التجارية، فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن؛ مما جعل لمكة وأهلها مكانة مميزة في تلك البقاع الجافة التي لا زرع فيها ولا ضرع، حتى صارت ـ أكثر من أي عهد مضى ـ ملتقى لطرق القوافل كلها.

فكيف نمت مكة معك يا زمن من محطة صغيرة للرحّل، إلى موسم جامع للقبائل، تتلاقى فيها القوافل من شمال وجنوب، وتتواصل الروافد من أطراف العالم القديم، حين كانت الإبل وحدها عدة السير ووسيلة الاتصال.

فاتسعت قريش في التجارة، وكثرت أموالها ببركة بنو عبد مناف الأربعة؛ فهم

أعظم قريش بركة في الجاهلية والإسلام، وبهم جبر الله قريشاً، فسموا المجبرين ـ بالباء ـ وفيهم نزلت: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾(١).

وكان تجار قريش يختلفون في الأمصار بفضل هؤلاء الأخوة، وكان الناس يحترمونهم، فلا يتعرّض لهم أحد بقطع طريق، أو الإغارة على بلدهم الآمن، وامتدّت رحلاتهم إلى الشام واليمن، وبلاد الحبشة، والعراق، وفارس، وبلاد الهند، حتى أصبحت مكة سوقاً تجارياً كبيراً تلتقي فيه مختلف الطبقات والقبائل، وفيه تعرض منتجات تلك البلدان.

وتأتي سنة جدب على مكة، وتحيق بأهلها الشدة حتى كادت تفقدهم سبل العيش، وتذهب بالأموال، فتصدى هاشم للنكبة، وراح يوزّع الزاد والمؤن على المكيين، ويقدّم لهم العون، حتى زالت عنهم الشدة. ولما قرب موسم الحج، خرج هاشم إلى الشام في تجارة له ـ وكان قد كره أن يكلّف قريشاً شيئاً من أمر الرفادة بعدما أصابها من السنة ـ فباع تجارته في غزة من بلاد الشام، واشترى بثمنها خبزاً وكعكاً، وحمله في الغراير على الإبل من الشام إلى مكة.

فلما وصل إلى مكة، أمر بذبح الجمال وطهوها، ودعا بالجفان، وقطع الخبز والكعك فيها، وكفأ القدور على الجفان، فكان ثريداً، وأطعم الحجيج كلّهم وأطعم أهل مكة؛ القاصي، والداني حتى أشبعهم.

ودعا بحياض من الأدم، وجعلها في موضع زمزم، وجعل يستقي فيها الماء من الآبار التي في مكة وخارجها على الإبل، ويأتي بالزبيب، ويضعه في الماء ليمتصّ ملوحته؛ ليشرب الناس والحجيج قبل التروية بيوم حتى يصدروا من منى، وفيه

(١) قريش: ١ ـ ٢.

يقول الشاعر:

تحمل هاشم ما ضاق عنه … وأعيا من يقوم به ابن فيضِ
أتاهم بالغرائر متأقات … مِنَ أرض الشام بالبر النفيضِ
فأشبع أهل مكة من هشيم … وشاب اللحم بالخبز العريضِ

فكان ذلك أول الحياء بعد السنة التي أصابتهم، فسمي بذلك هاشماً؛ لأنه هشم الثريد، وأشبع أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام.

يقول ابن إسحاق: إن السبب الذي سمي به عمرو العلا هاشماً؛ لأنه أول من هشم الثريد لقومه بعد جدّه إبراهيم الخليل؛ لأن إبراهيم هو أول من فعل ذلك.

ولم تكن تلك الضائقة التي جعلت هاشم بن عبد مناف سيد مكة وقائدهم، بل عمل أن يكون لأهل مكة مجالات رحيبة في العمل والثراء، فاستنَّ لهم رحلة الشتاء والصيف: رحلة الصيف إلى الشام؛ لأنها باردة ورحلة الشتاء إلى اليمن؛ لأنها حارة؛ فكانوا يعيشون بذلك. يقول ابن الزعبري:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه … ورجال مكة مستنون عجاف
سنّت إليه الرحلتان كلاهما … سفر الشتاء ورحلة الإيلاف

ومن سجاياه الحميدة، ومزاياه الطيبة أن جمع كل بني أب على الرحلتين، فما ربح الغني قسّم بينه وبين الفقير، حتى كان فقيرهم كغنيهم، فلم يكن في العرب بنو أب أثرى مالاً وأحسن حالاً وأعزّ نفراً منهم في قريش، حتى قال شاعرهم:

يا أيها الرجل المحول رحله … هلا نزلت بآل عبد منافِ
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم … منعوك من عدم ومن إقرافِ
الآخذين العهد من آفاقها … والراحلين لرحلة الإيلافِ

الخالطين غنيهم بفقيرهم ... حتى يعود فقيرهم كالكافي

لقد عمل هاشم لأجل مكة ما لم يعمله أحد، فكان يحمي به السبيل، ويؤمن الخائف، ويكسو العاري، ويجير العاني، ويطعم الحاج، ويسقيهم، وكانت مائدته منصوبة لم ترفع في السرّاء والضرّاء، وكان الشاعر يقول فيه:

عمرو العلا ذو الندى من لا يسابقه ... مرّ السحاب ولا ريح تجاريه
جفانه كالجوابي للوفود إذا ... لبوا بمكة ناداهم مناديه
أو أمحلوا أخصبوا منها وقد ملئت ... قوتاً لحاضره منهم وباديه

وكان نور النبي محمد صلى الله عليه وآله يتوقّد في وجهه، ويتلألأ ضياؤه في غرّته، فلا يراه أحد إلّا أحبه، ولا يمر بشيء إلّا خضع له، وما نظره حبر إلّا قبّل يده. تفد إليه قبائل العرب وأحبار اليهود، يعرضون بناتهم عليه ليتزوجهن، وقد بعث إليه هرقل ملك الروم يقول: إن لي ابنة لم تلد النساء أجمل منها ولا أنضر وجهاً، فأقدم إليّ حتى أُزوجكها، فقد بلغني جودك وكرمك. وإنما أراد بذلك نور المصطفى المذكور عندهم في الإنجيل، وفي ذلك يقول أبو طالب:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرّها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرّها وكريمها

هاشم وأمية بن عبد شمس

لما رأى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ما حظي به عمه هاشم بن عبد مناف بن قصي من المكانة والعظمة والنفوذ في قلوب الناس، وجلبها نحوه

بسبب خدماته وأياديه، وما كان يقوم به من بذل وإنفاق، حاول جاهداً أن يقلده ويتشبّه بسلوكه، ولكن على الرغم من كل ما قام به من جهود ومحاولات لم يستطع أن يتشبه به، ويأخذ سيرته، فجعل يكثر الوقيعة فيه، ويعمل له المكائد ليقلّل من شأنه، ويحطّ من قدره، لكن ذلك كلّه لم يزد هاشماً إلّا رفعة وعظمة.

والحال أن هاشماً وعبد شمس شقيقان، أبوهما عبد مناف بن قصي، وأُمهما عاتكة بنت مرّة بن هلال بل توءمان في بطن واحدة، ولما ولدا خرج هاشم من بطن أُمه أولاً وإصبع رجله ملتصقة برأس أخيه عبد شمس، ولم يكن نزعها إلّا بسيلان دم، فما خلّصوها إلّا بالسيف، وسال بينهما دم؛ فتطيّر من ذلك، فلّما سألوا الكهنة، قالوا: سيكون بين ذريتيهما حرب عظيم، وقتال شديد، وسفك دماء.

فما زال لهيب الحسد في قلب أُمية يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم على عمّه هاشم إلى أن دعاه للمنافرة[1] ـ أي المحاكمة، والمخاصمة ـ فأبى هاشم عليه ذلك؛ لكبر سنه، وعلو قدره، وجليل مقامه.

إلا إن قريشاً لم تدعه، بل طلبت منه أن يحضر مع ابن أخيه للمنافرة، فاشترط عليه هاشم أن من حكمت له الكهنة بالولاية على الكعبة والرئاسة على مكة وأهلها، فعليه أن ينحر خمسين ناقة من الإبل سود الحدق، حمر الوبر، طعمة لأهل

(١) المنافرة هي المحاكمة. قال قاسم بن ثابت: لفظ المنافرة مأخوذ من النفر، وكانوا إذا تنازع الرجلان وادعى كل واحد منهما أنه أعزّ نفراً من صاحبه تحاكموا إلى العلّامة، فمن فضل منهما قبل نفره عليه ـ أي فضل نفره على النفر الآخر ـ فمن هذا أخذت المنافرة. قال زهير بن أبي سلمى:

فإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار أوجلاء

الروض الأُنُف ١: ١٦٠.

مكة، وله أن ينفي صاحبه ويطرده من مكة عشر سنين. فرضي أمية بالشرط، فحذره نفيل بن عبد العزى المنافرة لعمه وقال له: أتنافِرُ رجلاً هو أطول منك قامةً، وأعظم منك هامةً، وأوسم منك وسامةً، وأقل منك لامةً، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً، وأطول منك مدداً؟ فلم يقبل منه، وخرج مع عمه إلى الكاهن الخزاعي ـ وكان ببادية الشام ـ وكان مع هاشم نفر من بني عبد المطلب، ومع أُمية نفر من بني نوفل. فلما دخلوا على الكاهن الخزاعي، ونظر إلى هاشم، فرأى نور النبوة يضيء في وجهه، فقال ـ قبل أن يخبراه بخبرهما ـ: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر ومن منجدٍ وغاير، لقد سبق هاشم ابن أخيه أُمية إلى المفاخر. فنفر لهاشم على ابن أخيه أمية، ورضي أُمية بذلك.

وما إن رجع هاشم إلى مكة حتى نحر خمسين ناقة من الإبل، وأطعم أهل مكة كلّهم، ونصب مائدة على رؤوس الجبال إلى الطير والوحش، وبقيت موائده منصوبة يأكل منها القاصي والداني. ومن ذلك سمي أبا الفقراء، وسيد البطحاء.

ونفى ابن أخيه أُمية إلى الشام، وبقي بعيداً عن مكة عشر سنين ـ كما هو بعيد عن رحمة الله ـ وكان يعرف بالطريد.

وهذه أول عداوة صدرت بين هاشم وبين ابن أخيه أُمية بن عبد شمس، وجرت العداوة والخلاف إلى ذريتهما، ووقع القتال وسفك الدماء.

وفاة هاشم

لقد كانت زعامة هاشم وقيادته نافعة للمكيين في جميع النواحي، وكان لها تأثير كبير في تحسين أوضاعهم؛ فلقد سبّب كرمه، وما قام به من إطعام واسع في سنوات

الجدب القاسية في تخفيف شدة الوطأة عن أهل مكة؛ وبالتالي أدى إلى عدم إحساسهم بالقحط وآثار الجدب. وكان جلّ اهتمامه منصبّاً على أن يكون لأهل مكة مجالات رحيبة في العمل والثراء.

ومع ما يقوم به هاشم من تدبير شؤون العامة، ورعاية مصالح أبناء قومه، لم يحل ذلك دون دأبه على السعي والمتاجرة لمصلحته الخاصة، فكان يقود قوافله في ذهابها وإيابها أثناء رحلتي الشتاء والصيف. فصادف ذات مرة أن عاد من رحلة له إلى الشام مروراً بيثرب، فأناخ رحاله فيها طلباً للراحة، فسمع أثناء إقامته العابرة بوجود فتاة بارعة الجمال، حميدة الخصال، تتحلى بالحكمة والمعرفة، قد ذاع صيتها، وامتدّت شهرتها، وعرف تفوقها على نساء قومها، يقال لها سلمى ابنة عمرو بن زيد ـ من بني عدي بن النجار ـ إلّا إنها عازفة عن الزواج؛ لشرفها في قومها إلّا إذا وافق طالب يدها على ما تبديه من شروط، ويتعهد بالوفاء لها.

وكان من شروطها: ترك الحرية لها في اختيار الإقامة في بلدها يثرب إذا رغبت في ذلك، وإذا كرهت رجلاً فارقته، وألّا تلد إلّا عند أهلها.

فلما علم هاشم بأمرها أحس في نفسه رغبة شديدة تدفعه إلى خطبتها، فذهب مسرعاً إلى خطبتها من أبيها، ولما نظرت إليه، ورأت ذلك النور الذي كان يتوقد شعاعه في وجهه، ويتلألأ ضياؤه في جبينه، لا ينقصه كمال خلق، بهي الطلعة، جميل المحيّا، بارز السمات، سريع البديهة، تبدو عليه علائم النبل والرفعة والعلو، شاء الله أن تستهويه حيث وجدت فيه كل مقومات الرجل الذي تتمناه المرأة الحرة في أن يكون لها زوجاً.

فتزوجها وأخذها معه إلى مكة قرير العين، فأقامت معه في مكة في أرغد عيش،

وبعد أن أودع في أحشائها جنيناً من صلبه طلبت منه العودة إلى يثرب، فلم يرفض طلبها.

فأخذها معه ـ وهو خارج في رحلة له صيفية إلى الشام عام ٤٩٥ ميلادية ـ وأوصلها بنفسه إلى أهلها، وواصل هو رحلته إلى الشام. فلما وصل في رحلته إلى غزة، اشتكى من الحمى، فلما حضرته الوفاة، أوصى بالسقاية والرفادة والقيادة إلى أخيه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر أولاد عبد مناف الأربعة، وباقي تركته إلى أولاده، وأقاموا عليه حتى مات في شكواه، ودفن في غزة من أراضي الشام.

ولم يمضِ على زوجته سلمى بعد قدومها المدينة أربعة أشهر حتى حانت ساعة ولادتها، فأنجبت ابناً سمّته شيبة؛ لأنها وجدت في رأسه شعراً أبيض. وبقي في حظانتها ورعايتها حتى غدا فتى لا مثيل له بين أترابه في نضارته وبهائه، وحكمته وذكائه، وكان مصدر غبطة وسرور لأمه، وأعظم سلوة لها بغياب أبيه.

وكان لهاشم من الأبناء أربعة هم: شيبة بن هاشم، وأسد بن هاشم، وأبو صيفي بن هاشم، ونضلة بن هاشم، أو فضله كما في (البداية والنهاية).

ومن البنات خمس: رقية، والشفاء، والضعيفة، وخالدة، وحنة.

فشيبة أُمه سلمى ابنة عمرو بن زيد من بني النجار، مات أبوه وهو حمل في بطن أمه.

وأسد ورقية أُمهما قبلة بنت عامر بن مالك الخزاعية.

وأبو صيفي وحنة أُمهما هند ابنة عمرو بن ثعلبة الخزرجية.

ونضلة والشفاء أُمهما من قضاعة.

وخالدة وضعيفة أُمهما واقدة ابنة أبي عدي المازنية.

ولما مات هاشم رثته ابنته الشفاء تقول:

عينِّ جودي بعبرة وسجوم واسفحي الدمع للجواد الكريم
هاشم الخير ذي الجلالة والمجـ ـد وذي الباع والندى والصميم

المطلب بن عبد مناف

هو المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان القرشي المكي ـ ولادة ونشأة وإقامة ـ واليمني ـ وفاة ـ من سلسلة النسب النبوي الشريف. أُمه عاتكة ابنة مرة بن هلال. تولى السقاية والرفادة والقيادة بعد وفاة أخيه هاشم بن عبد مناف، فقام من بعده على سيادة مكة ذلك الرجل الحكيم، العالي الهمة، الرفيع الشأن بين القوم، فلم تتغير الأمور بعد استلامه تلك السيادة، بل دامت على استقامتها، وظلت مكة محتفظة بالمكانة التي كانت تعتز بها أيام حياة أخيه هاشم، فحصل على شرف عظيم في قومه، وفضل جسيم في أهله وعشيرته، فلقبته قريش بالفيض؛ لسماحته وفضله كما لُقِبَ بالقمر.

وكان يعرف هو وأخوه هاشم عند القرشيين بالبدرين؛ لحسنهما وجمالهما، وكان سيداً مطاعاً، عفيفاً كريماً فاضلاً، وبه لقب ابن أخيه شيبة بن هاشم بعبد المطلب.

ولم يعرف أن لأخيه هاشم ابناً في يثرب حتى مر بالمدينة رجل من بني الحارث ابن عبد مناف، فرأى شيبة مع غلمان ينتضلون من أهل يثرب فإذا أصاب يقول: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء. فقال له الحارثي: من أنت؟ قال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف. فلما أتى الحارثي مكة جاء إلى المطلب وهو جالس في الحجر

بفناء الكعبة، فقال: له يا أبا الحارث، دخلت يثرب، فمررت بدار بني قيلة، فرأيت فتياناً ينتضلون، وفيهم غلام إذا أصاب قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء. وما ينبغي لك ترك ابن أخيك في الغربة.

فنهض مسرعاً إلى منزله، وركب ناقته، وحلف ألّا يرجع إلّا به، فلما دخل المدينة، قصد بيوت بني عدي من بني النجار، فإذا هو بغلمان ينتضلون، وفيهم ابن أخيه، فعرفه، فأنشد يقول:

عرفت شيبة والنجار قد جعلت أبناؤها حولها بالنبل تنتضلُ

عرفت أجلاده منا وشيمته ففاض مني عليه وابل سبلُ

فأراد أخذه، فأبت عليه أُمه، فراح يسترضي خاطرها، ويعرض عليها تسليم ابن أخيه، ويقول لها: نحن أهل بيت شرف في قومنا، نلي كثيراً من أمرهم، وعندنا السقاية والرفادة والقيادة، وقومه وبلده خير له من الإقامة غريباً في غير قومه، وهو ولدك على كل حال.

فلم تستطع الأم الفاضلة رفض طلبه ـ وهي تعرف أن العصبية القبلية تعطي الولاية على الولد لجده لأبيه أو لعمه ـ فما كان عليها إلّا اختيار التسليم بالأمر الواقع، فأذنت له، فأردفه على ناقته بعد أن ودعته، وسار به إلى مكة، فدخلها ضحوة والناس في مجالسهم، وقريش في أنديتهم، فظنت قريش أن الفتى عبدٌ للمطلب قد ابتاعه، فنادوا: عبد المطلب، عبد المطلب. فصاح بهم: ويحكم، هذا شيبة ابن أخي هاشم، قدمت به من يثرب.

ولكن مناداة القوم غلبت صيحة المطلب، فالتصق اللقب بالفتى، ودعي الولد به، ونسي الناس اسمه الحقيقي: شيبة.

فكان مع عمه في أرغد عيش، يقرّبه ويدنيه، ويكرمه ويرعاه. فخرج المطلب

في تجارة له كعادته إلى اليمن، فوافته المنية بردمان من أراضي اليمن، فمات ودفن فيها، فبكته قريش، وندبته نساؤها، وحزنت عليه شبانها، ورثته شعراؤها، فهذا أحدهم يقول:

قد ظمئ الحجيج بعد المطلبْ بعد الجفان والشراب المنشغبْ

ليت قريشاً بعده على سغبْ

فلما انتقل إلى جوار ربه تولى بعده السقاية والرفادة والقيادة ابن أخيه شيبة بن هاشم بن عبد مناف المعروف بعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

تولي عبد المطلب الكعبة

علا شيبة الحمد الذي كـان وجهـه يضيء ظـلام الليـل كـالقمر البـدرِ

هو عبد المطلب ـ واسمه شيبة الحمد ـ ابن هاشم ـ واسمه عمرو العلا ـ ابن عبد مناف ـ واسمه المغيرة ـ ابن قصي ـ واسمه زيد ـ ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ـ واسمه قيس ـ ابن كنانة بن خزيمة ابن مدركة ـ واسمه عمرو ـ ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان المدني ـ ولادة ـ والقرشي المكي؛ نشأةً، وإقامةً، ووفاةً. وهو الجد الأول للنبي محمدصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ، واسمه شيبة، ويقال: سمته أُمه شيبة؛ لأنه ولد وفي رأسه شيبة أي كان في وسط رأسه شعر أبيض. وقيل: سمي شيبة تفؤّلاً بأنه سيبلغ سن المشيب. وقيل: سمي شيبة الحمد؛ لكثرة حمد الناس له.

وكنيته أبو الحارث، وأمه سلمى بنت عمرو بن زيد بن عدي من بني عبد النجار، خيرة أهل مكة، وسيد العرب في الجاهلية بنص الشرع؛ قولاً، وفعلاً غير مدافَع ولا منازَع:

فخيرهُمُ أصـلاً وفرعـاً ومعـدناً وأحظـاهُمُ بالمكرمـات وبالـذكرِ

لقد كان أحسن الناس وجهاً، وأمدّهم جسماً، وأوسعهم حلماً، وأسخاهم كفّاً، وأنداهم يداً، تسلّم بعد موت عمه المطلب الأمانة: السقاية، والرفادة والقيادة، فاجتهد في الحفاظ على هذا التراث الذي آل إليه، وعمل كل ما في وسعه لرعاية المناصب التي تقلّد زمامها بقوة شخصيته، وسداد رأيه.

وساد قريشاً بكرمه وسماحة خلقه، فكان يلقّب بالفياض؛ لجوده وكرمه، وساقي الحجيج، وعائل أهل الموسم، ومطعم طير السماء؛ لأنه كان يرفع مائدة إلى الطير، ومائدة إلى الوحش على رؤوس الجبال، وثالثة لبني البشر، حتى بلغ في قريش وفي العرب جميعاً منزلة لم يكن يبلغها أحد. فكان ذكره يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذاً وعبيراً، لم يرد على ملك إلّا أكرمه واحترمه وشفّعه ببركة نور النبي محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وهكذا ساد قريشاً بمزاياه الشهيرة النبيلة سيادة عظيمة، وذهب بشرفهم ورئاستهم، وكان جماع أمرهم عليه. فعظم خطره، وذاع صيته، وارتفع ذكره، وعلا مجده، وأحبه قومه وعظموه، وأصبح مطاعاً فيهم، وشرف شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه. وكان مجاب الدعوة في الجاهلية، يستقي لهم فيُسقون ببركة نور النبي محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الذي يضيء في غرة وجهه.

وكانت قريش إذا أصابها قحط، وأجدبت الأرض، تأخذ بيد عبد المطلب، فتخرج به إلى جبل ثبير ليستقي لهم؛ لِما جربوه من قضاء الحوائج على يديه ببركة النور الذي في غرته، ولما جعله الله فيه من مخالفة ما كانت عليه الجاهلية.

وبفضل سيرته وحسن أخلاقه أبعد الناس عن كل موبقة تفسد الرجال بإلهام من الله سبحانه وتعالى، فكان يسأل الله لهم الغيث فيغيثهم، وفي ذلك تقول رقية ابنة صيفي بن هاشم بن عبد مناف:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا	**وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطرُ**
فجاء بالماء جونيّ له سبل	**سحا فعاشت به الأنعام والشجرُ**
منّاً من الله بالميمون طائره	**وخير من بُشّرت يوماً به مضرُ**
مبارك الأم يستسقى الغمام به	**ما في الأنام له عدل ولا خطرُ**

إيمان عبد المطلب

لقد كان الدين الرائج في الحجاز الوثنية وعبادة الأصنام، اللهم إلّا من بعض الأقليات الدينية الذين يسمون بالأحناف، وهم الذين رأوا في الوثنية ضروباً من الخرافات التي لا يقبلها عقل، ولا يقرها فكر.

فراحوا يبحثون لهم عن دين يهديهم إلى الحق، حتى اهتدوا إلى ملة إبراهيم خليل الرحمن، فاتّخذوها ديناً، وآمنوا بالخالق وعبدوه، ودعوا إلى عبادته. وقد عرفوا في أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية، وفي مكة المكرمة والمدينة المنورة. وبعد اتخاذهم الحنيفية ديناً حرّموا على أنفسهم ما أحلّه غيرهم، كالخمر، والميسر، والأنصاب والأزلام.

وقد أوردت كتب التاريخ أسماء بعض من اتبعوا ملة إبراهيم وإسماعيل، ومنهم قسّ بن ساعدة الإيادي الذي كان يدعو الناس إلى عبادة الله في سوق عكاظ. فعن ابن عباس قال: لما قدم وفد عبد القيس على النبي محمدصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِه قال لهم: «**ما فعل قس بن ساعدة؟**». قالوا: هلك يا رسول الله، قال: «**لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل أحمر، وهو يخطب الناس ويقول: أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا، وافهموا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ، إنّ في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً: ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، أقسم بالله قسماً حقاً لا ريب فيه؛ لئن كان في الأرض رضا ليكونن بعد سخط، إن لله ديناً هو أحب من دينكم الذي أنتم عليه. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول آجالاً؟**

طحنهم الدهر بكلكله، وفرقهم بتطاوله». ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله «**أفيكم من يروي شعره؟**». فأنشده بعضهم:

فـي الـذاهبين الأولـين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت مـوارداً للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابرْ
لا يرجع الماضي إلـيَّ ولا من الباقين غابرْ
أيقنت أنـي لا محالة حيث صار القوم صائرْ

ومنهم زيد بن عمرو بن نوفل الذي يقول في فراق قومه:

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمورُ
عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا العزى أدين ولا مناة ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولا هُبلاً أدين وكان رباً لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ
ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الربُّ الغفورُ
فتقوى الله ربكُم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبورُ

ومنهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. يقول المسعودي في كتابه (مروج الذهب): فممّن كان مقرّاً بالتوحيد، مثبتاً للوعيد، تاركاً للتقليد عبدُ المطلب بن هاشم بن عبد مناف؛ فقد كان مؤمناً موحّداً، لم يشرك بالله عزّ وجل، ولا أحد من آباء النبي صلى الله عليه وآله. وهذه هي عقيدة الإمامية.

وما جاء عن المعتزلة والخوارج والمرجئة من أنهم مشركون إلّا من صحّ إيمانه، فلا يعتدّ به، إن الإمامية يعتقدون أن عبد المطلب كان مؤمناً موحّداً، وأنه لم يشرك بالله عزّ وجلّ، ولا أحدٍ من آباء النبي صلى الله عليه وآله. وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله نقل في

أصلاب طاهرة، وأرحام مطهرة لم تنجسه الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسه من مدلهمّات ثيابها، وأنه ولد من نكاح لا من سفاح.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذّباً، لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما». يقول البصيري:

لم تزل في ضمائر الكون تختا ر لك الأمّهات والآباءُ

وفي كتاب (الغدير) عن أبي علي الفتال وغيره، عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «نزل الأمين جبرئيل على النبي محمد صلى الله عليه وآله، فقال له: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إني حرّمت النار على صلب أنزلك، وبطن حملك، وحجر كفلك». والشاعر يقول:

إليكم وإلّا لا تحثّ الركائبُ ومنكم وإلا لا تنال المواهبُ
وفيكم وإلا فالحديث مزخرف وعنكم وإلا فالمحدّث كاذبُ

وفي (الغدير) أيضاً عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «والله ما عبد أبي، ولا جدي عبد المطلب، ولا هاشم، ولا عبد مناف صنماً قط». فقيل له: وما كانوا يعبدون؟ قال: «كانوا يصلّون إلى البيت على دين إبراهيم الخليل متمسكين به».

وعن ابن عباس عن النبي محمد صلى الله عليه وآله قال: «ما افترق الناس فرقتين إلّا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من أبوين، فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح لا سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي؛ فأنا خيركم نسباً، وخيركم أباً». يقول ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[1].

---

(١) الشعراء: ٢١٩.

وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيّات الأمور. وكان قد عاش مئة وأربعين سنة في وسط اجتماعي تسود فيه الوثنية، ومعاقرة الخمرة، والعمل بالربا، وقتل النفس البريئة، والفحشاء. وهذه الأمور كانت عندهم من العادات والتقاليد الشائعة، ودليل هذا قول شاعرهم فاسمعه وهو يقول:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألّا أذوقها

ولكنه لم يعاقر الخمر طوال حياته، وكان ينهى عن القتل والخمر والظلم والفحشاء، ويمنع عن الزواج بالمحارم والطواف بالبيت عراة، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد، وأداء النذر. فشخصية أودعت يد المشيئة الربانية بين حناياها نور النبي الأكرم محمدﷺ أعظم قائد عالمي يجب أن يكون صاحبها إنساناً طاهر السلوك، نقي الجيب، منزهاً عن أي نوع من أنواع الانحطاط والفساد.

ويستفاد من أقواله وأفعاله أنه كان أحد الرجال المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر في تلك البيئة المظلمة يقول: والله لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه، وتصيبه عقوبة.

رويَ أنه هلك رجل من أهل الشام ـ وكان ظلوماً، ولم تصبه عقوبة ـ فقيل لعبد المطلب، ففكر ثم قال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسيء بإساءته.

في (السيرة الحلبية) قال: كان لعبد المطلب نديم يدعى حرب بن أمية بن عبد شمس، والد أبي سفيان، وجدّ معاوية، وكان جار عبد المطلب رجل يهودي،

فجرى بينه وبين حرب بن أمية كلام في أحد أسواق تهامة، فأغلط اليهودي القول على حرب بن أمية مما أسخطه، فأغرى عليه حرب بن أمية من قتله، فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمته، وجعل يطالبه بدية اليهودي، ولم يفارقه حتى أخذ منه الدية مئة ناقة ودفعها لابن عم اليهودي.

فهذه القصة تكشف لك عن إيمان عبد المطلب وتمسّكه بالحق، وتطبيق العدل والمساواة.

عبد المطلب وحفر زمزم

لما انتهت إلى عبد المطلب بن هاشم إمارة مكة، وولي السقاية فيما ولي من وظائف الحرم كان يلقى في سبيل ذلك كله المشقة والعناء بسبب شحّ الماء، فأخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الجميع من مشقة بسبب شحّ الماء في مكة، وما يقوم به من نقله للماء من آبار خارج الحرم على ظهور الإبل، لسقي الحجاج؛ لئلا يقتتلوا على الماء في الأشهر الحرم، والتي يحرم فيها القتال.

وتذكّر بئر زمزم التي طمرت تحت رمال الزمن، وهي التي أنقذت جده إسماعيل من الهلاك، وجذبت إلى مكة القوافل على آثار الرعاة. وذكر ما تناقله الآباء عن الأجداد، ورددته الرواة في مسامر مكة ومجامعها من حديث جرهم، ودفنها زمزم حين أرغمت على الخروج من مكة.

فودّ لو وفقه الله إلى العثور على موضع البئر المباركة المطمورة، وقويت رغبته هذه مع طول التفكير، حتى صارت مشغلة نهاره وليله، وخايلته الرؤى في منامه تبشّره بتحقيق أمله.

يقول ابن إسحاق عمّن سمع من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يحدث حديث

جده عبد المطلب وبئر زمزم: «قال عبد المطلب: بينما أنا ذات يوم نائم في الحجر عند الكعبة المكرمة، إذ أتاني آتٍ فقال لي: احفر طيبة. قلت له: وما طيبة؟ فغاب عني، ولم يجبني. فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ونمت، فجاءني وقال لي: احفر برة. قلت: وما برة؟ فغاب عني، ولم يجبني، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي، ونمت فجاءني وقال لي: احفر المضنونة. قلت: وما المضنونة؟ فغاب عني، ولم يجبني، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي، ونمت فجاءني فقال لي: احفر زمزم ـ وكانت قد درست، وغار ماؤها؛ لما مضت من أيام إسماعيل بن إبراهيم ـ قلت: وما زمزم؟ قال: بئر، إنك إن حفرتها لن تندم، وهي تراث أبيك الأعظم، لا تنزف أبداً ولا تذم.

وهذا برهان عظيم؛ لأنها لم تنزف من ذلك الحين إلى اليوم، ولا تذم.

تسقي الحجيج الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر لمنعم، تكون ميراثاً وعقداً محكماً، ليست كبعض ما قد تعلم، إنها لطعام طعم وشفاء سقم:

يا أيها المدلج احفر زمزمْ   إنك إن حفرتها لن تندمْ

فهي تراث من أبيك الأعظمْ   تسقي الحجيج جافلاً لم ينعمْ

فقال عبد المطلب: وأين هي؟ فقال له: عند منحر قريش، بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، وقرية النمل، حيث ينقر غداً.

فلما بين له شأنها، ودلّه على موضعها، وعرف أنه صدق، غدا عبد المطلب بمعوله، ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذٍ ولد غيره، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحهم، وهما من أصنام العرب في الجاهلية.

وقيل: أساف ونائلة رجل وامرأة من جرهم أحدثا في الكعبة، فمسخهما الله حجرين، فجاء عبد المطلب بمعوله ـ مسحاته ـ وقام ليحفر حيث أمر؛ فقامت إليه قريش وقالت: والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما. فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذد عني حتى أحفر؛ فوالله لأمضين لما أمرت به. فلما عرفوا أنه غير نازع خلّوا بينه وبين الحفر.

فجعل يحفر، فلما بدا له الحجارة التي طويت تحتها البئر، رفع صوته بالتكبير، وعرف أنه قد صدق.

فلما تمادى في الحفر وجد فيها غزالين من ذهب ـ وهما الغزالان اللذان كانت جرهم قد دفنتهما فيها ـ ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعاً.

فأقبلت قريش إليه وقالت: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل بن إبراهيم، وإن لنا فيها حقاً؛ فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم. قالوا: أنصفنا؛ فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: اجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم. قال: نعم.

وكانت بأطراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش رجل، وخرجوا يريدون كاهنة بني سعد بأطراف الشام، والأرض إذ ذاك مفاوز، فلما كانوا ببعض تلك المفاوز نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، واشتد بهم الظمأ حتى أيقنوا بالهلكة، فاستقوا من القرشيين، فأبوا أن يسقوهم، وقالوا: نحن بمفازة، ونخاف على أنفسنا أن يصيبنا ما أصابكم. فلما أيسوا من الماء، أخذوا يفكرون في كيفية الدفن إذا هلكوا، فأمر عبد المطلب أن يحفر كل واحد منهم حفرة لنفسه، وكلما مات رجل منهم دفنه أصحابه.

ثم فكر عبد المطلب في الأمر، وقال: لقد ألقينا بأنفسنا هكذا للموت، ألا نضرب في الأرض في طلب الماء، فلعل الله يرزقنا ماء؟ وحثهم على البحث في تلك الصحراء بصورة جماعية، عسى أن يجدوا ما ينقذهم من الموت، فركب عبد المطلب راحلته، وركب أصحابه رواحلهم، فلما انبعثت راحلة عبد المطلب انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ونزلوا وشربوا، واستقوا من الماء وملؤوا أسقيتهم، ودعوا قبائل قريش إلى الماء، فشربوا واستقوا من الماء، وملؤوا أسقيتهم، فقالت قريش: قد والله قضي لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً.

فرجع عبد المطلب، ورجعوا، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم، وعفت زمزم على الآبار كلها... أعني الآبار التي كانت يستقي منها الحاج، وانصرف الناس كلهم إليها؛ لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم.

فلما سُقي عبد المطلب زمزم ترك السقي في الحياض، وسقاهم من زمزم، وجعل لها حوضين: حوضاً للشرب وحوضاً للوضوء، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها، وعلى سائر العرب.

قال مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وهو يفخر على قريش بما ولوا عليهم من السقاية والرفادة، وما أقاموا للناس من ذلك، وبزمزم حين ظهرت:

ورثنا المجد من آبا ... ئنا فنما بنا صَعَدا

ألم نسقِ الحجيج وننـ ... ـجد الدلافة الرفدا

وزمـــــزم فـــــي أرومتنـــــا ونفقـــأ عـــين مـــن حســـدا

وقال حذيفة بن غانم:

و ساقي الحجيج ثم للخبز ها شم وعبد مناف ذلك الســـيد الفهري

طوى زمزم عند المقام فأ صبحت ســـقايته فخراً على كل ذي فخرِ

وجعل عبد المطلب يحمل الماء من زمزم إلى عرفة ومنى، فيسقي الحجيج من ماء زمزم، وكان يضع بها الزبيب ليمتص ملوحة الماء. ومن خصائص ماء زمزم أنه لا يؤذي أحداً، ولا يُخاف منه مثلما يخاف من المياه الأُخرى إذا أفرط الإنسان في شربها، بل هي بركة.

وعن جابر الأنصاري قال: قال رسول اللهﷺ: «**ماء زمزم لِما شرب له**».

وعن أبي ذر: قال رسول اللهﷺ في زمزم: «**إنها طعام طعم وشفاء سقم**».

نذر عبد المطلب وذبح ولده

كان نقض العهود من أقبح الفعال عند العرب مع جاهليتهم، وكانوا إذا عقدوا عهوداً مع بعض القبائل أوثقوها بالإيمان المغلظة المؤكدة، والتزموا بها إلى الأخير، وربما نذروا النذور الثقيلة، واجتهدوا في أدائها مهما كلّف ذلك من مشقة وثمن. ولما أحس عبد المطلب عند حفر بئر زمزم بالضعف في قريش؛ لقلة أولاده، ولقي منهم ما لقي، فنذر إذا رزقه الله عشرة بنين، وبلغوا معه حيث يمنعونه أن ينحر أحدهم قرباناً لله للكعبة، ولم يطلع أحد على نذره هذا، ولم يمضِ زمان إلّا وبلغ عدد أبنائه عشرة، وبلغوا معه حيث يمنعونه.

فكان عليه أن يفي بنذره، ولا يكون ممن ينقضون العهد، ولا يوفون بالنذر، فقرر أن يشاورهم في هذا الأمر، وبعد أن يكسب رضاهم وموافقتهم، يختار

أحدهم للذبح بالقرعة.

فجمع أولاده، وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بنذره، فأطاعوه، ووجد عبد المطلب في كل واحد من أبنائه شبهاً إلى حد قريب بما وجد إبراهيم في ابنه إسماعيل، وجعلوا يتسابقون في تقديم رقابهم للنحر، كل واحد منهم يريد أن يفي نذر أبيه، ويفتدي برقبته رقاب إخوته؛ إرضاء للأب، وصوناً لعهد مع ربه.

فأخذ أولاده ومضى بهم جميعاً إلى المنحر عند أساف ونائلة وهو المكان الذي تنحر فيه قريش ذبائحها، وكل منهم يريد أن يكون الفداء. وانتشر الخبر في أرجاء مكة، وأصبحت قريش ذلك اليوم من شهر جمادى الأولى قبل المبعث بنحو إحدى وأربعين سنة، ولا حديث لها إلّا عبد المطلب الذي خرج ببنيه العشرة إلى الكعبة لينحر أحدهم.

فخرجت قريش بشيبها وشبانها لتنظر ماذا يفعل عبد المطلب بأبنائه، وخفقت قلوب نساء قريش عطفاً وحناناً في انتظار اللحظة الفاصلة، ولعل عدداً منهن تقدمهن بنات عبد المطلب فذهبن فيمن ذهب إلى الكعبة ليسمع كلمة السماء في الذبيح المختار.

فلما وصل عبد المطلب قريباً من البيت الحرام رفع رأسه إلى السماء وقال: يا رب، أنت تعلم أني نذرت لك، وعاهدت نفسي لئن وهبت لي عشرة أبناء ذكور لأقربن أحدهم لوجهك الكريم، وهؤلاء أولادي فاختر منهم ما شئت.

ثم دعا بجرائد من النخل فقطعت وفصلت قطعاً، وكتب على كل قطعة اسم واحد من أولاده العشرة ودفعها إليه.

وقاوم عبد المطلب عاطفة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وإيمان ليقول لصاحب القداح: اضرب على هؤلاء بقداحهم هذه. وأخبره بنذره، وأمر أولاده

أن يدفع كل واحد منهم إليه قدحه الذي عليه اسمه.

فدفع كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذي فيه اسمه مستسلمين للمصير المحتوم، فأخذ القداح، ودخل بها الكعبة وبقي الشيخ ينتظر أمر السماء، وحانت اللحظة الحاسمة، وإذا بصاحب القداح قد خرج من الكعبة، وقبض على يد عبد الله والد رسول الله، وقال لعبد المطلب: هذا الذي خرج عليه السهم، وكان أصغر بني أبيه سناً، وأحبهم إلى قلبه، فماذا يصنع عبد المطلب، وقد اختارت السماء عبد الله ذبيحاً؟ وماذا يفعل ولابد أن يوفّى نذر شيخ الهاشميين؟

هناك جمع الشيخ كيانه، وأخذ فتاه الغالي بيد وبيد أخرى الشفرة والحبل، ومضى به إلى المنحر عند أساف ونائلة ليذبحه.

ولم يكد الأب يهمّ بذبح فتاه حتى اجتمعت عنده رؤساء قريش وبنو هاشم، وحالوا بينه وبين ولده، وقالوا له: ما الذي تريد أن تفعل يا عبد المطلب؟ قال: أفي بنذرٍ عاهدت الله عليه. فقالوا: والله لا ندعك تذبحه أبداً حتى تعذر فيه؛ فإنك إن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه فتكون سنة من بعدك، فما بقاء الناس على هذا، فإن كان فداؤه بالمال فديناه. فقال لهم عبد المطلب: أغضب ربي، وأخالف عهده، وأرضي عبده؟ فقالوا: إن في المدينة عرافة تدعى سجاح السهلي، لها تابع من الجن، فاذهب إليها واسألها؛ فإن أمرتك بذبحه فاذبحه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج فاقبله.

فسمع كلامهم، وسار مع جماعة من قريش بنجومها الزهر يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة المدينة. مضوا، وخلفوا وراءهم قلوباً واجفة، وعيوناً مسهدة، وألسنةً ضارعة في جوف الليل، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر عبد الله.

وأعقبت رحيلهم أيام قاربت العشرين عدّاً. وبقيت أندية قريش ومسامرها

طوال تلك المدة مقفرة خلاء، وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهمّ والانتظار، وتعلقت القلوب والعيون بمشارف الطريق الآتي من الشمال ترقب عودة الركب الراحل، وتوقفت الحياة أو كادت في تلك الأيام العشرين؛ فقد غاب عن مكة شيخها وفتاها، ومعهما سادات قريش وأنجمها الزهر، وراح العبيد والإماء يسعون بين الدور وممر القوافل يلتمسون هناك وافداً من خيبر يعرف شيئاً من أبناء الركب الغائب.

وشهدت الليالي نفراً من النساء الكريمات يتسللن من أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة، فإذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات، وبعده ينطلقن إلى المسعى يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن، كما استجاب لضراعة هاجر في هذا المكان، وأن ينقذ عبد الله من الذبح كما أنقذ جده إسماعيل.

فلما قدموا المدينة وجدوها، بخيبر فذهبوا إليها فلما دخلوا عليها، أخبرها عبد المطلب بنذره وأمره، فقالت: دعوني اليوم، وائتوني غداً حتى يأتيني تابعي فأسأله.

فلما كان الغد رجعوا عليها، فقالت لهم كم الدية عندكم من الإبل؟ قالوا: عشرة من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلدكم، وقربوا صاحبكم، وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح؛ فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشراً فعشراً حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل، فانحروها عنه؛ فقد رضي ربكم، ونجا صاحبكم.

فرجعوا إلى مكة مسرعين سعياً إلى ساحة الحرم، فترجّلوا جميعاً يدعون ويتضرّعون على حين مضت رسلهم إلى أحياء قريش تجمع الإبل وتسوقها نحو البيت العتيق. وقد شاع وذاع خبر العرافة في البلد الحرام.

فلما وصل عبد المطلب أمر صاحب القداح أن يضرب القداح على عبد الله

وعشرٍ من الإبل، فدخل القدّاح الكعبة، وضرب القداح، فخرج السهم على عبد الله، فما زالوا يزيدون عشراً بعد عشر والقدح يخرج على عبد الله حتى بلغ الإبل مئة ناقة، فخرج القدح لأول مرة على الإبل، فهتفت قريش وجميع من حضر فرحاً وسروراً، وقالوا: لقد رضي ربك يا عبد المطلب. قال: لا والله، حتى أضرب عليها ثلاث مرات.

فضربوا على عبد الله وعلى الإبل المئة فخرج القدح على الإبل، ثم عادوا ثانية وثالثة والقدح يخرج على الإبل. إذن فقد نجا فتى هاشم من الذبح، ما أوسع رحمتك يا رب. فقبل عبد المطلب، واطمأن قلب الشيخ المؤمن، وأمر بنحر الإبل فنحرت، وتركت لا يصد عنها إنسان، ولا يمنع منها حيوان.

وكانت قصة الفداء قد هزّت قلوب المكيين تعلقاً بالشاب الذي مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله، راضٍ بقدره، حتى إنه لم يبقَ بينه وبين الموت إلّا قيد شعرة فأنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب، وأُضيئت المشاعل في شتى أرجاء البلد الحرام الآمن، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه إبراهيم إلى الجبل لكي يذبحه طاعةً وتعبداً، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى.

عبد المطلب وهدم الكعبة

كان البيت العتيق ولا يزال علماً شامخاً، ومناراً عالياً؛ فهو أول بيت وُضع للناس حرماً وملاذاً، ومثابة للناس وأمناً يطمئن فيه الخائف، ويأمن لديه المروع، ويحقن عنده الدم المهدور، وتحمى في حماه حياة كانت إذ ذاك مستباحة في شرعة

الصحراء، وبضراوة البيداء... يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة، فهم ينثالون إليها حجّاجاً ضارعين، ويلوذون بها داعين مبتهلين، قد هانت لديهم الأرض إلّا موضعاً، وعز الأمان إلّا في مكان.

يقول ابن إسحاق: كانت مكة لا يُقر فيها ظلم ولا بغي، ولا يبغي فيها أحد إلّا أخرجته، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلّا هلك مكانه. قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)].

وقيل: إنما سميت مكة بكة أنها تبكّ ـ أي تكسر ـ أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً. وتبلغ حرمة مكة عند القوم مبلغاً يمكن تصويره في أن خدمة الكعبة كان نذراً ـ غالباً ـ تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان.

وطال المدى، ومكة مهوى الأفئدة، وقبلة العرب لا تكاد بقعة أخرى تطمح إلى منافستها، أو تطمع في انتزاع مجدها حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسيرة. وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة في خارج الجزيرة وداخلها ما يتناقله الأخباريون من حديث البيت الذي أقامه الغساسنة بالحيرة، والكنيسة التي بناها أبرهة الأشرم في صنعاء اليمن؛ ليصرف إليها حج العرب.

قال مجاهد: عن ابن عباس قال: لما قتل أبرهة الأشرم أرياط، وتولى على اليمن رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى حج بيت الله الحرام، فسأل: أين يذهب هؤلاء الناس، فقالوا له: يحجّون إلى بيت الله بمكة. قال: مم هذا البيت؟ قالوا: من حجارة. قال: وما كِسْوَتُهُ؟ قالوا: مما يأتي من هاهنا: الوصائل. قال: والمسيح، لأبنين لكم خيراً منه.

---

(١) الحج: ٢٥.

فبنى لهم بيتاً عمله بالرخام المجذع الأبيض والأحمر والأصفر والأسود، المنقوشة بالذهب والفضة، وحفّه بالجواهر ـ وكان قد نقل ذلك من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ صاحبة سليمان عليه السلام ـ وجعل فيها ياقوتة حمراء عظيمة، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة، وقباباً من الزبرجد الأخضر، ومنابر من العاج والأبنوس، وجعل لها حجاباً وسدنة.

يقول ابن هشام في السيرة: إن أبرهة الأشرم لما بنى القليس بصنعاء اليمن ـ وهي الكنيسة التي أراد أبرهة أن يصرف حج العرب إليها، وسميت بالقليس لارتفاع بنيانها وعلوها، ومنه أخذت القلانس؛ لأنها تعلو الرأس ـ كتب إلى مولاه النجاشي: إني بنيت لك أيها الملك كعبة لم يُبنَ مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب. فسمع مقالته رجل من قريش من كنانة، فجاء ودخلها ليلاً، وقضى حاجته، ولطخ قبلتها من عذرته، ولحق بأرضه. فأخبر أبرهة بذلك، فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: رجل من العرب من أهل البيت الذي تحج العرب إليه بمكة. فغضب غضباً شديداً، وحلف بالآلهة، ليسيرن إلى البيت بمكة، ويهدم كعبتهم، ويلقي أحجارها في البحر، حتى لا يحج منهم حاجٌّ أبداً.

وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، ويسأله أن يبعث إليه بفيله محمود ـ وكان فيلاً لم يُرَ مثله في الأرض عِظَماً، وجسماً، وقوة ـ فبعث به إليه، فخرج من اليمن، ومعه جيش عظيم، ومعه الفيل محمود، واثنا عشر فيلاً غيره من أحسن الفيلة وأجودها تدريباً. فكان لا يغزو قبيلاً إلّا هزمه، وشرّد أهله، وهدم مضاربه، ولا يمر في واحة إلّا قطع غرسها، وأتلف زرعها. فلما صار بالمغمس بين مكّة والطائف أرسل قائداً من قوّاده إلى مكة، فساق إليه أموال قريش وعيرهم، وأصاب فيها مئة بعير للشيخ عبد المطلب بن هاشم. وأرسل إلى أهل مكة رسولاً يقول لهم عن لسانه:

إني لم أتِ لحربكم، وإنما جئت لهدم كعبتكم؛ فإن لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم.

فقدم الرسول إلى مكة يسأل عن سيد قريش، وزعيمهم، وولي البيت الحرام، وسادن الكعبة المشرفة، فدُلَّ على عبد المطلب، فقال للرسول حين بلغه رسالته: إني أعرض عليه أن يكف عن هدم الكعبة، وينزل علينا ضيفاً مكرماً، وتقدم له تهامة وأهل مكة المبالغ التي يريدها، وتقام بيننا وبينه علاقات الودّ وحسن الجوار. فقال الرسول: إنه أقسم بالآلهة ألّا يرجع حتى يهدم كعبتكم. فقال عبد المطلب: إنا لا نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، وهذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، وهو يحميه ويمنعه ممن يريد هدمه؛ فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلِّ بينه وبينه فما عندنا دفع عنه. فقال الرسول: أمرني أن تنطلق معي إليه.

فانطلق معه عبد المطلب، فلما وصلا دخل صاحب الإذن على أبرهة، وأخبره بأن سيد قريش وصاحب عير مكة، ومطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال بالباب، وقد أصاب له الملك مئتي ناقة.

فأذن له بالدخول، فدخل عبد المطلب بخطوات ثابتة، رافع الرأس، عزيز النفس، تظهر عليه سيماء العظمة، وملامح السيد الجليل الذي لا يهاب بطش الغازي. وكان عبد المطلب أوسم الناس وجهاً، وأجملهم خلقاً، وأعظمهم قدراً، فلما رآه أبرهة عظّمه وأجلّه، وكرّمه وفضّله، ونزل من تحته إجلالاً، وأخذ بيده وأجلسه إلى جانبه؛ لاستدارة نور النبي محمد صلى الله عليه وآله في وجهه.

وقال له: سلني يا عبد المطلب حاجتك. فأبى أن يسأله إلّا عن إبل له مئتي بعير أصابها قومه، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مئتي بعير أصابها قومك كنت أعددتها لحجاج بيت الله الحرام، فإن أردت أن تردها علي فافعل.

فأمر بردها عليه، ثم التفت إليه قائلاً: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني في مئتي بعير أصابتها قومي لك، ولم تسألني عن بيت هو دينك ودين آبائك، وقد جئت لهدمه، فلم تكلمني. فقال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل، وللبيت رب يحميه ويمنعه منك. فقال مغتراً بنفسه: ما كان ليمتنع مني. فقال عبد المطلب: أنت وذاك. فأخذ عبد المطلب إبله، وعاد إلى مكة وهو يقول:

يا أهل مكة قد وافاكُمُ ملك ... مع الفيول على أنيابها الزردُ
هذا النجاشي قد سارت كتائبه ... مع الليوث عليها البيض تتقدُ
يريد كعبتكم والله مانعه ... كمنع تبّع لما جاءها حددُ

وأمر قريشاً أن يخرجوا من مكة ويلحقوا ببطون الأودية، ورؤوس الجبال؛ تخوفاً عليهم من معرة الجيش، وأن ينتظروا ما الذي أبرهة فاعله بمكة إذا دخلها. وجاء عبدالمطلب، ودخل الحرم، وأخذ بحلقة باب الكعبة، وجعل يدعو الله ويستنصره على أبرهة وجنده، ويبتهل إلى الله أن يحمي بيته وأهل مكة من ظلمه، ويقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدوَّ البيت من عاداكا ... فامنعهُمُ أن يخربوا قراكا

ثم رفع رأسه إلى السماء وجعل يقول: اللهم البيت بيتك، والحرم حرمك، والدار دارك، ونحن جيرانك، تمنع عنه من تشاء، ورب الدار أولى بالدار، ويقول:

لاهم إن العبد يمـ ... ـنع رحله فامنع رحالكْ
جروا جموع بلادهم ... والفيل كي يسبوا عيالكْ

قصـــدوا حمـــاك بكيـــدهم   جهـــلاً ومـــا رقبـــوا جلالـــكْ
فانصـــر علـــى آل الصليـــ   ـــب وعابديـــه اليـــوم آلـــكْ
لا يغلـــــبن صـــــليبهم   ومحـــالهم عَـــدْواً محالـــكْ
إن كنـــت تـــاركهم وكعـــ   ـــبتنا فـــامر مـــا بـــدا لـــكْ

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله محموداً، وعبّأ جيشه، وهجموا على الكعبة المشرفة بالأفيال ليكسحها، وإذا بأسراب من الطيور أمثال الخطاطيف تظهر عليهم من جهة البحر، وكل واحد منها يحمل ثلاثة أحجار: حجراً في منقاره، وحجرين في رجليه أمثال الحمص، لا تصيب أحد إلّا أهلكته. فأظلم سماء الجيش بتحليق تلك الطيور فوق رؤوسهم، فولّوا مدبرين والطيور تتبعهم:

أيـــن المفـــر والإلـــه الطالـــبْ   والأشرم المغلوب لـيس الغالـبْ

وما هي إلّا فترة وجيزة تشتت بعدها جنود أبرهة، ولاذوا بالفرار يريدون العودة إلى بلادهم؛ خوفاً من الموت وهو لاحق بهم، حتى جعلهم الطير الأبابيل كعصف مأكول، وهلك أبرهة دون غايته، وبقي البيت العتيق بمكة المكرمة ـ كما كان ـ مثابة للناس وأمناً، وأقبلت قريش على كعبتها المقدسة تطوف بها حامدة شاكرة، وتجاوب البلد الأمين بدعوات المصلين، وأناشيد الشعراء. فلما رفع الله عن قريش شرهم، قالت العرب: قريش آل الله وقرابينه، وجيران الله وسكان بيته، وقال عبد المطلب:

نحـــــن آل الله فـــــي ذمتـــــه   لم نزل فيها على عهـد ابـرهمْ
إن للبيـــــت لربـــــاً مانعـــــاً   مـــن يـــرد فيـــه بـــإثم يختـــرمْ
لـــم تـــزل لله فيهـــا حرمـــة   يـــدفع الله بهـــا عنـــا الـــنقمْ

وبهذا ومثله حدّث النقلة، وأكد الرواة، وإنه لشاهد على ما وصلت إليه حرمة هذا البيت العتيق فيهم، ومكانة مكة عندهم، تلك المكانة التي تنافس من أجلها المتنافسون، وتقاتل المتقاتلون.

ورووا أن تبّعاً الحميري مرّ بقرب مكة في طريقه إلى اليمن، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، فقالوا له: أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال داثر، أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد، والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى. قالوا: بيت بمكة، يعبده أهله، ويصلون عنده.

وكان الهذليون إنما أرادوا هلاك تبع بذلك؛ لما عرفوا من هلاك من أراد البيت من الملوك بسوء. فعمد إلى هدم البيت وأخذ ما فيه، وقبل أن يدنو منه ابتلي بداء في رأسه تمخّض منه قيحاً وصديداً، وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه، وعجزت الأطباء عن شفائه.

فدخل عليه حبران من اليهود، فلما رأيا ما به قالا له: لعلك هممت بشيء في أمر هذا البيت؟ فقال: نعم، أردت هدمه، وأخذ ما فيه من ذخائر، وذكر لهما ما قاله الهذليون. فصاح الحبران: ما أراد القوم إلّا هلاكك وهلاك جندك، والله ما نعلم بيتاً لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره.

ونصحاه إن هو أقدم على البيت أن يصنع عنده ما يصنع أهله: يطوف به، ويعظمه، ويذلّ له حتى يخرج. فقبل نصحهما، وفعل ما أمراه به، فبرئ من دائه وصح من وجعه، وأمر بالهذليين، فقطع أيديهم وأرجلهم، وكسا البيت أحسن كسوة، وأنشد يقول:

وكسونا البيت الذي حرم اللـ ـه ملاء منضداً وبرودا

ونحرنا بالشعب ستة آلا ف ترى الناس نحوهن ورودا

ثـم سـرنا نـؤم قصـد سـهيلٍ قـد رفعنـا لواءنـا معقـودا

وأكثر الشعراء من ذكر الفيل، ونظموا، ونقلته الرواة عنهم؛ فمن ذلك ما قاله أمية بن أبي الصلت:

إن آيـات ربنـا بينـات ما يمـاري فـيهن إلا الكفـورُ

حـبس الفيـل بـالمغمس حتـى ظـل يحبـو كأنـه معقـورُ

عبد الله بن عبد المطلب

هو عبد الله بن عبد المطلب ـ واسمه شيبة الحمد ـ ابن هاشم ـ واسمه عمرو العلا ـ ابن عبد مناف ـ واسمه المغيرة ـ ابن قصي ـ واسمه زيد ـ ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة ـ واسمه عمرو ـ ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وقد سمي الذبيح الثاني المفدى بمئة من الإبل، القرشي الهاشمي المكي ـ ولادة ونشأة وإقامة ـ والمدني ـ وفاة ـ والد الرسول الأعظمﷺ، وفيه العمود والشرف، ولم يبق لهاشم عقب إلّا منه، وقد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، أحبه قومه، وعظم خطره فيهم.

أمّا أُمه فهي فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية، من صميم البيت القرشي. وقد أنجبت لعبد المطلب عبد الله والد رسول الله، وأبا طالب والد الإمام أمير المؤمنين، والزبير صاحب حلف الفضول، وأم حكيم البيضاء توءم عبد الله، وعاتكة وبرة وأميمة وأروى.

وجدة عبد الله لأبيه هي سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية التي كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها. حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت

رجلاً فارقته. وجدّته لأمه تخمر بنت عبد بن قصي بن كلاب من سلسلة النسب النبوي الشريف، وأمها سلمى بنت عامرة بنت وديعة الفهرية.

وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحراً، وذيوع صيت في مكة.

يقول الدكتور محمد حسين هيكل: إن عبد الله كان شاباً وسيماً قوياً، فلم يكن عجباً أن تطمع غير آمنة بنت وهب في الزواج منه، فهو الشاب الهاشمي الذي ملأ الأسماع بقصة فدائه، كما ملأ الأعين بسحر فتوّته ونضارة حيويته، مما دعا بعض نساء قريش إلى أن يعرضن أنفسهن عليه عرضاً صريحاً بادي اللهفة. وقد روي أن رقية بنت نوفل بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشية ـ أخت ورقة ابن نوفل عم خديجة بنت خويلد ـ استوقفت عبد الله بعد فدائه من الذبح، فقالت له حين نظرت إلى وجهه، فرأت نور النبوة يضيء كالقمر، وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصّر واتبع الكتب ـ أنه كائن في هذه الأمة نبي، فودّت أن تكون أُماً لصاحب هذا النور دون غيرها، فكان أن نادت عبد الله: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي لا أفارقه. قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك يوم الفداء إن قبلت أن أهبك نفسي هذه الساعة. فقال لها:

أما الحرام فالممات دونه … والحل لا حل فأستبينَهْ
فكيف بالأمر الذي تعنينه … يحمي الكريم عرضه ودينَهْ

وقيل: إنها فاطمة بنت مر، كانت من أجمل النساء وأعفهن، وكانت قرأت الكتب، فرأت نور النبوة في وجهه، فعرضت نفسها عليه. وقيل: ليلى العدوية.

ولكنه لم يستجب لواحدة منهن، وأجاب على هذا الطلب ببيتين من الشعر، وقد مرّا، وكان حاصلهما أن الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الذي

يأتي على دين الرجل وشرفه.

وهذا خير دليل على طهارة عبد الله وعفته، وتقواه وترفّعه عن الآثام، وابتعاده عن الأنجاس والأدناس.

وهذه مسألة مهمة في تاريخ النبي الكريم، ألا وهي طهارة النسب من دنس الآباء ودناءتهم، وعهر الأمهات وفسادهن، فلا يكون في أجداده وجداته سفاح وزنى، وهو ما اتفق عليه المسلمون، وصرح رسول الإسلام به كما ورد في أحاديث رواها الشيعة والسنة، ومنها: «**لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما**».

وقال الزهري: عن أنس قال: قال صلى الله عليه وآله : «**ما افترق الناس فرقتين إلّا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبويَّ فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية، وخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي؛ فأنا خيركم نفساً، وخيركم أباً**».

يقول الرواة: وقد اطمأن قلب الشيخ المؤمن على الذبيح المفتدى الذي لم يفدَ أحد قبله بمئة من الإبل ـ وكانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقاً بالشابّ الذي مست الشفرة منحره وهو صابر، مستسلم لأمر الله، راضٍ بقدره، حتى إذا لم يبقَ بينه وبين الموت إلّا قيد شعرة أنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب ـ فأُضيئت المشاعل في شتى أرجاء البلد الحرام الآمن، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها.

آمنة بنت وهب

وكان للشاب المفتدى يومذاك من العمر ثماني عشرة سنة، وقيل: أكثر، فرأى أبوه أن يزوجه، فجعل يبحث عن فتاة ذات عفة وشرف، ومن قوم ذوي عزة

وسيادة، فيهتدي إلى منازل بني زهرة، فيختار آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ـ وآمنة يومذاك فتاة السؤدد والرفعة؛ فهي زيادة على حسن خلقها وطيب معشرها أصيلة في النسب أباً وأماً ـ وكانت قد لاحت بواكير نضجها في الوقت الذي كانت فيه خطوات عبد الله تسرع به إلى الشباب.

وكان فتيان بيوتات مكة قد تسابقوا إلى باب بيت زهرة قريش يلتمسون يدها، ويزفون إليها ما لهم من مآثر وأمجاد، ولكن عبد الله فتى هاشم هو الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعاً، فما كان فيهم من يدانيه شرفاً ورفعةً وفتوةً.

وبينما آمنة وأمها ذات يوم تتحدثان في قصة الفداء؛ إذ دخل عليها وهب، ليقول لابنته في رقة وحنو: إن شيخ بني هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله. وعاد من فوره إلى ضيفه الكريم، واحتضنت الأم بنتها في حنو غامر وهي تقول: أحقاً آثرتك السماء بفتى هاشم زوجاً. هنيئاً لك يا آمنة لقد ظفرت بمن تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله.

فتزوجها، وعمّت الأفراح أهل مكة، واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها، وكان عبد الله أثناءها يقيم مع عروسه في دار أبيها على عادة القوم. حتى إذا أشرقت شمس اليوم الرابع سبقها إلى داره؛ كي يهيئها لاستقبال الوافدة العزيزة، على حين أمضت هي ذلك اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التي استقبلتها وليدة، ورعتها صبية، وزفتها عروساً. ومضت تحفّ بها رفيقاتها من سيدات بني زهرة إلى دار زوجها، وكان في استقبالها عبد الله متلهفاً مَشوقاً، فأدخل العروس في مخدعها مع رفيقاتها، وأقبل إلى الضيوف الذين حضروا لتهنئة العروسين.

ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون يباركون العتبة الجديدة التي انتقلت إليها زهرة قريش، ويدعون للزوجين الكريمين ـ أعزّ من عرفت الحجاز حسباً،

وأعرقهم نسباً ـ ثم آبوا إلى منازلهم، وهجع الكون، وسكنت الدنيا، وعبد الله جالس إلى آمنة يؤنسها بحديثه، ولم يكد يكمل حديثه حتى استغرقت آمنة في رؤيا ملهمة استعادت فيها كل الذي كانت الجزيرة تمتلئ به من شائعات وإرهاصات عن نبي منتظر، حتى إذا دنا الصبح استيقظت العروس من نومها الهنيء، وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها التي رأت فيها كأن شعاعاً من النور ينبثق من كيانها اللطيف، فيضيء الدنيا من حولها، حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض الشام، وسمعت هاتفاً يهتف بها: «إنك قد حملت بسيد هذه الأمة».

تعاقبت السنون بعد حادثه الفدا حيث يبلغ عبد الله بن عبد المطلب الثامنة عشرة من العمر أو أكثر. فيرى أبوه عبد المطلب أن يزوجه، فيعرض عليه هذا الأمر ليختار الفتاة التي يرغب فيها، ولكن عبد الله يترك لأبيه حرية التصرف ـ وهو على يقين بأنه ليس أحد أقدرمنه على الاختيار ـ فبدا عبد المطلب يستعرض الأسر والبيوت وتاريخهم، والخصائص التي تتميز بها كل أسرة، فإذا الخصال التي ينشدها، والضالّة التي يبحث عنها قد وجدها في حي من أحياء بني زهرة من سادات قريش بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وبه كان يكنى، فيقال: أبو زهرة، وهو الأخ الشقيق لقصي بن كلاب الذي ملك مكة ما عاش، ثم تركها لقريش ميراثاً مجيداً لم تنافسها في شيء منه قبيلة أخرى، حتى جاءها محمد بن عبد الله حفيد قصي وزهرة ابني كلاب بمجد الدهر وعزّ الأبد.

وقبيل الإسلام كانت كنيته أبا كبشة، فلمّا ظهر النبي محمدﷺ وناوأته قريش كانوا ينسبونه إليه فيقولون: قال ابن أبي كبشة، وفعل ابن أبي كبشة.

وأم زهرة وقصي فاطمة بنت سعد بن سيل أحد بني الجدرة. ويعرف بنو زهرة منذ كانوا بالود الخالص لبني عبد مناف بن قصي دون أخوتهم من بني عبد الدار.

ومن هذه الأُسرة القرشية الكريمة ـ التي عُرفت من قديمٍ بصلة الوّد لبني عبد مناف بن قصي، والتي ذكر لها التاريخ مشاركتها في الأمجاد الكبرى لقريش، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التي شهدتها مكة قبيل الإسلام، وتحالفها مع هاشم وبنيه في الحلفين العظيمين، حلف المطيبين وحلف الفضول، من هذه الأُسرة ـ كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة التي توّجت ذلك المجد العريق بالشرف الذي لا يدرك ولا ينال، فجدّها لأبيها عبدمناف بن زهرة الذي يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصي فيقال: المنافان تعظيماً وتكريماً، وأبوها وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة شرفاً وحسباً، وفيه يقول الشاعر:

يا وهب ابن الماجـدين زهـره　　　سدت كلابـاً كلهـا بـن مـره

بـحـســب زاك وأمّ بــــره

ولم يكن نسب آمنة من جهة أُمها دون ذلك عراقةً وأصالةً؛ فهي ابنة برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب. وجدّتها لأُمها أُم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، ووالدة أُم حبيب برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. فهي سلالة عريقة أصيلة أنبتت آمنة لتضطلع بعبئها الجليل في أُمومتها التاريخية، ووراثات مجيدة أهدتها إلى ولدها.

فجمعت له عز المنافيين: عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وعبد مناف بن قصي ابن كلاب، فجعلته يعتز بنفسه فيقول من حديث رواه ابن عباس: «**لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما**».

يقول البوصيري في قصيدته:

نسب تحسب العلا بعلاه ... قلدته نجومها الجوزاءُ

حبذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماءُ

تفتح صباها في أعز بيئة وأطيب منبت، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب ما تزهو به في ذلك المجتمع المكي المعتز بكرم الأُصول، ومجد الأعراق. ولدت في أُم القرى في جوار البيت العتيق الذي بُعث فيه ابنها اليتيم، فأيد مبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلاً بعد جيل.

واتخذ الإسلام من الكعبة التي تعبّد فيها الخليل قبلته التي يولّي المسلمون وجوههم قِبَلها حيثما كانوا وأنى أقاموا ما عبد الله في الأرض، تلك هي مكة بلد آمنة، ومهد ولدها الوحيد، ومثابة آبائه وأجداده، ودار مبعثه، وقبلة الذين آمنوا به أمس واليوم وغداً وإلى الأبد.

ففي تلك البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التي عرفها التاريخ، أماً خالدة في يوم لم يحدده التاريخ في نحو منتصف القرن السادس الميلادي، رأت النور سليلة نابهة من القبيلة التي كانت ذات الشأن الأول في تلك المنطقة المقدسة. وكانت زهرة قريش اليانعة، وبنت سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، قد ظلت في خدرها محجبة عن العيون، مصونة عن الابتذال حتى ما كان الراؤون يتبينون ملامحها، ويتمثلونها في صباها الغض، والذي يعرفه المؤرخون عنها أنها عندما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب كانت يومئذٍ أفضل فتاة في قريش نسباً وموضعاً.

وفاة عبد الله

دخلت آمنة بنت وهب إلى بيت الزوجية، وأَلِفت زوجها عبد الله وألفها منذ اللحظة التي تلاقيا فيها، وربط الحب بين قلبيهما، فعاشا في الهناء والسعادة،

ولكنها كانت سعادة قصيرة لم تدم أكثر من شهور معدودة، ارتحل بعدها عبدالله في تجارة إلى بلاد الشام سعياً وراء العمل والكسب، حتى يؤمّن سبل العيش الكريم والحياة الفاضلة له ولعياله. ارتحل عبد الله عن زوجته آمنة بعد وداع صعب، وفراقٍ أليم، وبقيت آمنة حيث كانت واقفة بباب مخدعها الموحش، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتمزق، وأدركتها بعد ساعة جاريتها بركة أُم أيمن، فقادتها برفقٍ إلى فراشها، ثم جلست إلى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقي.

وسافر عبد الله يحدوه الأمل في الرجوع إلى الزوجة الودود، وكان قد أمّن كل أسباب الرفاهية لها ولوليدها المنتظَر الذي بدأت حياته في أحشائها منذ تزوجا، ولكن نصيبه من الدنيا ومن السعادة مع زوجته بالذات كان قليلاً، فقد ذهب والآمال العريضة ترافقه، وعاد والمرض يلاحقه ويعروه، حتى إنه لم تتح له فرصة إكمال الطريق ليصل إلى مكة، ويتمتّع برؤية الزوجة التي تنتظره بفارغ الصبر، وقد اشتد عليه المرض في يثرب، واضطر للبقاء عند أخواله من بني النجار، وآمنة تعدّ الليالي والأيام، وتتمثل زوجها وقد عاد إليها متلهفاً، يحدثها عما لقي في بعدها من حر الشوق، ولهفة الحنين، ولكنه لم يلبث بعدما تركته القافلة طويلاً، حتى غلب عليه المرض، ففارق الحياة. وهكذا هي الحياة تعطي ولكنها تأخذ بالمقابل.

لقد تصوّر الناس أن عبد الله بن عبد المطلب هو الإنسان الذي صفت له الأيام، فأعطته شأناً تحدثت به الركبان في البوادي والقفار يوم فدائه، ومنحته عزّة شهدت له بها بلاد العرب قاطبة يوم زواجه، فكان حرياً بالناس أن يحسدوه على ما حازه من الشهرة.

ولكن هيهات أن يدوم مجد، أو تطول سعادة ما دام في السماء قدر مقدور لابن

آدم، وها هو قدر عبد الله ينفذ فيختطف مفارقاً الدنيا، وهو في ريعان شبابه لم يبلغ العشرين.

لقد كان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه إليه، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله، ولكن الموت لم يمهله، فدفن في دار النابغة الصغرى ـ زقاق الطوال ـ كما هو معروف قرب السور، ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذي رأى النور في شهر أغسطس عام ٥٧٠ ميلادية بعد وفاته بشهور.

وعادت القافلة إلى مكة، وكان عبد المطلب في انتظاره بالحرم، فلما افتقده سأل عنه رفاقه، فقالوا له: وَعْكَةٌ طارئة ألّمت به، وهو في طريقه، وقد خلّفناه في المدينة عند أخواله، وعما قريب يبرأ ويعود سالماً إليكم.

فبعث إليه عبد المطلب أخاه الحارث؛ كي يكون معه ويصحبه في طريقه إلى مكة، فذهب الحارث، وما أسرع أن عاد وحده.. عاد لينعى أخاه الشابّ إلى أبيه الشيخ، وزوجته العروس، وبني هاشم والقرشيين جميعاً.

لقد غاله الموت فدُفِنَ هناك، ولم يقبل فيه هذه المرة أي فداء.

فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً، ولبست مكة كلها ثوب الحداد على فتاها الذي غالته المنون غريباً عن وطنه، وهو لم ينزع عنه ثوب العُرس بعدُ.

وضجّت من النوح عليه أفواه وأصوات كانت قد بُحّت من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين. فما كان أحد يظن أن المنية واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وذلك حين غاله الموت إثر فرحة الفدا، وترمّلت العروس الشابة وما يزال في يديها خضاب العرس.

لقد فجعت آمنة حقاً عندما نُعي إليها زوجها، وأحسّت أن نفسها نعيت إليها،

تمنّت في تلك البرهة لو يأتيها الموت حتى تلحق بزوجها، فلا يكون بينهما فراق أبداً. هكذا كانت مصيبة آمنة بنت وهب، إنها مصيبة الموت التي فجعتها بعبد الله الذي فارقها في ريعان صباها، وخلف لها في القلب حرقة، وفي الأحشاء أمانة عليها صونها ورعايتها في كل حال. فبكته بحرقة القلب قبل دمعة العين، وكيف لا تبكيه؟ وكيف لا يشقّ عليها فراقه، وقد عشقته نفسه، وعاش في كيانها على الرغم من قصر المدة التي ضمّتهما معاً؟ وكيف لا تبكي الحبيب الذي أفاض عليها من قلبه حباً قلّ مثيله في الحياة؟ وكيف لا تندب الزوج الذي أغرقها بالعطف والحنان، والذي طبقت شهرته الآفاق وتحدّثت بمزاياه الكريمة الركبان، وهو من هو في علو شأنه، ورفيع منزلته؟ أو كيف لا تنوح على الشاب الجميل المحيا، صاحب الطلعة البهية، والثغر الباسم، الذي لم تره فتاة وقعت عيناها عليه إلّا تمنت أن يكون لها زوجاً ورفيق حياة، فعاشت حياتها حزينة كئيبة تبكي الليل والنهار، وترثيه بدموع ملؤها الأسى، وتقول:

عفا جانب البطحاء من زين هاشم ... وجاور لحداً خارجاً في الغماغمِ

دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشمِ

عشية راحوا يحملون سريره ... تعاوره أصحابه في التزاحمِ

فإن تكُ غالته المنون وريبها ... فقد كان معطاءً كثير التراحمِ

مولده الشريف

ولــد الهــدى فالكائنــات ضــياء   وفــم الزمــان تبسّــم وثنــاءُ
الــروح والمــلأ الملائــك حولــه   للــدين والــدنيا بــه بشــراءُ
والعرش يزهـر والحضـيرة تزدهـي   والمنتهــى والســدرة العصــماءُ

أحمد شوقي

وتحلّ سنة ٥٧٠ للميلاد، فتحمل معها البشرى إلى البشرية، وتهب نسائم الفجر من أرض الحجاز لتحمل معها نبأ ولادة النبي العظيم المنتظر الذي تترقبه اليهود والنصارى في الحجاز من الأرض البكر.. نبيّ من أُسرةٍ عربيةٍ امتازت بطهارة أعراقها، ونبل مقاصدها، وعلوّ همّتها.. أُسرة امتازت بمواقفها وعفافها والتزامها وتدينها. إنها الأُسرة الهاشمية التي عرفتها كل قبائل العرب وعشائرها، والتي امتازت بتاريخها العريق، ومآثرها ومكارم أخلاقها.

ولم تكُ إلّا فترة قصيرة المدى ـ خمسين يوماً على الأكثر بعد غزو أبرهة مكة لهدم الكعبة المعروف بعام الفيل لأربع وثلاثين سنة وثمانية أشهر مضت من ملك كسرى أنوشروان ـ حتى عاودت الرؤيا آمنة بنت وهب في صدر ليلة مقمرة، ليلة الاثنين، السابع عشر من ليالي شهر ربيع الأول ـ وعليه اتفاق الشيعة الاثني عشرية ـ حيث سمعت آمنة من يهتف بها من جديد أنها توشك أن تضع سيد هذه الأُمة، ويأمرها أن تقول حين تضعه: «أعيذه بالواحد، من شر كلّ حاسد»، فإذا

وضعتهِ فسمّيه محمداً. وأهل الحساب يقولون: وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان أبريل، وكان لعشرين يوماً مضت منه، وولد بالغفر من المنازل، وهو مولد الأنبياء.

وقيل: كان مولده يوم الجمعة بعد قصة الفيل بخمسين يوماً الموافق ٢٥ من شهر أغسطس عام ٥٧٠ ميلادية، لأربعين سنة خلت من حكم كسرى أنو شروان في دار محمد بن يوسف الثقفي، في الزاوية القصوى من يسارك، وأنت داخلٌ الدار.

وكانت هذه الدار للنبي محمدﷺ بالميراث، ووهبها النبيﷺ إلى ابن عمه عقيل بن أبي طالب، فبقي بيت المولد لعقيل، ومن بعده لولده حتى اشتراها منهم محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج بن يوسف، فاشتهرت باسمه «دار محمد بن يوسف»، فأدخلها محمد بن يوسف في قصره الذي يسمونه قصر البيضاء.

ثم إنه بعد انقضاء دولة بني أُمية، حجّت الخيزران أم الهادي والرشيد من خلفاء بني العباس ـ وذلك في القرن الثاني من الهجرة ـ أخرجت عين «زبيدة» لسقاية الحجيج، والمعروفة باسمها عين زبيدة، فأخذتها الخيزران، وأفرزتها عن القصر، وجعلتها مسجداً للصلاة، وأخرجته من الزقاق الذي يقال له زقاق المولد. وهي الآن معروفة، تُزار، ويُصلّى فيها، وتقع غرب الصفا، وتُعرف بمسجد المصطفى، قريباً من سوق الليل.

وما كان فجر تلك الليلة ينبثق حتى كانت آمنة قد وضعت وليدها، كما تضع كل أُنثى من البشر، ويخرج المولود المبارك نقياً منظّفاً مختوناً مقطوع السرة، بلا ألمٍ، ولا دمٍ، ولا نفاسٍ، ولا بكاءٍ، ولا صراخٍ على خلاف العادة في المواليد. وتلقّى الوليد الطاهر الأرض بمساجده السبعة، رافعاً سبابته إلى السماء، يرافقه نور غطى

أرجاء المكان كله كأنه على موعد مع خروج هذا المولود المبارك. يقول البوصيري:

ليلة المولد الـذي كـان للديـــ ـــن سـرور بيومـه وازدهــاءُ
فهنيئـــاً بـــه لآمنـــة الفضـــ ـــل الـذي شـرفت بـه حـواءُ
من لحـواء إنهـا حملـت أحـــ ـــمد أو أنهــا بـــه نفســاءُ
يوم نالت بوضـعه بنـت وهـب من فخار مـا لـم تنلـه النسـاءُ

أجل وضعت آمنة ابنها، وسمته محمداً كما جاءها في الرؤيا، وكما يتوجب أن يسمى بعد أمر السماء، فتعالى على الزمان محمداً وأحمد ومحموداً.. ولد النبي محمدﷺ، وخرج معه نورٌ أضاء قصور الشام القيصرية، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه، وانصدع الإيوان بالمدائن الكسروية الذي رفع أنوشروان سمكه وسوّاه، وسقطت أربع عشرة شرفة من شرافاته العلوية، وكسر سرير الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه، وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية لطلوع بدره المنير ومحياه، وكانت لم تخمد قبل ذلك بألف عام. وغاضت بحيرة ساوى، وفاض وادي السماوة، وسُمع أصوات الملائكة بالتكبير والتهليل، والتسبيح والتقديس، وفتحت أبواب الجنان، وأوصدت أبواب النيران، وتزيّنت الحور والولدان، ونادى منادٍ بين السماء والأرض: «**وُلد في هذه الساعة محمد بن عبد الله المعروف في السماء أحمد، وفي الأرض محمد، وفي الجنان أبو القاسم**». وشدا المنشدون بقصائد الشعر من وحي الذكرى الغرّاء لمولد ذلك اليتيم الخالد، يقول أحمد شوقي:

بـــك بشّـــر الله الســـماء فزينـــت وتضـــوعت مســـكا بـــك الغبـــراءُ
يــوم يتيــه علــى الزمــان صــباحه ومســـــاؤه بمحمـــــد وضــــــاءُ
ذعرت عــروش الظــالمين فزلزلــت وعلـــت علـــى تيجـــانهم أصـــداءُ

والنــار خاويــة الجوانــب حــولهم   خمــدت ذوائبهــا وغــاض المــاءُ

وفي هذا الصفاء الفكري لم تنسَ آمنة حماها عبد المطلب، فأرسلت إليه من ينقل له البشارة السعيدة بمولد حفيده العظيم، فجاءه الرسول ـ وهو يطوف بالبيت الحرام ـ وزفّ إليه البشرى، فطار إلى بيت ابنه عبد الله فرحاً لهفان الفؤاد لرؤية طفله الذي ربما أطفأت رؤيته اللوعة التي تتأجج في فؤاده، وأخمدت اللهب الذي ما زال يتلظى في أحشائه منذ شهور، من يوم علم بموت ابنه عبد الله أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه.

أقبل مسرعاً لا يعوقه تقدمه في السن ـ فهو ابن السبعين حولاً ـ تحمله اللهفة، ويدفعه الشوق لرؤية المولود الحبيب ابن الحبيب. فدخل على آمنة وهنّأها على السلامة، وانحنى في حنو على الوليد يملأ منه عينيه. فأحسَّ أن ابنه عبد الله الذي كان يحتل شغاف قلبه قد عاد ليحيا من جديد في مولوده، فغمرته السعادة والغبطة، وحمل حفيده العزيز بين ذراعيه في رفقٍ ورقةٍ، فجعل الطفل يهشّ ويضحك. فتنهدت آمنة من قلب جريح، وجرت دموعها، وقالت: ليت أجل أبيه استأخر بضعة شهور حتى يشهد مولد طفله. فقال عبد المطلب: هذه مشيئة الله يا ابنتي، لقد فديته بأغلى ما فدت العرب ابناً من أبنائها يوم كان بيدي الفداء، أما وهو الموت فلا رادّ لقضاء الله وقدره، إنه حكم الله الذي لا مفر منه. فقالت: رحم الله عبد الله، لقد ذوى في ريعان الصبا، فمزق مني الأحشاء، وهدّ فيّ القوى، ولولا الجنين الذي حملته منه وتلك الرؤيا التي كانت تعاودني مرة بعد مرة لكنت فارقت الحياة أسىً عليه.

ويطلب من أُمه أن يأخذ حفيده إلى الكعبة؛ ليسأل الله أن يعيذه ببركتها من شرور الدنيا ومفاسدها. وينطلق به إلى الكعبة المشرفة يدعو الله ويشكره أن وهبه

ولداً من ابنه الفقيد الغالي. وطاف به سبعة أشواط، ثم وقف عند ركن الكعبة رامقاً بطرفه السماء وهو يقول:

الحمـــد لله الـــذي أعطـــاني — هـــذا الغـــلام الطيـــب الأردانِ
قد ساد في المهد على الغلمانِ — أعيـــذه بالبيـــت ذي الأركـــانِ
حـــين يكـــون بلغـــة الفتيـــان — حتـــى أراه بـــالغ البنيـــانِ
اُعيـــذه مـــن كـــل ذي شـــنان — مـــن حاســد مضــطرب العينـانِ

ثم رده إلى أُمه، وراح يذبح الذبائح، ويطعم أهل الحرم، والسباع والطير، ووحش الفلاة.

وتسامعت بيوتات مكة بالنبأ السعيد، فتوافدت عقائل قريش على دار عبد الله بن عبد المطلب يهنئن آمنة، ويصغين إلى ما كان من بشريات المولد المبارك، ويرين الطفل الجديد ويباركن قدومه. وبلغت من غبطة البيت الهاشمي بالمولود العزيز أن ثويبة الأسلمية جارية عمه عبد العزى بن عبد المطلب ـ أبي لهب ـ سمعت بالخبر، فلم تكد توافي سيدها ببشرى المولد حتى أعتقها.

ومضت بضعة شهور على ولادته وآمنة ترعاه بكل جوارحها، وتحنو عليه بكل مشاعرها، حتى باتت لا تطيق مفارقته لحظة واحدة.

اسمه الكريم

قال أحد الشعراء:

لعمـرك مـا الأسـماء إلا علامـة　　منارٌ ومن خير المنـار ارتفاعهـا

روى أبو الدرداء قال: قال صلى الله عليه وآله: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم**».

وحلّ اليوم السابع من الميلاد المبارك، فعقّ عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وآله بكبش شكراً لله تعالى، ودعا جماعة ليشتركوا في الاحتفال الذي حضره عامة قريش لتسمية حفيده النبي محمد صلى الله عليه وآله.

وفي ضجيج الاحتفال بمولد الرسول محمد بن عبد الله لم تنسَ قريش أن تسأل شيخها عبد المطلب: لم عدل عن أسماء آبائه، وسمى حفيده محمداً؟ وذلك أن الاسم لم يكن ذائعاً بين القوم، ولم يكن معروفاً عند العرب إلّا نادراً، ولم يكن من أسماء آبائه ولا قومه، قال: أردت أن يكون محموداً في الأرض، وفي السماء.

وقيل: إنه قال: إن هذا الاسم منقول من الصفة، فمحمد في اللغة هو الذي يحمد حمداً بعد حمد، فأردت أن يكون حفيدي محمد محموداً في الأرض، محموداً في السماء.

والشاعر يقول:

في النطـق ألفـاظ الكـلام كثيـرة　　وأجلُّ ما في النطق اسـم محمـدِ

يقول السهيلي: إن عبد المطلب إنما سمّى حفيده محمداً؛ لرؤيا رآها في منامه،

رأى كأن سلسلة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق وأهل المغرب يتعلّقون بها. فقصّها، فعبّرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق وأهل المغرب، ويحمده أهل السماء وأهل الأرض، فلذلك سماه محمداً.

ويقال: إنما سماه عبد المطلب محمداً بإلهامٍ من الله سبحانه وتعالى تفؤّلاً بأن يكثر حمد الخلق له، لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها. وإلى ذلك يشير حسان:

فشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وكذلك أُمه آمنة بإلهام من الله أمرت أن تسمّيه بذلك. تقول آمنة: كان يأتيني من حينٍ لآخرٍ هاتف في المنام يقول: «يا آمنة، أنت حامل بسيد هذه الأمة، فقولي حين وَضْعِهِ: أعيذه بالواحد، من شرّ كل حاسد». وسمّيه محمداً.

فرؤيا آمنة لم تكن إلّا دلالة على أن محمد بن عبد الله الذي اختارت السماء اسمه هو الذي حملت الرسالات السماوية البشارة به من قبل، ثم أوحت لأُمه في المنام بأن تدعوه بهذا الاسم؛ لأنه هو نفسه المقصود لأن يكون إنساناً ذا شأن عظيم في الحياة.

ويقال: إنما ألهمهم الله أن سموه محمداً؛ لما فيه من الصفات الحميدة، ليلتقي الاسم والفعل، ويتطابق الاسم والمسمى في الصورة والمعنى، كما قال حسان:

ألم تَر أن الله أرسل عبده   بآياته والله أعلى وأمجدُ
وشق له من اسمه ليجلَّه   فذو العرش محمود وهذا محمدُ

معنى دقيق، وغرض نبيل تنطبق عليه الصفة والموصوف؛ لحكمة نبوية في

تسمية الله نبيه بمحمد، فوافق معنى الاسم صفة المسمى به موافقة تامة.

يقول الشاعر:

إن الإلــه بنــى عليــك محبــة فــي خلقــه ومحمــداً ســماكا

ويقول عمه أبو طالب:

ألــم تعلمــوا أنــا وجــدنا محمــداً نبياً كموسى خـط فـي أول الكتـب

وقال آخر:

وما حَمَلَتْ من ناقة فـوق ظهرهـا أبــرّ وأوفــى ذمــة مــن محمــد

وعن أبي القاسم السهيلي أنه قال: إنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم ـ يعني محمداً ـ قبل النبي محمد ولا غيرهم إلّا ثلاثة نفر طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد، وبقرب زمانه، وأنه يبعث بالحجاز، أن يكون أحدهم هو المبعوث، والله يعلم حيث يجعل رسالته، وهم:

١ـ محمد بن أحيحة بن جلاح، من الأوس.

٢ـ محمد بن سفيان بن مجاشع، جد الفرزدق الشاعر.

٣ ـ محمد بن حمران بن ربيعة الجعفي.

وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك الأُوَل، وكان عنده علم من الكتب السماوية، فأخبرهم بمبعث النبي محمد بالحجاز، وبقرب زمنه وباسمه؛ مما يدل على أن اسم محمد مذكور وموجود في الكتب القديمة.

وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ولد ذَكَر أن يسمّيه محمّداً، ففعلوا ذلك.

وكان الله قد حمى كل من تسمى باسم محمد أن يدّعي النبوة أو يدّعيها له أحد، أو يظهر عليه سبب يجعل غيره يشكّك في أمره، أو يظهر عليه شيئاً من سماتها.

حتى تحقق لمحمدﷺ السمتان، لم ينازعه فيهما أحد.

وروي عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إن لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الذنوب، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي».

وزاد بعضهم على هذه الأسماء «وأنا الفاتح، وطه، ويس، وعبد الله». قال تعالى في سورة الجن: ﴿**أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ**﴾(١).

وقد جاء: «**أحب الأسماء إلى الله ما عُبِّد وحُمِّد**». فالعبد مأخوذ من التعبّد، وهو التذلّل، فسُمي المملوك من جنس ما يفعله عبداً؛ لتذلّله لمولاه.

ولما كانت العبادة أشرف الخصال، والتسمّي بها أشرف الأُمور، سمى نبيه محمد عبداً، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿**إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**﴾(٢)، ولكن أحب الأسماء ما جاء على لسان الشاعر:

وإن لـه أسـماء سـميته بهـا ... ولكنني أحببت منها محمدا

أما اسم أحمد الذي جاء على لسان نبي الله عيسىعليه السلام في الذكر الحكيم في سورة الصف في قوله: ﴿**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾(٣).

فقوله: ﴿**أَحْمَدُ**﴾ دلالة السياق في تعبير عيسىعليه السلام عنه بأحمد وعلى كونه اسماً له يعرف به عند الناس، كما كان يسمى بمحمد ظاهرة لا سترة عليها. ويدل عليه قول حسان:

(١) الجن: ١٩.

(٢) البقرة: ٢٣.

(٣) الصف: ٦.

صـــلى الإله ومن يحفّ بعرشـــه والطيبون على المـبارك أحـمد

وكذلك قول أبي طالب في بعض أشعاره:

وقـــالوا لأحمـــد أنـــت امـــرؤ خلوف اللسان ضـعيف النســبْ

ألا إن أحمـــد قـــد جـــاءهم بحـــق ولـــم يـــأتهم بالكـــذبْ

وقد سماه غير أبي طالب في أبيات بأحمد؛ مما يدل على أنه كان مشتهراً بهذا الاسم في ذلك الزمان، ومنهم كعب بن مالك، يقول:

فهـــذا نبـــي الله أحمـــد ســـبّحت صغار الحصى فـي كفـه بـالترنمِ

ومنهم ورقة بن نوفل يوم أخبرته خديجة بنزول الوحي قال:

وإن يك حقاً يـا خديجـة فـاعلمي حـــديثك إيانـــا فأحمـــد مرســـل

يقول القاضي عياض في تسمية النبيﷺ ـ محمد وأحمد ـ قال: في هذين الاسمين من بدائع آيات الله سبحانه وتعالى، وعجائب خصائصه أن الله سبحانه وتعالى حماهما أن يسمى بهما أحد من العرب وغيرهم قبل زمانه. أما أحمد الذي أتى في الكتب القديمة، وبشّرت به الأنبياء، فمنع الله بحكمته أن يتسمى به أحد غيره، ولا يُدعى به مَدْعوّ قبله؛ حتى لا يدخل لبس ولا شك على ضعيف القلب.

وكذلك اسم محمد أيضاً لم يسمع به أحد من العرب، ولا من غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد، وقد قرب إبان مولده، فسمى قوم قليل من العرب أسما أبنائهم بذلك؛ رجاء أن يكون أحدهم هو.

والفرق بين محمد وأحمد، أن محمداً من كثر حمد الناس له، وأحمد من يكون حمد الناس له أفضل من حمدهم غيره.

وجاء في (السيرة الحلبية) عن بعض فقهاء الشافعية أنه ليس في أحمد من

التعظيم مما في محمد؛ لأنه أشهر أسمائه الشريفة وأفضلها؛ ولذلك لا يكفي الإتيان به في التشهد بدل محمد. وفي ذلك يقول حسّان:

ألــم تــرَ أن الله أرســل عبــده	ببرهانــه والله أعلــى وأمجــدُ
أغـــرّ عليــه للنبــوة خـــاتم	مــن الله مــن نــور يلــوح ويشــهدُ
وضـم الإلـه اسـم النبـي إلـى اسـمه	إذا قال فـي الخمـس المـؤذن أشـهدُ
لقــد كــرّم الله النبــي محمــداً	فأكرم خلق الله فـي النـاس أحمـدُ
وشــقّ لــه مــن اســمه ليجلّــه	فذو العرش محمـودٌ وهـذا محمـدُ
نبــيٌّ أتانــا بعــد يــأسٍ وفتــرةٍ	من الرسـل والأوثـانُ فـي الأرض تعبـدُ
تعاليت رب العرش مــن كــلّ فــاحشٍ	فإيــاك نســتهدي وإيــاك نعبــدُ

رضاعه

أحسّت السيدة آمنة بعد أن وضعت وليدها أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها المبشّر بأنه سيد البشر، كما انتهت رسالة أبيه عبد الله منذ أن أودعه جنيناً في أحشائها، فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى إلى حدٍّ أثّر في صحتها.

مع أن جزءاً من رسالتها لم ينتهِ بعدُ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يبلغ معها السعي، فتُحدِّثه عن أبيه، ثم تصحبه إلى يثرب يزوران قبر فقيدهما الغالي. ومضت بضعة شهورٍ على ولادة محمد اليتيم، وآمنة ترعاه بكل جوارحها، وتحنو عليه بكل مشاعرها، حتى باتت لا تطيق مفارقته لحظة واحدة. ولكنها رغم تعلّقها به على هذا النحو قد نزلت على حكم عادات مجتمعها، وخضعت لتقاليده السائدة عندما فرضت عليها البعد عن الرضيع الحبيب، وحملها قلبها النابض بالحب والحنو على مزيد من الاحتمال والتصبّر في سبيل ما تعلم حقاً أنه أنفع لولدها وأفضل، فقد كان من عادات أشراف مكة أن يدفعوا بأبنائهم إلى مرضعات من البادية يتولين إرضاعهم وتربيتهم في سنيّ حداثتهم الأُولى في أجواء الطبيعة الفسيحة، حيث الهواء الطلق النقي حتى يمتلكوا صحة سليمة، وجسماً قوياً، ينهضون على أساسهما بأعباء الحياة القاسية التي يحياها إنسان الصحراء، من

فروسيةٍ، وركوب خيلٍ، وحمل سلاحٍ، إلى غير ذلك.

إضافة إلى أن أشراف مكة كانوا يرغبون في هذا النوع من التربية؛ لأنه يكسب الطفل اللهجة العربية الصافية، ويعوّده فصاحة اللسان، ويمرّسه بالبلاغة والبيان؛ فضلاً على أن تلك الطريقة تتيح للأُمهات المكّيات التفرّغ لأزواجهنّ، فلا يأخذ الطفل شيئاً من وقت أُمه، ولا تصرفها العناية به عن تقديم واجباتها الزوجية، فكان أشراف مكة يدفعون بأبنائهم إلى مرضعاتٍ من البادية، حتى صارت لبعض قبائلها شهرةً في ذلك.

ومن بينها قبيلة بني سعد التي كانت نساؤها يتردّدن إلى مكة ليأخذن أطفالها للرضاعة بقصد الاستفادة المادية؛ لأن الآباء والأُمهات يُحسنون الأجر، ويغدقون العطايا والهبات على المرضعات. فلم تمضِ إلّا أيام معدودات من ولادة السيدة آمنة وليدها اليتيم، حتى وفدت المراضع من بني سعد بن بكر يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش، وكانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية في جملة من خرجن لذلك.

تقول حليمة: خرجت على أتان هزيلة قمراء، ومعي زوجي يركب ناقة مسنة عجفاء، لا تكاد كلتاهما تقوى على السير وابن لي صغير أرضعه لا ننام الليل من بكائه، وما في صدري ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذّيه، حتى قدمنا مكة، وكان الأمل أن أحصل على رضيع من أهل الغنى لينفعنا بما يجود به أهله علينا، إلّا إني لم أوفق لما جئت إليه؛ لأني لم استطع الحصول على رضيع لما رأوا من ضعفي. وما بقيت امرأة قدمت معي إلّا أخذت رضيعاً من أطفال الأسر الغنية غيري، ولم يعرض عليّ إلّا محمد بن عبد الله ذلك الطفل اليتيم، وما منا امرأة إلّا وقد عرض عليها فتأباه؛ إذا قيل لها: إنه يتيم، فإنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فإذا كان

يتيماً فما عسى أن تصنع أُمّه وجده؟ فنزهده لذلك.

فلما أجمعت النساء على الانطلاق إلى البادية، قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي، ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه. فقال لي: لا عليك أن تفعلي؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلّا أني لم أجد غيره، فلما أخذته ورجعت به إلى رحلي وضعته في حجري، وناولته ثديي فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللبن، فشرب حتى رُوي، وشرب معه أخوه حتى رُوي، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا العجفاء، فإذا هي حافل باللبن، فحلب وشرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً. وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليمة، والله لقد أخذت نسمة مباركة. فقلت له: والله إني لأرجو ذلك.

فلما أصبحنا، ركبت أتاني وحملت محمداً عليها معي، فوالله لقد قطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى أن صواحبي ليقلن لي: يا بنت ذؤيب أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فقلت لهن: بلى والله، إنها لهي هي. فيقلن: والله إن لها لشأناً، ولقد قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ولا أعلم أرضاً من أراضي الله أجدب منها، ولقد أجمع الرواة أن بادية بني سعد كانت تعاني إذ ذاك سنة مجدبة؛ قد جف فيها الضرع، ويبس الزرع، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب أناس غيرنا قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب.

هكذا وبسرعة تبدّلت أحوال حليمة السعدية وعائلتها، وفتحت سبل العمل أمام زوجها، وكثرت المواشي عندهم، فشبع أولادها بعد جوع، وكسوا بعد عُري

ببركة ذلك الرضيع العظيم، وأخذ العسر يسحب أذياله عن ذلك البيت، وبدأ الفقر يلملم أطرافه عن جنباته؛ لتحلّ مكانهما الخيرات والبركات.

وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً(١).

وهذا هو السبب الذي من أجله دفع قريشاً وأشراف العرب أولادهم إلى المراضع لينشأ الطفل صحيحاً قوياً فصيح اللسان، ولقد قالﷺ لأبي بكر ـ حين قال له: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ـ : «**وما يمنعني، وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد؟**».

يقول البوصيري:

وبـدت فـي رضـاعه معجـزات	**لـيس فيهـا مـن العيـون خفـاءُ**
إذ أبتـه ليتمـه مرضـعات	**قلـن مـا فـي اليتيم عنـا غنـاءُ**
فأتتـه مـن آل سـعد فتـاة	**قـد أبتهـا لفقرهـا الرضـعاءُ**
أرضـعته لبانهـا فسـقتها	**وبنيهـا ألبـانهنّ الشـاءُ**
أصـبحت شـولاء عجافـاً وأمـس	**مـا بهـا شـائل ولا عجفـاءُ**
أخصب العيش عندها بعـد محـل	**إذ غـدا للنبـي منهـا غـذاءُ**
يا لها منّـة لقـد ضـوعف الأجـ	**ـر عليهـا مـن جنسـها والجـزاءُ**
وإذا سـخّر الإلـه أُناسـاً	**لسـعيد فـإنهم سـعداءُ**

---

(١) أي يقوى على الأكل.

كنيته

إن الكنى لم تكن لأحد من الأُمم إلّا للعرب وحدهم، فقد اختصت بها دون الأُمم الأخرى، وهي مفاخرهم، وكانت العرب إذا عظّمت إنساناً كنتّه. وكثير منهم من تغلب كنيته على اسمه مثل: أبو طالب، أبو الدرداء، أبو بكر، ومنهم من يعرف بكنيته وباسمه مثل: أبو القاسم محمد، أبو الحسن علي، أبو عبد الله الحسين. والمعروف أن الرجل يكنّى باسم ولده، والمرأة كذلك.

وإذا كنّوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل، وبناء الأمر على أن يعيش فيولد له، كما كنى النبي محمدﷺ أم المؤمنين عائشة بأم عبد الله وليس لها ولد.

وجاء في الاستيعاب أن النبيﷺ سمّى محمد بن طلحة بن عبيد الله محمداً، وكنّاه: أبا القاسم، وهو في المهد، وقالﷺ: «**تكنوا فإنه أكرم للمكني والمكنى**».

وهذه الرواية رداً على من قال: إن النبيﷺ نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته، فقالﷺ: «**تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي**».

واخرج البهيقي في السنن عن أم المؤمنين عائشة قالت: جاءت امرأة إلى رسول اللهﷺ فقالت: يا رسول الله إني قد ولدت غلاماً فسميته محمداً، وكنيته أبا القاسم، فذكروا لي إنك تكره ذلك، فقالﷺ: «**ما الذي أحلّ اسمي، وحرّم كنيتي؟**». أو «**ما الذي حرم كنيتي، وأحل اسمي؟**».

وقد يكنى الرجل باسم ابنته كنبينا محمدﷺ كان يقال له: أبو الزهراء، بالإضافة إلى أبي القاسم، وأبي الطيّب، وأبي الطاهر، وأبي إبراهيم. يقول الشاعر:

لله من قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشمِ
والصفوة الصفوة من هاشم محمد النور أبو القاسمِ

لقبه الشريف

شغلت الألقاب حيّزاً كبيراً من الاهتمام عند العرب فتفننوا في ابتكارها، وتنابزوا بها في مجالسهم الأدبية، وحلقاتهم، ولم يكتفوا بإطلاقها على الرجال والنساء وإنما توسّعوا في ذلك، فأطلقوها على الخيل والرماح والسيوف، ووضعوا لها المسميات المميزة. ومنهم من اختارها لنفسه عن رضا وطواعية، ومنهم من فرضت عليه فرضاً، أو أنعمت عليه إنعاماً من الآخرين.

ويمكن تقسيم هؤلاء الأعلام الملقبين إلى ثلاثة أقسام:

فمنهم: من عرف واشتهر بلقبه ولم يعرف باسمه الحقيقي كامرئ القيس، والنابغة، ومهلهل، وطرفة.

ومنهم: من عرف واشتهر بلقبه مضافاً إلى اسمه كمحمد الباقر وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري.

ومنهم: من عرف بلقبه كما عرف باسمه الحقيقي كالمصطفى، والمرتضى. وبعضها نزل به الذكر الحكيم تخصصاً لنبيه الكريم دون غيره فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً**﴾[1].

وكثيرة هي الحوادث والمرويات في التاريخ العربي التي تدل على تغلّب اللقب في أحيان كثيرة على الاسم الحقيقي.

---

(١) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

وبعض هذه الألقاب تنمّ عن تعظيم وتكريم لحاملها لمنزلة دينية، أو علمية، أو أخلاقية، أو سياسية وصل إليها كالصادق الأمين. فهو عند أبناء قومه الصادق الأمين بعد اقتناعهم بأنه لا أحد فيهم على شاكلته لا في القول ولا في الفعل ولا في السلوك، حتى صار هذا اللقب عَلَماً خاصاً لا يُعرف به إلّا هو، ولا ينادى به أحد غيره. وكان الناس في مكة ليس أحد عنده شيء يخشى عليه إلّا وضعه عند النبي محمد؛ لما يعلم من صدقه وأمانته؛ فهو الصادق الأمين.

صفاته

كشـــف الـــدجى بجمالـــه بلـــغ العـــلا بكمالـــه
حســـنت جميـــع فعالـــه صـــلوا عليـــه وآلـــه

هو محمد بن عبد الله، صاحب الشخصية الإنسانية الكاملة، الذي أَهَّلَهُ تكامله الإنساني لحمل أكبر وآخر رسالة سماوية إلى الأرض... هو محمد بن عبد الله الإنسان الرحيم، والرسول الكريم، هذا المخلوق الذي لم تنجب البشرية في تاريخها الطويل مثله، ولن ترهص الحياة في مقبل أيامها بنظيره، ليكون وحده الإنسان الكامل، وليبقى وحده النبي والرسول صاحب الشخصية الفريدة، العظيم في إنسانيته، المختار من البرية، والرسول المنتظر من الناس لجميع الناس.

دخل حبّه قلوب المسلمين لمجرد سماعهم بذكره الطيب، وبخصاله الحميدة، ومزاياه الجليلة التي أهّلته لأن يكون رسول الله، لا لأهل مكة فقط، ولا لأهل يثرب وحدهم، ولا لكل العرب فحسب بل إلى الناس كافة.

ربعة من الرجال لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللاصق، غصن بين غصنين، حسن القامة، مدور الهامة بين كتفيه علامة. في عينيه دعج، وفي أسنانه ثلج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، في عنقه سطع وفي لحيته كثاثة.

إن صمت علاه الوقار، وإن تكلّم سما وعلاه البهاء، سريع في مشيته، كأنما الأرض تطوى له. حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم

يتحدرن. أبهى الناس وأجلهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب، طويل السكوت، لا يتكلم من غير حاجة. طلق اللسان، قوي الجنان، إن نطق أصاب، وإن سُئِل أجاب، لا عابس ولا مفند.

ظاهر الوضاءة، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، حسن الخلق، مليح الوجه، نسيم وسيم، أبيض اللون مشرب بحمرة، أدعج العينين، أزجّ الحاجبين، مثلّج الثنايا، أزهر الجبين، أقنى الأنف، كأن عنقه إبريق فضة. أجود الناس كفاً، وأنداهم يداً، وأرحبهم صدراً، وأصدقهم لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وألزمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه. وصدق الشاعر:

لم يخلق الرحمن مثل محمد أبداً وعلمي أنه لا يخلق

ويكمل الوصف الشاعر حسان بقوله:

وأحسن منك لم ترَ قط عيني وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرأً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاءُ

وقال آخر:

ماذا يقولون في أوصافه الشعرا وكل مدح طويل فيه قد قصرا
لو قيل لو قيل في معناه ما حصرا (أعيا الورى فهمُ معناه فليس يرى
في القرب والبعد فيه غير منفحمِ)
الوجه يبدو كمثل الصبح في فلقِ والقلب من خوف مولاه على غلقِ
جل الإله الذي سواه من علقِ (فاق النبيين في خَلْقٍ وفي خُلُقِ
ولم يدانوه في علم وفي كرمِ)
إليه كل البها والحسن يفتقرُ ومن ضياه سناء البدر يفتخرُ

إن رمت علماً بمن حـارت بـه الفكـرُ (فمبلـغ العلـم فيـه أنـه بشـرُ
وأنه خير خلق الله كلهمِ)

يا واصف المصطفى والله ليس تفي لو قلت من وصـفه ديماً ولم تقفِ
له خصائص في الأكوان والصحفِ (كالزهر في ترف والبدر في شرفِ
والبحر في كرمٍ والدهر في هممِ)

كم أخجلت في السما بدراً ملاحتُهُ كم أعجزت بالندى بحراً سـماحتُهُ
كم أعيت العربَ في نطق فصاحتُهُ (كم أبرأت وصـباً باللمس راحتُهُ
وأطلقت إرباً من ربقة اللممِ)

وقال شاعر آخر:

ســارت بــأنوار علمـك السيرُ وحــدَّثَتْ عــن جلالـك السُّوَرُ
والواصــفون المحــدّثون غلــوا وبــالغوا فــي عــلاكَ واعتــذروا

وقال آخر:

والله مـــا حملـــت أنثـــى ولا وَضَـــعَتْ
مثـــل النبـــي نبـــي الرحمـــة الهـــادي
ولا مشـــى فـــوق ظهـــر الأرض مـــن أحـــدِ
أوفـــى بذمـــة جـــارٍ أو بميعـــادِ
مـــن الـــذي كـــان نـــوراً يستضـــاء بـــهِ
مبـــارك الأمـــر ذا حـــزمٍ وإرشـــادِ

وفاة آمنة

بعد أن بلغ اليتيم مقامه في البادية أقصى أجله، ورجعت به حليمة السعدية إلى البلد الحرام حيث مجد آبائه العريق، ومجد موطنه العتيق... عاد فبدّد بنوره ظِلال الكآبة التي كانت تغشى دنيا أُمه في وحدتها وترمّلها الباكر. وقد بذلت الأُم لولدها في تلك الفترة غاية ما يُرجى من عناية ورعاية، وهو وحيدها، ومناط أملها، ومعقد رجائها. فلما بدت على محمد بواكر النضج المبكّر، ورأت فيه أُمه عندما بلغ السادسة من عمره شمائل الرجل العظيم الذي طالما تمثلته ووُعدت به في رؤاها، عندئذٍ أدركت أن الأوان قد آن لكي تؤدّي واجباً مفروضاً عليها، وتحقّق رغبة طال عليها الانتظار. فحدّثت ابنها عن رحلة يقومان بها معاً إلى يثرب؛ كي يزورا قبر الحبيب الثاوي هناك وفاءً لذكراه؛ فإن وفاءها لهذا الزوج قد ظلّ ثابتاً في نفسها منذ وفاته، فهي لا تنساه ولن تنساه.

هذا أمر، والأمر الثاني أن يتعرّف صغيرها على أخوال أبيه من بني عبد النجار المقيمين بيثرب.

فهشّ الابن لفكرة السفر، وسرّه أن يصحب أُمه في زيارتها لمثوى فقيدهما، فشغلت أياماً بتجهيز راحلتها، وإعداد مؤنة الطريق، وزوّدت ناقتها بهودج من أغصان الشجر ذي مظلة تحجب الشمس عن الابن العزيز. وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال في رحلة الصيف الموسمية.

فلما أذّن المؤذّن بالرحيل، ألقت آمنة نظرة وداع على دار عرسها التي جمعتها فترة من الزمن بعبد الله بن عبد المطلب، ووضعت فيها من بعده ولدها الوحيد

محمداً، ثم عرجت نحو الحرم المكي الشـريف، وطافت بالبيت سبعاً، ودعت الله بما شاءت، وخرجت نحو القافلة ـ وكانت تتهيأ للتحرك ـ وقد علا رغاء الإبل مختلطاً بضجيج المسافرين، ودعاء المودّعين.

فمضت إليها بولدها، وركبت راحلتها، وصحبت معها جاريتها الوفية بركة أم أيمن. وسار الركب يحثّ الخُطا. فلما وصل الركب إلى يثرب أناخ رواحله في يثرب للتزود بالراحة والتمر والماء ثم يستأنف رحلته إلى الشمال، ولحقت آمنة وولدها وجاريتها في حمى بني النجار. ولم يكن يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم حتى أخذت بيد ولدها، ومضت تطوف بالبيت الذي مرض فيه أبوه، وتحج إلى القبر الذي حوى رفاته، ثم خلّت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله.

وعكفت هي على قبر الحبيب تناجيه حيناً، وتبكيه أحياناً، وطاب لها المقام شهراً كاملاً نفّست فيه عن حزنها المكبوت.

ولكنها على الرغم من العطف الذي أغدقوة عليها فقد آثرت العودة إلى مكة؛ حتى تظل قريبة من حميها عبد المطلب الذي بذل كثيراً من نفسه لأجلها، خصوصاً وأنها تعرف أنه كان لا يطيق فراق محمد. حتى إذا آن لها تمضي، ودّعت أهلها الذين صحبوها إلى ظاهر المدينة، وركبت راحلتها ـ ومعها ولدها وجاريتها ـ عائدة إلى مكة.

وفي بعض مراحل الطريق شعرت آمنة بضعف طارئ، ولما صارت بالأبواء ـ بين مكة والمدينة ـ زادت عليها الحمى، وثقل حالها، فتشبثت بوحيدها، وقد انهمرت الدموع من عينيها، فأخذ يجفف دمعها بيده، فضمته إلى صدرها وبكت وقالت:

بـــارك فيــك الله مـــن غـــلامِ   يابن الذي من حومـة الحمـامِ

نجّي بعون الملك العلامِ بمئة من إبلٍ سوامِ

تقول أسماء بنت رهم: شهدت آمنة أم النبيﷺ في علتها التي ماتت بها، ومحمد غلام يافع له من العمر ست سنين عند رأسها، فنظرت إلى وجهه وخاطبته تقول:

إن صح ما أبصرت في المنامِ فأنت مبعوث إلى الأنامِ
من عند ذي الجلال والإكرامِ تبعث في الحلّ وفي الحرام
تبعث بالتحقيق والإسلامِ دين أبيك البرّ إبراهام
فالله أنهاك عن الأصنامِ ألّا تواليها مع الأقوامِ

ثم قالت: يا بني كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكري باقٍ، فقد تركت خيراً، وولدت طهراً. ثم انقطع نفسها، وفارقت روحها الدنيا.

ماتت أم محمد، نعم داهم الموت تلك الأم الطاهرة دون سابق نذير إلّا حمى الموت في أيام لا تصل إلى أصابع اليد عدّاً، فصار محمد بين عشية وضحاها يتيم الأبوين، وكان محمد يوم موت أمه قد بلغ سن السادسة، وهي السن التي يبدأ فيها أول الوعي عند الولد.

فقد عاش عند أمه بعد أن جاء من بني سعد سنة ذاق فيها من حنانها، وارتوى من عطفها ما قد يفوق حنان الأُمهات خلال أعوام. لقد كانت آمنة لابنها مثابة الظل، لا ترغب في مفارقته أبداً، إن خرج من البيت أرسلت أم أيمن تجيء به، وإن جلس ليأكل أطعمته بيدها، وإن عطش سقته بجوارحها، ينام فتحتويه في حجرها قبل أن تؤويه إلى فراشها، ثم تستلقي بجانبه تحضنه الليل كله. وكان

محمدﷺ رغم حداثة سنه يدرك مقدار تعلق أمه به، فيدفعه تفتّحه وذلك التعلق إلى التعلق بها أيضاً. وها هي الآن تغيب عنه إلى يوم البعث.

فلما رأى كيف توارت في جدث الرحمة، وأوشك الثرى أن يغيبها، ارتمى فوق قبرها والهاً ملتهب الفؤاد، وملتاع النفس، جريح القلب، يبكي عليها وهو يعرف أن بكاءه لا ينفع، وأن حزنه لا يجدي، فقد أخذ الموت أمه وهو في هذا السن المبكر. طواها الثرى قبل أن يستكمل وليدها الوحيد عامه السابع، ودفنت بالأبواء في المكان المعروف بشعب أبي ذر، وهو موضع من أعمال الفرع بين مكة والمدينة، وكان عمرها يوم توفّيت عشرين عاماً. وهذا المكان الذي توفيت فيه هو المحل الذي وُلد فيه الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام وسمي الأبواء لتبوّؤ السيول بها.

وفي رواية أن قبر آمنة بمقبرة المعلى بمكة المكرمة، ففيها من القبور التاريخية ما تطأطئ لها الرؤوس خشوعاً وخضوعاً؛ فهناك ضريح السيدة خديجة أم المؤمنين، وقبر مؤمن قريش أبو طالب عم رسول الله وكافله، ووالد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وجده الشيخ عبد المطلب بن هاشم، ولحد أسماء بنت أبي بكر، ومدفن عبد الله بن الزبير، وضريح عبد مناف جد النبيﷺ. إلّا إن أكثر أهل الروايات قالوا: إنها مدفونة بالأبواء.

قال السهلي في (الروض الأُنف): إن قوماً ممن آمنوا بابن السيدة آمنة، زاروا قبر آمنة بالأبواء بعد أعوام من وفاتها، فخيل لهم أن الجن تنوح عليها منشدة:

نبكـــي الفتـــاةَ البـــرةَ الأمينـــه — ذاتَ الجمـــال العَفَّـــةَ الرزينـــه
زوجـــةَ عبـــد الله والقرينـــه — أمَّ نبـــــي الله ذي الســـــكينه
وصـــاحب المنبـــر بالمدينـــه — صـــارت لـــذي حفرتهـــا رهينـــه

لوفـــديت لفـــديت ثمينـــه　　　وللمنايـــا شـــفرة ســـنينه

لا ظـــاعن تبقـــي ولا ظعينـــه　　　إلا أتـــت وقطعـــت وتينـــه

وعاد محمد بن عبد الله إلى مكة وحيداً بلا أبٍ ولا أمٍ، حزين القلب، قد رأى بعينيه مشهد الموت في أعزّ حبيب له، تصحبه الجارية الحبشية أم أيمن، البرة الوفية، وهي تحنو عليه حنوّ الأم على ولدها الوحيد، وتحاول أن تخفف عنه آلامه.

إيمان أبويه

اتفق الإمامية على أن آباء رسول الله صلى الله عليه وآله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عزّ وجل، موحدون له. واحتجوا على ذلك بالقرآن والأخبار، قال تعالى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾[1].

وفي الحديث: «**لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما**». وفي ذلك يقول الشاعر:

تنقل أحمدٌ نوراً عظيماً ... تلألأ في جبين الساجدينا

تنقل فيهمُ قرناً فقرناً ... إلى أن جاء خير المرسلينا

فالكافر لا يوصف بأنه طاهر أو طيب، وأنه من الساجدين؛ فهذا دليل على طهارة آبائه وأمهاته من الكفر.

جاء في كتاب (تحفة الطالب) عن (معاني الأخبار) عن الصحابي أنس بن مالك قال: أتى أبو ذر يوماً إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، فقال: ما رأيتم كما رأيت البارحة. قالوا: وما رأيت البارحة؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله ببابه، فخرج ليلاً، فأخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام وخرجا إلى البقيع، فما زلت أقفو أثرهما إلى أن أتيا مقابر مكة، فعدل إلى قبر أبيه فصلى عنده ركعتين، فإذا بالقبر قد انشق، وإذا بعبد الله جالس، وهو يقول: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله**». قال له: «**من وليك يا أبة؟**». فقال: «**وما الولي يا بني؟**». قال: «**هذا علي بن أبي طالب**».

---

(١) الشعراء: ٢١٩.

فقال: «**وأن علياً وليي**». قال: «**فارجع إلى روضتك**».

ثم عدل إلى قبر آمنة، فصنع كما صنع عند قبر أبيه عبد الله، فإذا بالقبر قد انشقّ، وإذا بآمنة جالسة، وهي تقول: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله**». فقال لها: «**من وليك يا أماه؟**». فقالت: «**وما الولي يا بني؟**». قال: «**هو هذا علي بن أبي طالب**» فقالت: «**وأن علياً وليي**». قال: «**فارجعي إلى روضتك**».

فكذبوه ولببوه، وأخذوه إلى رسول الله، وقالوا: يا رسول الله، إن جندب كذب عليك اليوم. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**وما كان من ذلك؟**». فقالوا: إنه حكى عنك كيت وكيت. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر**». وفي ذلك يقول محمد بن ناصر الدمشقي:

حبا الله النبي فزيد فضلاً … على فضل وكان به رؤوفا

فأحيا أمه وكذا أباه … لإيمان به فضلاً منيفا

فسلم فالقديم بذا قدير … وإن كان الحديث به ضعيفا

وجاء في شرح الهمزية: إن الحديث غير ضعيف، بل صحّحه غير واحد من الحفّاظ، ولم يلتفتوا للطعن فيه، وعلى ذلك قول بعضهم:

أيقنت أن أبا النبي وأمه … أحياهما الرب الكريم الباري

حتى له شهدا بصدق رسالة … صدق فتلك كرامة المختارِ

هذا الحديث ومن يقول بضعفه … فهو الضعيف عن الحقيقة عارِ

وقال القرطبي في (التذكرة): إن فضائل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وخصائصه لم تزل تتوالى وتتتابع إلى حين مماته، فيكون إحياؤهما مما فضله الله به وأكرمه. ولا يرد ذلك إجماع ولا قرآن، وليس إحياؤهما وإيمانهما بممتنع عقلاً ولا شرعاً. وجاء في (السيرة الحلبية)، وعن ابن هشام عن القرطبي في كتابه (التذكرة) أنه روي عن السيدة

عائشة أنها قالت: حج بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حجة الوداع، فلما صرنا في الأبواء ظهرت عليه بوادر الحزن والأسى، وفاضت دموعه، وبكى وبكيت لبكائه، فقال لي: «**يا حميراء استمسكي**». فاستندت إلى جانب البعير، وغاب عني طويلاً، ثم عاد إليّ وهو فرح، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ذهبت من عندي وأنت باكٍ حزين، وعدت إليَّ وأنت فرح مبتسم؟ فقال: «**استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، ثم سألته أن يحييها فأحياها فآمنت بي، فردها الله إلى قبرها**».

وجاء في (دلائل النبوة) من طريق الزهري: تقول أسماء بنت رهم: شهدت آمنة أم النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في علتها التي ماتت بها، ومحمد غلام يافع له خمس سنين عند رأسها، فنظرتْ إلى وجهه وجعلتْ تقول:

إن صحّ ما أبصرت في المنامِ ... فأنت مبعوث إلى الأنامِ
تبعث في الحل وفي الحرامِ ... دين أبيك البر إبراهامِ
فالله أنهاك عن الأصنامِ ... ألّا تواليها مع الأقوامِ

يقول الزرقاني في (شرح المواهب) ـ عن الجلال السيوطي بعد ذكره هذه الأبيات ـ: هذا القول منها صريح في أنها موحّدة؛ إذ ذكرت دين إبراهيم، وبعثة ابنها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بإسلام من عند الله، ونهيه عن الأصنام وموالاتها.

وهل التوحيد شيء غير هذا؟ فإن التوحيد هو الاعتراف بالله وأُلوهيته، وأنه لا شريك له، والبراءة من عبادة الأصنام ونحوها.أما أبوه عبد الله، فنقل عنه كلمات وأشعار تدل على توحيده أيضاً، كقوله حين عرضت المرأة نفسها عليه، وبذلت له مثل ما فدي به من الإبل، فأجابها يقول:

أما الحرام فالممات دونَـهُ ... والحل لا حل فأستبينَهُ
فكيف بالأمر الذي تعنينَهُ ... يحمي الكريم عرضه ودينَهُ

عبد المطلب يكفل محمداً

آب محمداً من زيارة أخوال أبيه من بني عدي بن النجار في المدينة إلى مكة المكرمة وحيداً يتيماً بلا أب يرحمه، ولا أم ترأمه، ليس معه إلّا أم أيمن، تلك الجارية الحبشية التي خلفها له أبوه عبد الله، وعاشت مع أمه، فآبت به بعد موت أمه إلى جده عبد المطلب.

الله من عوادي الأيام ما أقساها! وما أشد وقعها حين تنقضّ على صبي في السادسة من عمره، فتسلبه أمه بعد أن كانت سلبته أباه قبل ولادته! ويزيد هذا الحدث وقعاً عندما يفارق الصبي تلك الأم وهو في غربة بعيداً عن الأهل والأقارب. وهكذا وجمت رياض مكة وهي تشهد الصبي الحزين الذي غادرها مع أمه منذ شهر بادي الغبطة والتهلل والإشراق، يعود إليها اليوم وحيداً مضاعف اليتم قد ذاق الحزن المر، بعد أن رأى بعينيه مشهد الموت في أعز من بقي له.

وصل محمد إلى مكة برفقة أم أيمن، فانتشر نبأ موت آمنة أم النبيﷺ، فوقع الخبر على جدّ محمد عبد المطلب كالصاعقة، فيصدعه في كثير من آماله، ويغوص في نهر جارٍ من الدموع والآلام، حتى تكاد روحه تفارق جسده لو لم يكن حفيده محمد بين ذراعيه. لقد آلم موت آمنة حَماها عبد المطلب، وشقّ عليه يتم محمد لأبويه، فاحتضنه في كنفه، وجعله تحت رعايته، وبذل في سبيله كل ما يستطيع، فكان له الجدّ والأب والأم.. لقد تلقّاه جده عبد المطلب بعد وفاة أُمه آمنة، وضمّه إليه، مسبغاً عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده حمزة.

وتتوفر لهذا اليتيم أسباب الحنان من جده الرؤوف العطوف، ومن زوجة جده هالة التي كانت ابنت عم آمنة المتوفاة؛ ولذا فقد كانت ترعى محمداً خير رعاية، وتحرص عليه كل الحرص، فلا تعتبره دخيلاً على بيتها، بل تنزله منزلة ابنها حمزة الذي هو في مثل سنه تماماً دون تميز.

وهكذا يحصل هذا اليتيم على هذا الجو المشبع بالحنان في تلك البيئة الصالحة، فلا يشعر باليتم يقهره، ولا بفقد الوالدين يرهقه في ظل ذلك الجد الذي هو فذّ في الأجداد، والذي بذل له كل ما في وسعه حتى يبعده عن مرارة اليتم وقساوته، وعمل كل ما قدر عليه حتى يعوّضه فقدان الأب والأم. وقد زاد في محبة عبد المطلب لحفيده محمد ما كاد يظهر عليه من علامات النبوغ والذكاء اللذين ينفرد بهما من بين كل أترابه.

وكان كلما كبر وترعرع ازدادت صفاته وضوحاً، وزاد تعلّق جده به، وكان يفرض عليه وعلى كل من يراه محبته؛ لما يجد فيه من معانٍ وأسرار تجذبه إليه، وتميزه عن سائر الأطفال. فكان لا يستطيع فراقه، فوقع أن أرسله يوماً في طلب إبل له ضلت، فأبطأ عليه، وكان من عادته أنه لا يبعث به في حاجة إلّا نجح. يقول ابن حيدة بن معاوية: حججت في الجاهلية، فبينما أنا أطوف بالكعبة وإذا أنا بشيخ عظيم الشكل طويل القامة متعلق بأستار الكعبة وهو يقول:

يا رب ردّ راكبي محمدا ... ردَّ إليّ واتخذ عندي يدا

أنت الذي جعلته لي عضدا ... لم يبعد الدهر به فيبعدا

أنت الذي سميته محمدا

فسألت عنه، فقيل لي: هذا سيد قريش، وشيخ مكة عبد المطلب بن هاشم، كانت له إبل كثيرة، فإذا ضل منها شيء بعث بنيه يطلبونها، فإذا أبطؤوا عليه بعث

ابن ابنه محمداً، وكان لم يبعثه في حاجة أعيا فيها بنوه إلّا نجح. وقد أبطأ عليه هذه المرّة فها هو يدعو الله بسلامته.

يقول: فما برحت من مكاني حتى جاء بالإبل، فضمّه جدّه إلى صدره، وقال: والله لقد حزنت عليك، فلا أبعثك في حاجة بعد اليوم.

وكان يقرّبه منه، ويدنيه إليه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام في فراشه، ولا يأكل طعاماً إلّا قال: عليَّ بابني. فلا يأكل حتى يؤتى به إليه.

وكان يقول لأم أيمن ـ وكانت تحضن محمداً في تلك المرحلة من حياته ـ: يا بركة لا تغفلي عن ابني محمد، فوالله إن له لشأناً، وإن أهل الكتاب يقولون: إن ابني هذا نبي هذه الأمة.

هكذا كان يوصيها به مع العلم أنه كان يعرف مقدار حبها له، وأنها الجارية الحبشية التي خلفها أبوه عبد الله، وعاشت مع أمه ثم آبت به إلى جده بعد موت تلك الأم، وقد أبقاها عبد المطلب؛ كيلا يشعر حفيده بفقدان كل من كان حوله، فكانت له خير حاضنة، وخير عاطفة، وخير راعية.

كان يطلب منها أن تظل دائماً ساهرة عليه، واعية منتبهة من حبه له، كما يقول ابن إسحاق: كان عبد المطلب معظماً في قريش، وكانوا يفرشون له في الحجر بظل الكعبة مفرشاً لا يجلس عليه أحد منهم غيره إجلالاً واحتراماً له، وتأتي بنوه يتحلّقون حوله، وتجتمع حوله رؤساء قريش وعظماء مكة وأشراف بني عبد مناف، فيجلسون حوله دون المفرش. وكان النبيﷺ حينها غلاماً صغيراً لم يبلغ الحلم، فيأتي ويزاحم الناس حتى يدخل ويجلس على الفراش إلى جنب جده عبد المطلب، وربما جاء قبل جده فيجلس على الفراش فيمنعه أعمامه، فيقول لهم عبد المطلب: دعوه يجلس عليه؛ فإنه يحس من نفسه بشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف

ما لا يبلغه عربي قبله ولا بعده. ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح على ظهره، ويسرّه ما يراه يصنع، ويقول: والله إن له لشأناً. فكانوا بعد ذلك لا يمنعونه، حضر عبد المطلب أو غاب.

وفاة عبد المطلب

عاش محمد مع جده عبد المطلب بعد وفاة أُمه آمنة ثماني سنين وشهرين وعشـرة أيام، ومات عبد المطلب في اليوم العاشر من شهر ربيع الأول عام أربعين قبل الهجرة النبوية، ودُفن بالحجون عند جده قصي، وعمره خمس وتسعون سنة، وقيل: أكثر، والله أعلم.

إذن لما اشتد المرض بعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعرف أنه قد دنا أجله المحتوم دعا بأولاده العشرة ـ وكان يعرفهم حق المعرفة ـ فلما اجتمعوا وزّع المناصب عليهم، ثم التفت إليهم يوصيهم ويقول: يا بني عبد المطلب، لقد خلّفت لكم الشـرف العظيم الذي تطؤون به رقاب الناس، وهذا ابن أخيكم محمد قد مات أبوه عبد الله وأمه آمنة، فلا يَضِعْ بينكم؛ فالمرء يحفظ في ولده.

ثم اختار من بينهم ابنه عبد مناف المكنى بأبي طالب والد الإمام علي بن أبي طالب ـ وكان أحبهم إليه بعد عبد الله الذي مات شاباً دون العشرين ـ فعهد إليه رعاية ابن أخيه محمد، وأكّد عليه الوصية.

وكان أبو طالب ـ لنبله، وشدة كرمه، وسامي صفاته ـ قد حرّم الخمرة على نفسه في الجاهلية كأبيه عبد المطلب؛ ولذلك فقد تخيره أبوه دون أبنائه الآخرين، ودفع إليه الرفادة، وأوصاه بأن يكفل ابن أخيه محمداً بعد موته على الرغم من قلة ذات يده وكثرة عدد أبنائه؛ فقد رأى أنه أحق به من أعمامه الآخرين. وأنشد يقول:

أوصـيت مـن كنيتـه بطالـبِ   بابن الذي قد غاب غيـر أيـبِ

وكان أبو طالب وعبد الله والد رسول اللهصَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أخوين شقيقين أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ، من بني مخزوم، وكان يُعرف بشيخ البطحاء، ومؤمن قريش، وكان قد ورث المآثر والمكارم من أبيه عبد المطلب بن هاشم، وعبد المطلب أخذها من أبيه هاشم بن عبد مناف الذي أطعم الناس في سغبهم وجوعهم. وهاشم أخذها من أبيه عبد مناف بن قصـي الذي كان أعفّ الناس لساناً وأعلاهم بياناً، وأقواهم جناناً. وعبد مناف أخذها من أبيه قصي بن كلاب صاحب البيت واللواء، وسادن الحرم، ومعزّ الجوار.

رُوي أن أبا طالب دخل يوماً على أبيه عبد المطلب ـ وهو على فراش الموت ـ فوجده يبكي، فانكبّ عليه أبو طالب يقبله ويبكي، وقال له: أتبكي يا أبه، وأنت شيخ كبير، وسيد قريش وزعيمها؟ لقد عرفتك يا أبتي شجاعاً تستقبل الأحداث بعزم وثبات، فماذا يبكيك؟ فقال عبد المطلب: أرى أني لاحق بربي، وأخاف على هذا اليتيم أن يضيع بعدي. فقال أبو طالب: يا أبتي، إن محمداً هذا وَلَدي؛ لأنه ابن أخي عبد الله، وعبد الله أعز إخواني عليَّ، وأحبهم إلى نفسي، فكيف تخاف عليه؟ أنا سأفديه بروحي، وبكل عزيز عليَّ، فَقُرَّ عيناً يا أبتي. فقال عبد المطلب: أوصيك بعد وفاتي أن تأخذ محمداً إلى دارك، وتضمه إلى أولادك، وتخصه بالرحمة والحنان، ولا تبخل عليه بالبر والعطف، وأن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشمَّ رائحة أبيه، ولم يذق شفقة أمه، وكن له جداً وعماً، وأباً وأماً، انصره بلسانك، ودافع عنه بيدك، واعلم أنه سيكون لابني هذا شأن كبير، وأمر جليل، وينال من الشرف والرفعة ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده. فاحفظه يا بني، ولا تدع مكروهاً يصل إليه، وإذا تعرّضت له قريش وعادَتْه فدافع عنه، وكن له الدرع الواقي

والحصن المنيع، وإن حارَبَتْهُ قريش فكن له نصيراً ومعيناً، وإياك أن تتخلّى عنه أو تسلّمه إلى أعدائه، ولو قُتِلْتُمْ جميعاً في سبيل ذلك. ثم أنشد يقول:

أوصيك يا عبد مناف بعدي ... بمؤتم بعد أبيه فردِ
مات أبوه وهو حلف المهدِ ... حافظ عليه لا يضام بعدي

ثم فاضت روحه الزكية، وعادت إلى خالقها، وصعدت إلى عالمها ـ وقيل عمره مئة وأربعون سنة ـ بعد واقعة الفيل بثماني سنين، وقبل حلف الفجّار. ودُفِنَ بالحجون مع جدّه قصي بن كلاب.

فلما نظر إليه محمدﷺ وهو يسلم الروح صرخ بأعلى صوته: «**جداه جداه! لا ترحل عنّي**». وارتمى فوق الجثة المسجاة باكياً دامع العين.

وتمشي قافلة التشييع، ومحمدٌ في ركبها وراء النعش يبكي. تقول أم أيمن: رأيت رسول الله يومئذٍ يبكي خلف سرير جده عبد المطلب، وكان عمره يوم وفاة جده ثماني سنين. ولئن كان موت عبد المطلب قد آذى حفيده في صميمه فإن هذا الموت لم يكن أقل إيذاء لأهل مكة، فقد آذى موت هذا الرجل السيد الذي كان يجمع مناصب ومفاخر الكعبة جميع الناس، فبكاه الناس كثيراً، حتى قال بعضهم: لم يبكِ أحد على أحد بعد موته كما بُكي على عبد المطلب، ولم يقم لموته سوق بمكة أياماً كثيرة.

وتولى أبو طالب رعاية محمد بعد وفاة أبيه عبد المطلب، وحفظ العهد، ورعى ابن أخيه ووصية أبيه رعاية تليق برجولته، وبأرومته، وبعظمته وسجاياه. وأصبح محمد يعيش في دار عمه أبي طالب، الذي كان ـ كما عرفنا ـ يلي أمره بعد موت جده عبد المطلب، وكان إليه ومعه يقول:

وما زلت في ليني له وتعطفي ... عليه كما تحنو على الولد الأم

مآثر عبد المطلب

كان لعبد المطلب رئيس قريش وزعيمها المعروف مواقف بارزة، وأعمال عظيمة في حياته. وحيث إن ما وقع من الحوادث في أيّامه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإسلام كان من المتعين دراسة بعض تلك الحوادث والوقائع لرئيس قريش وزعيمها عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف؛ لأن حياته صفحات مشرفة مشرقة عظيمة، وسطور لامعة تنبئ عن نفسيته القوية المؤمنة بالله ورسوله، وشخصيته الشامخة.

لقد كانت تؤثر عنه سنن جاء الذكر الحكيم بأكثرها، وجاءت السنة النبوية الشريفة بها، منها الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنى، وألّا يطوف بالبيت عريان، وكان يكرم الجار، ويرعى الذمام، ويفي بالعقود، ولا يتأخر عن نصرة ضعيف، ولا يهادن ظالماً؛ حتى بات الكل يحبونه ويخشونه في آنٍ واحدٍ.

جاء في (السيرة الحلبية) أنه كان لعبد المطلب نديم يدعى حرب بن أمية بن عبد شمس والد أبي سفيان، وكان جار عبد المطلب رجل يهودي، فأغلظ ذلك اليهودي القول على حرب بن أمية في سوق من أسواق تهامة، فأغرى عليه حرب من قتله، فلما علم عبد المطلب بذلك، ترك منادمة حرب، وجعل يطالبه بدية اليهودي، ولم يفارقه حتى أخذ منه الدية مئة ناقة، ودفعها لابن عم اليهودي.

وهذه القصة تكشف عن حب عبد المطلب للمستضعفين، وحبه للحق

والعدل، وتطبيق حق الجوار. وها نحن نقرأ عنه أنه كان يقول: والله، لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى يُنتقم منه وتصيبه عقوبة، فإذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة، فهي معدّة له في الآخرة.

وكان أول من حفر زمزم بعد أن كانت قد رُدمت على عهد جرهم لما غلبهم بنو بكر وغبشان، فنفوهم عن مكة، واستخرج منها غزالين من ذهب عليهما الدر والجواهر وغير ذلك من الحلي، وسبعة أسياف قلعية، وسبعة أدرع سوابغ وهي سيوف ودروع كان مضاض الجرهمي قد خبأها في قعر هذه البئر، فضرب الأسياف وجعلها باباً للكعبة، وضرب تمثالي الغزالين حلية للبيت الحرام، فكان أول ذهب حليت به الكعبة، وفي ذلك يقول:

أعطي بلا شــح ولا مشــاحِ ... سقياً على رغم العدو الكاشحِ
بعد كنوز الحلي والصــفائحِ ... حلياً لبيت الله ذي المســارحِ

وأكبرت قريش ذلك وامتدحت عمل عبد المطلب في مجالسها.

كما أنه أول من سقى الماء بمكة عذباً، وأقام السقاية والرفادة للحاج، ولما سقى زمزم ترك السقي في الحياض، وسقى الناس من زمزم سقياً من الله، وفي ذلك يقول:

فــأبلغ لــديك بنــي هاشــم ... بمــا قــد فعلنــا ولــم نــؤمر
أقمنا لنسـقي حجـيج الحـرام ... إذا تــرك المجــد لــم يــؤثر
نســوق الحجــيج لأبياتنــا ... كـــأنهم بقـــر تحشـــر

وروي عن النبي محمدﷺ أنه قال: «إن جدي عبد المطلب سَنَّ في الجاهلية خمس سنن أجراها الله عزّ وجل في الإسلام:

الأولى: حرّم نساء الآباء على الأبناء، فقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً﴾(١).

الثانية: وجد كنزاً فأخرج خُمْسَهُ، وتصدّق به، فقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِّ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِّ﴾(٢).

الثالثة: لما حفر بئر زمزم سماها سقاية الحاج، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٣).

الرابعة: كانت الدية في الجاهلية قبل عبد المطلب عشراً من الإبل، وعبد المطلب أول من سن الدية مئة من الإبل، فجرت في قريش وفي العرب مئة من الإبل، وأقرّها الإسلام على ما كانت عليه بأمر من الله عزّ وجلّ.

الخامسة: لم يكن للطواف بالكعبة المكرمة عدد معين عند قريش حول الكعبة المشـرفة، فسنّ فيهم عبد المطلب سبعة أشواط، فأجرى الله سبحانه وتعالى ذلك في الإسلام».

---

(١) النساء: ٢٢.

(٢) الأنفال: ٤١.

(٣) التوبة: ١٩.

أولاد عبد المطلب

مات عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ـ شيبة الحمد، ومفزع قريش في النوائب، وملجؤهم في الأُمور ـ وهو شريف قريش وسيدها. وكان قد بلغ في قريش والعرب جميعاً منزلة لم يبلغها أحد، فقد كان ذكره يملأ صحراء العرب من شماليّها إلى جنوبيها شذاً وعبيراً.

مات عن عمر ناهز المئة والأربعين عاماً، وخلّف من الأبناء عشرة، وست نسوة:

الأول: الحارث، وهو بكر أبيه وبه كان يكنّى، وهو المساعد الأيمن لأبيه عبد المطلب عند حفره بئر زمزم. أمه سمراء بنت جندب بن جحير.

الثاني: العباس بن عبد المطلب، ويكنّى أبا طاهر. كان رئيساً في قريش، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج. شهد يوم حنين، وإليه تنسب دولة بني العباس. توفي عام ٣٢ من الهجرة، ودفن بالبقيع. أمه نثيلة ابنة جناب بن كليب بن مالك، وله من الأبناء تسعة من الذكور أكبرهم عبد الله بن العباس حبر الأمة، وكان رجلاً عاقلاً فقيهاً، وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد دعا له النبيﷺ، فقال: «**اللهم فَقِّهْهُ في الدين، وعلّمه التأويل**». وعاش ابن عباس يملأ دنياه علماً وحكمةً، وينشر بين الناس عبيره وتقواه. وفي عامه الحادي والسبعين دُعي للقاء ربه بعد أن كف بصره من البكاء على الإمام علي وولديه الحسن والحسين، وفي ذلك يقول:

إن يأخذ الله من عَيْنَيَّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكي وعقلي غير مدّخل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثورُ

الثالث: الزبير بن عبد المطلب، وهو صاحب حلف الفضول الذي عقد بمكة لنصرة المظلوم، قال فيه الزبير:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالمُ
أمرٌ عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر فيهم سالمُ

وقد شارك رسول الله ﷺ في هذا الحلف الذي ضمن حقوق المظلومين وحياتهم. وقد نقلت عنه عبارات كثيرة يشيد فيها بذلك الحلف، ويعتز فيها بمشاركته فيه. قال ﷺ: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت**». والزبير هذا كان يرقّص رسول الله، وهو طفل صغير ويقول:

محمد بن عبدم ... عشت بعيش أنعمِ
في دولة ومغنمِ ... دام سجيس الأزلمِ

أمّا أمه فهي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

الرابع: حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة، وأم كل منهما ابنة عم لأم الآخر. ويعد من أوائل المسلمين. وسبب إيمانه أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ وهو عند الصفا، فشتمه ونال منه، ولما رجع حمزة من قنصه قالت له زوجته: لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام، لقد شتمه وآذاه، وبلغ منه ما يكره.

فغضب الحمزةَ ومدّ يده إلى قوسه وثبتها على كتفه، وخرج مسرعاً إلى الكعبة

في طلبه، فوجده في المسجد بين نفر من سادات قريش، فأقبل نحوه، واستلَّ قوسه، وضربه على رأسه فشجه وأدماه، وقال: أتشتم محمداً، وأنا على دينه؟ فقام جماعة من بني مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال: دعوا أبا عمارة؛ فإني قد شتمت ابن أخيه وأهنته.

وعاد حمزة إلى النبيﷺ وقال: يابن أخي، أظهر دينك؛ فوالله ما أحب أنّ لي ما أظلّته السماء، وأني على ديني الأول. فكان يسمى أسد الله وأسد رسوله.

وقد شهد بدراً وأحداً، ومات شهيداً بواقعة أحد. وأمه هالة ابنة أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن كعب بن لؤي.

الخامس: المقوم بن عبد المطلب، ويلقب بالغيداق ـ لكثرة خيره، وسعة ماله ـ وقيل: اسمه نوفل. مات ولم يعقّب إلّا بنتاً واحدة اسمها هند. أمه هالة ابنة وهيب بن عبد مناف بن زهرة.

السادس: حجل ـ بتقديم الحاء ـ وقيل: جحل ـ بتقديم الجيم ـ وقيل: اسمه المغيرة والحجل لقب له. وأمه أيضاً هالة ابنة وهيب بن عبد مناف بن زهرة.

السابع: ضرار بن عبد المطلب. أمه نثيلة ابنة جناب بن كليب.

الثامن: عبد العزى بن عبد المطلب، كناه أبوه عبد المطلب بأبي لهب؛ لحسن وجهه، ونضارة لونه. كان وجهه وجبينه ووجنتاه تشرق كأنها لهيب النار. وكان شديد العداوة للنبي محمدﷺ، مصرّاً في تكذيبه، مبالغاً في إيذائه بما يستطيعه من قول وفعل.

ولما أجمع بنو هاشم ـ بقيادة أبي طالب ـ على حماية الرسولﷺ ـ ولو لم يكونوا على دينه؛ تلبية لدافع العصبية القبلية ـ خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشاً. وكان مع قريش في الصحيفة التي كتبوها لمقاطعة بني هاشم وتجويعهم؛

كي يسلموا لهم محمداً. ومضى هو وزوجته أم جميل ـ أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان عمة معاوية ـ يثيرانها حرباً شعواء على النبي محمدﷺ، وعلى الدعوة الإسلامية.

وكان بيت أبي لهب قريباً من بيت رسول اللهﷺ، فكانت أم جميل تجمع الشوك في النهار، وتضعه ليلاً في طريق محمدﷺ لتؤذيه، فنزلت سورة المسد ترد على هذه الحرب القذرة المعلنة من أبي لهب وامرأته: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾[1].

وذعرت أم جميل، وجن جنونها ـ خصوصاً لما انتشرت هذه السورة وما تحمل من تهديد ومذمة وتصوير يثير السخرية لأم جميل وزوجها ـ وخيّل لها أن رسول اللهﷺ يهجوها بالشعر، فعمدت هي تقرض الشعر لتذمه به، وتسميه مذمماً، لا محمداً، فتقول:

مذمماً قلينا ودينه أبينا
وأمره عصينا

وأخذت بيدها فهراً من الحجر، وأقبلت تطلب رسول الله، فدخلت الحرم ـ وكان رسول اللهﷺ جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر ـ فأقبلت إليه، فأخذ الله ببصرها فلم ترَ النبيﷺ، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك محمد؟ قد بلغني أنه يهجوني، فواللات والعزى، لو وجدته لضربت بهذا الفهر. يقول البصيري:

وأعدّت حمالة الحطب الفهـ ـر وجاءت كأنها الورقاءُ

---

(١) المسد: ١ـ ٥.

ثم جاءت غضبى تقول أفي مثـ ـلي من أحمد يقال الهجاءُ
وتولت وما رأته ومن أيـ ـن ترى الشمسَ مقلةٌ عمياءُ

التاسع: عبد مناف بن عبد المطلب. وقيل: اسمه كنيته أبو طالب، ولقبه الكفيل، وذو الكفل. والد الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنينعليه السلام. كفل رسول اللهﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب، فقام هذا العم بحضانته ورعايته خير قيام، ومات مؤمن قريش وعمر النبي محمد تسع وأربعون سنة، وثمانية شهور وأيام. وله من الأبناء أربعة: طالب وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى، وعقيل والد مسلم بن عقيل شهيد الكوفة، وجعفر والد عبد الله بن جعفر، والإمام علي والد الحسن والحسينعليهم السلام. وبين كل واحد منهم وبين الآخر عشر سنين، وأمه فاطمة ابنة عمرو بن عائذ بن عمران.

العاشر: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. والد الرسول المصطفى، وهو الذبيح الثاني المفدى بمئة من الإبل، والذي غاله الموت وهو بين أخواله بني النجار بيثرب، ودفن هناك على أرجح الأقوال، ولم يقبل فيه هذه المرة فداء. ووجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً، ولبست مكة كلها ثوب الحداد على فتاها الذي غالته يد المنون غريباً ولما ينزع عنه ثوب العرس. وأمه فاطمة ابنة عمرو بن عائذ بن عمران.

وست نسوة هن:

أولاهن: أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب. أمها فاطمة ابنة عمرو بن عائذ ابن عمران. لها قصيدة في رثاء أبيها عبد المطلب، منها:

إلا يا عين جودي واستهلّي وبكّي ذا الندى والمكرماتِ
وبكّي خير من ركب المطايا كريم الخيم محمود الهباتِ

الثانية: عاتكة ابنة عبد المطلب. أمها أيضاً فاطمة ابنة عمرو بن عائذ بن عمران. لها قصيدة في رثاء أبيها عبد المطلب:

أعينـــيَّ جـــودا ولا تـــبخلا بـــدمعكما بعـــد نـــوم النيـــامِ
على شيبة الحمـد واري الزنـادِ كـريم المسـاعي وفـيَّ الـذمامِ

الثالثة: أميمة ابنة عبد المطلب. أمها أيضاً فاطمة ابنة عمرو بن عائذ بن عمران. لها قصيدة في رثاء أبيها عبد المطلب:

ألا هلك الراعي العشـــيرةَ ذو الفقدِ وساقي الحجيج والمحامي عن المجدِ
ومن يؤلف الضـــيف الغريب بيوته إذا ما ســـماء الناس تبخل بالرعدِ

الرابعة: أروى ابنة عبد المطلب، وأمها أيضاً فاطمة ابنة عمرو بن عائذ بن عمران. لها قصيدة في رثاء أبيها عبد المطلب:

بكـت عينـي وحـق لهـا البكـاءُ علــى ســمح ســجيته الحيــاءُ
علــى ســهل الخليقــة أبطحــي كـــريم الخـــيم نيتـــه العـــلاءُ
على الفياض شـيبة ذي المعـالي أبيـك الخيـر لـيس لـه كفـاءُ

الخامسة: برة ابنة عبد المطلب. أمها أيضاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران. لها قصيدة في رثاء أبيها عبد المطلب:

أعينـــيَّ جـــوداً بـــدمع دررْ علـى طيّـب الخـيم والمعتصـرْ
علـى ماجـد الجـدّ واري الزنـادِ جميـل المحيـا عظـيم الخطـرْ
على شـيبة الحمـد ذي المكرمـات وذي المجـد والعـز والمفتخـرْ

السادسة: صفية ابنة عبد المطلب. أمها هالة ابنة أهيب بن عبد مناف بن زهرة. لها قصيدة ترثي أباها:

أرقــت لصــوت نائحــة بليــلٍ   علــى رجــل بقارعــة الصــعيدِ
على الفياض شـيبة ذي المعـالي   أبيــك الخيــر وارث كــل جــودِ
فلــو خلــد امــرؤ لقــديم مجــد   ولكــن لا ســبيل إلــى الخلــودِ
لكــان مخلّــداً أبــدَ الليــالي   لفضل المجـد والحسـب التليـدِ

يقول حبر الأُمة ابن عباس: أعطى الله بني عبد المطلب سبع خصال حميدة: الصباحة، والفصاحة، والسماحة، والشجاعة، والعلم، والحلم، وحب النساء.

وقال الكعبي: لم يكن في العرب بنو أب مثل بني عبد المطلب أشرف منهم ولا أجسم، شم العرانين، تشرب أنوفهم قبل شفاههم، وفيهم قال مرة بن حجل:

ما في الأنـام عمومـة كعمـومتي   خيــــر ولا كأناســــنا آناســــا

ولم يعقب من أبناء عبد المطلب العشرة إلّا ستة:

أولاً: أبو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب له من الولد أربعة:

١ـ طالب، وبه كان يكنى.

٢ـ عقيل بن أبي طالب.

٣ـ جعفر بن أبي طالب.

٤ـ الإمام علي بن أبي طالب.

وأمهم فاطمة بنت أسد.

ثانياً: العباس بن عبد المطلب بن هاشم، له من الولد عشرة:

١ـ الفضل بن عباس، وبه كان يكنى.

٢ـ عبد الله بن عباس المعروف بحبر الأمة.

٣ـ عبيد الله بن العباس.

٤ـ معبد بن العباس.

٥ـ قثم بن العباس.

٦ـ عبد الرحمن بن العباس.

وأمهم أم الفضل لبانة الكبرى بنت الحرث بن حزن.

٧ـ الحارث بن العباس، وأمه من هذيل.

٨ ـ كثير بن العباس.

٩ـ تمام بن العباس، وأمهما أم ولد.

وقيل: تمام آخر أولاده، وكان أبو العباس يحمله ويرقّصه ويقول:

تمــوا بتمــام فصــاروا عشــره   يا رب فــاجعلهم كرامــاً بــرره

واجعل لهم ذكراً وأنمِ الثمره

ثالثاً: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. له من الأبناء ثلاثة: ولدان، وبنت:

١ـ عمارة بن حمزة، وبه كان يكنى.

٢ـ يعلى بن حمزة.

٣ـ فاطمة بنت حمزة، وهي من الفواطم اللاتي هاجرن إلى المدينة برفقة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

رابعاً: الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد المناف، صاحب حلف الفضول، ويكني أبا طاهر، له من الأبناء ولد واحد، وهو: عبد الله بن الزبير.

خامساً: عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ويكنى أبا لهب. له من الأبناء أربعة: ثلاثة ذكور، وبنت:

١ـ عتبة بن عبد العزى.

٢ـ معتب بن عبد العزى.

٣ـ عتيبة بن عبد العزى.

٤ـ درة ابنة عبد العزى.

وأمهم أم جميل ابنة حرب ابن أمية أخت أبي سفيان، وتسمى أروى، أو عورى. أمّا عتبة وعتيبة فقد تزوجا بنتي رسول الله رقية وأم كلثوم، فضرب عتبة زوجته وشتم أباها رسول اللهﷺ بعد إعلانه الدعوة، فدعا عليه فافترسه الأسد بالزرقاء من أراضي الشام.

سادساً: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الذبيح الثاني المفدى بمئة من الإبل، له من الأبناء ولد واحد، وهو: محمد بن عبد الله، سيد ولد آدم، وأشرفهم حسباً، وأفضلهم نسباً.

لم يخلق الرحمن مثل محمد ... أبداً وعلمي أنه لم يخلقِ

محمد في كفالة عمه

لم يبرح ذلك اليتيم حتى تسلمته يد جده عبد المطلب الأمينة.. يد شريف مكة وعظيمها الذي وجد في هذا الوليد الجديد خلفاً لابنه الفقيد الغالي عبد الله الذي ملأ قلب أبيه أسىً وألماً؛ لتواصل رعايته بعيداً عن آثار اليتم وذكريات الماضي. وتفيأ الصبي محمد ظلال جده الحنون، لكن الموت عاجله، فغيب شخص جده عبد المطلب عنه وعمره ثماني سنوات، فعادت أشباح اليتم بضراوتها لتخيم على محمد من جديد. ويسرع أبو طالب عمه الكريم؛ ليسد الثغرة التي حدثت في حياة ابن أخيه، وليؤدي وصية أبيه عبد المطلب بشأن حبيبه محمد؛ حيث ورّثه وصية خالدة ما دامت السماوات والأرض: «انظر يا أبا طالب، إذا أنا قضيت نحبي أن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشم رائحة أبيه، ولم يذق شفقة أمه، انظر أن يكون من جسدك بمنزلة كبدك، فإني قد تركت بنيَّ كلهم وخصصتك به؛ لأنك أخو أبيه من أمه وأبيه».

وينتقل محمد إلى بيت عمه أبي طالب ليجد الراحة والحنان يرفرفان فوق رأسه، فينسيانه آلام حزنه وكآبته التي نالته بعد فقد أمه وجده بعد أبيه. لقد حفظ أبو طالب العهد، ورعى ابن أخيه ووصية أبيه عبد المطلب رعاية تليق برجولته وبأرومته، وبعظمته وسجاياه، وأصبح محمد يعيش في دار عمه أبي طالب.

لقد أوصى عبد المطلب ابنه أبا طالب الذي نفّذ وصية أبيه، فناصر الإسلام في محنته وغربته، وواصل الحماية لابن أخيه بصلابة وإيمان، وسخّر كل طاقاته المادية والمعنوية لأجل محمد وديعة أبيه عبد المطلب. ومن هنا فإنه كان يؤثره بعطفه ولطفه ومحبته، ولم يكن حبه له بأقل من حبه لأبنائه بل قربه إليه أكثر منهم تماماً كما

كان يفعل أبوه عبد المطلب من قبل. وكان يحبه ويكرمه، ويعامله معاملة أبنائه، ويخصه بالطعام دون أولاده ويقول:

إن ابـن آمنـة النبـي محمـداً عنـدي بمثـل منـازل الأولادِ
راعيـت فيـه قرابـة موصـولة وحفظـت فيـه وصـية الأجـدادِ

لقد أحب أبا طالب في ابن أخيه كل الفضائل التي كان يعشقها ويقدسها، والتي رأى الرسول محمدﷺ يرفع لواءها في ولاء منقطع النظير، ولقد عبر عن حبه ذلك بإرادته الصلبة، كما عبر عنها بمواهبه الغنية في شعره:

ألـم تعلمـوا أن ابننـا لا مكـذبٌ لـدينا ولا يعبـا بقـول الأباطـلِ
أشـمّ مـن الشـم البهاليـل ينتمـي إلى حسب في حومـة المجـد فاضـلِ
فلا زال في الدنيا جمـالاً لأهلهـا وزينـاً لمـن والاه رب المشـاكلِ
فأصبح فينـا أحمـد فـي أرومـة تقصـر عنـه سَـورة المتطـاولِ
حـدبت بنفسـي دونـه وحميتـه ودافعـت عنـه بالـذرا والكلاكـلِ
فأيـده رب العبـاد بنصـره وأظهـر دينـاً حقـه غيـر باطـلِ

لقد آلى أبو طالب على نفسه ألّا يدخر جهداً في تنشئته وفق ما تستحقه نفسه الصالحة، وحسب ما يتناسب مع ملكته الشخصية، فجعله رفيقاً له، يصطحبه في الاجتماعات العامة، ويأخذه في زياراته الخاصة، ولا يتركه أبداً ما دام في البيت أو حينما يتجوّل في أنحاء مكة وجوارها. ولما أراد السفر إلى الشام في تجارة له أبى أن يتركه بمكة خوفاً عليه من قريش، وقال: والله لا أخرجن إلا معه، ولا أفارقه أبداً، وكان يومئذٍ عمره تسع سنوات، وقال الطبري: اثنتي عشرة سنة.

النبي محمد ﷺ في سفره إلى الشام مع عمه

لما أجمع أبو طالب على السفر إلى الشام في رحلة تجارية على عادة قريش، وذلك بعد كفالته محمدﷺ بأربع سنوات، طلب محمد منه مرافقته في رحلته. ويحار أبو طالب بماذا يجيب ابن أخيه ـ وكان أبو طالب كثير التعلق بالمصطفى، والمصطفى كثير التعلق به ـ فتحركت عند أبي طالب مخاوفه على ابن أخيه، على الرغم من عواطفه نحوه، فهو لا يريد تعريضه للأخطار، فالموافقة على حمله معه إلى الشام تعرّضه إلى وعثاء السفر في الصحراء، وإلى قساوة السير فيها.

فهل يقدر هذا الغلام على تحمل تلك الصعاب، وهو لا يعرف من أمرها شيئاً؟ وكذلك كان يكره أن يخرجه من مكة لمخالطة الناس؛ لأنه يخشى عليه منهم، ولم تطب نفسه أن يخرج من مكة ويبقيه فيها خوفاً عليه من قريش، وكان حريصاً على سلامته في حين أن زوجته فاطمة بنت أسد كانت تحرص عليه أكثر من صبيتها، وترعاه ليلها ونهارها.

فرأى أن السفر معه وإن كان متعباً له أولى؛ لزيادة المحافظة عليه من جهة، ولجعله يتمرّس بالتجارة التي سوف تؤهّله لمواجهة أمور الحياة على أكثر من صعيد.

وانتهى أبو طالب من التفكير، وعزم ألّا يخذل ابن أخيه فيما طلب، فأدناه منه، وقبّله، ثم استحثّه على التهيُّؤ للرحيل، مصمماً على أن يقيه بنفسه، وأن يسكنه شغاف قلبه في كل حلّ وترحال.

وكانت هذه أولى سفرات النبي محمدﷺ مع عمه إلى الشام، وله من العمر

تسع سنوات، وقيل: اثنتا عشرة، وفيها حصل ما حصل من الحوادث العظمى المشيرة إلى نبوته مع الراهب بحيرا وغيره.

ويسير ركب القافلة يقطع البوادي والبراري والقفار، ويجتاز المغارات الطوال، مارّاً بمدين ووادي القرى وديار ثمود، حتى انتهت القافلة إلى بصرى من أراضي الشام. وفي بصرى أوقفت الرحال، وأُنيخت الجمال، وأُنزلت عن ظهورها الأحمال، وقام كل واحد منهم بشؤونه الخاصة إلا أبا طالب، فقد آثر اصطحاب ابن أخيه محمد إلى الظل؛ كي يستريح من وعثاء السفر ـ حرصاً عليه، قبل أن يفكر بنفسه أو بالآخرين ـ وكان القوم يعلمون مقدار حبه له، وتعلقه به، فلم يعترضوا سبيله.

فاستلقى أبو طالب بجانب ابن أخيه اليتيم تحت شجرة وارفة الظل، تقوم إلى جانب صومعة يسكنها راهب يقال له بحيرا، قضى حياته في العبادة، منصرفاً إلى التأمل، غارقاً في بطون الكتب يغرف منها ما يزيده علماً ومعرفة. وكانوا كثيراً ما يمرّون به في ذلك المكان، فلا يكلّمهم ولا يعرض لهم بشيء أبداً، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا قريباً من صومعته نظر إلى الركب، فرأى غلاماً معهم تظله غمامة من بين القوم، فلما نزلوا وذهب الغلام إلى تلك الشجرة ليستريح من وعثاء السفر، تبعته الغمامة، وأظلت الشجرة، ورأى الشجرة قد تهصرت ـ أي تدلت أغصانها على الغلام ـ تظلّله، فأحس بدافع خفي يلح عليه ويسوقه إلى لقاء الرجل وغلامه.

وأمر غلمانه أن يصنعوا لأهل القافلة طعاماً، وأرسل إليهم يقول: يا معشر قريش، لقد صنعت لكم طعاماً، وأنا أحب أن تحضروا كلكم؛ صغيرُكم وكبيرُكم، عبدكم وحركم. فقال له رجل منهم: يا بحيرا، إن لك اليوم لشأناً، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ قال بحيرا: صدقت،

ولكني أحببت أن أضيفكم اليوم.

فلما كان وقت الطعام اجتمعوا كلهم، وتخلّف محمد من بينهم ـ لحداثة سنه ـ تحت ظل تلك الشجرة، فنظر بحيرا في القوم، فلم يرَ الشخص الذي رأى فيه تلك الصفات.

فقال: يا معشر قريش، ألم يتخلّف منكم أحد عن طعامي؟ قالوا: تخلّف منا غلام هو أصغر القوم سناً. فقال: ادعوه ليحضر طعامنا. فجاؤوا به، فلما فرغوا من الطعام، أقبل على الغلام، فقال له أسألك: بحق اللات والعزى إلّا ما أخبرتني عما أسألك ـ وقد سأله باللات والعزى مع أنه لا يؤمن بها؛ لأنه سمع قومه يؤمنون بها ويحلفون بأسمائها وهذا الغلام أحد أبنائهم ـ فقال له محمد: «**لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما**». فقال بحيرا: أسألك بالله إلّا ما أخبرتني. فقال محمد ـ بلهجته الصادق الواثق ـ: «**سل عما بدا لك**». فجعل بحيرا يسأله عن كل ما يتصل بحياته، وعن أبيه، وعن أمه، وعن نومه، ومحمد يخبره وكأنه شيخ مجرب، وليس غلاماً في الثانية عشرة من عمره. فيوافق ما يقوله ما عند بحيرا من صفته، فنظر بين كتفيه، فرأى خاتم النبوة كما هو في كتبهم، فقال: هو هو والله.

ثم أقبل على عمه، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. فقال: والله، ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي. قال: ما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به. قال: صدقت، فما فعلت أمه؟ قال: توفيت. قال: صدقت. ثم قال له: أوصيك أن ترجع بابن أخيك إلى بلده مكة، واحذر عليه من اليهود؛ فوالله إن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغون له شراً؛ فإنه كائن لهذا الغلام شأن عظيم، فأسرعْ به إلى بلاده، واحتفظ بهذا الغلام، ولا تذهب به إلى الشام فإني

أخشاهم عليه.

وبعد أن تم اللقاء الذي أراده الله اتجهت القافلة من بصرى إلى الشام حيث سارع أبو طالب إلى بيع ما كان يحمله، وقفل راجعاً بابن أخيه إلى مكة، وفي ذهنه نصيحة الراهب لا تفارقه.

عاد أبو طالب إلى مكة بمال غير وفير من تجارته، ولكن رعايته لابن أخيه كانت عنده تعوّض عليه، وتشعره بالقناعة والاطمئنان.

محمد يعود من سفره من الشام مع عمه

عاد أبو طالب من رحلته إلى الشام غير مبالٍ ولا عابئ بأموال الأرض يصيبها ما دامت هذه لا توازي شعرة في رأس ابن أخيه عبد الله، ذلك الفتى الذي عليه حمايته ممن يضمر له اليهود السوء والغدر.. اليهود الذين سوف يقدمون على قتله فيما لو عرفوا أنه هو صاحب الشأن العظيم والنبي الكريم كما قال له الراهب بحيرا.

وكان محمد الفتى ابن الثانية عشرة يرى اهتمام عمه الزائد به، فيعيش في أجواء حبه الكبير الذي يفوق حبه لأبنائه، فيهنأ في كنفه، ويقيم قرير العين، راضي النفس، لا يزعجه إلّا سبب واحد وهو كثرة عيال عمه وقلة يده. لقد ورث أبو طالب ـ مع أنه كان فقيراً لا يملك شيئاً ـ زعامة أبيه عبد المطلب، وخضع له القريب والبعيد، يقول الإمام علي عليه السلام: «**إن أبي ساد الناس فقيراً، وما ساد الناس فقير قبله**».

ولكنه مع فقره لم يكلّف ابن أخيه محمد بأي عمل، كرعي الأغنام ونحوها، أمّا ما جاء في بعض الروايات أن محمداً بعد أن آب من سفره مع عمه من الشام انصرف إلى العمل يرعى الأغنام إلى المكيين بقراريط؛ كيلا يكون عالة على العائلة التي تحتضنه، وكيلا يزيد في فقرها وحاجتها، فهذه من روايات أبي هريرة.

يقول عمار بن ياسر: إن محمداً لم يرعَ الغنم لأحد من المكيين كما يدّعي أبو هريرة في روايته التي ذكر فيها عن النبي محمد صلى الله عليه وآله أنه قال: «**ما بعث الله نبياً إلّا ورعى**

الغنم». فقال له أصحابه ـ على حد زعم أبي هريرة ـ: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**نعم كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة**».

مع العلم أن الذين رووا هذه الرواية ودونوها رووا إلى جانبها موقف جده عبد المطلب وعمه أبي طالب، والمراحل التي عاش فيها معهما عزيزاً، موفور الكرامة، لا يفارقهما في ليل أو نهار، يبذلان في سبيل راحته واطمئنانه الغاليَ والرخيصَ، وهما دائبان في تتبع ذلك. وكان صلى الله عليه وآله قد أدرك أنهما كانا منذ طفولته يترقبان له مستقبلاً يهز العالم من أقصاه، إلى أقصاه ويحدث تحولاً في تاريخ البشرية، وأنهما كانا يخافان عليه مدّعي الأديان، وطواغيت العرب وبخاصة بعد أن سمع أبو طالب من بحيرا وغيره بأن اليهود والنصارى يضمرون له السوء والغدر. فكيف يجتمع هذا مع المرويات التي تجعل من مراحل صباه وشبابه أجيراً لأهل مكة، يعيش مع المواشي في السهول والجبال بعيداً عن أهله وذويه وجميع الناس؟

وقد أكدت الروايات أن أبا طالب لم يغِب عن النبي صباحه ولا مساءه، وكان يحرسه من أعدائه، ويخاف أن يغتالوه. ولقد حدث أن طلبه في بعض الأيام فلم يجده، فثارت ثائرته، وظن أن بعض قريش اغتالوه فقتلوه. فبعث إلى بني هاشم وجمعهم وقال: يا بني هاشم، أظن أن قريشاً اغتالت محمداً فقتلته، فليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة وليمضِ إلى المسجد حيث سادات قريش جلوس، ويجلس كل واحد منكم إلى جنب عظيم من عظماء قريش، وأنا أخرج في طلب محمد؛ فإن عدت ومحمد معي فلا تحدثُنَّ أمراً، وإن عدت ومحمد ليس معي فليضرب كلّ واحد منكم الرجل الذي إلى جانبه من سادات قريش.

ومضوا إلى المسجد، وجلس كل واحد منهم إلى جانب رجل من سادات قريش، ومضى أبو طالب في طلب ابن أخيه محمد، فوجده في أسفل مكة قائماً يصلي إلى جنب صخرة، فوقع عليه وقبّله، وأخذ بيده وقال: يا بن أخي، قد كدت تأتي

على قومك. وجاء به إلى المسجد وقريش في ناديهم جلوس عند الكعبة، فوقف عليهم وقال: يا معاشر قريش، إني طلبت محمداً فلم أرَه فخفت أن تكونوا كدتموه، فأمرت هؤلاء الفتية أن يجلسوا حيث ترون، وقلت لهم: إن جئت وليس محمد معي، فليضرب كل واحد منكم صاحبه الذي إلى جانبه ولا يستأذنّي فيه ولو كان هاشمياً. ثم قال لفتيانه: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا فإذا كل واحد منهم معه حديدة صارمة، فقالوا له: وهل كنت فاعلاً؟ قال: إي ورب هذه البنية ـ يعني الكعبة ـ فو الله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم. فقال له أحدهم: لقد كدت تأتي على قومك. قال هو كذلك، وأنشد يقول:

ألا بلّغ قريشاً حين حلّت ... وكل سرائر منها غرورُ
فإني والضوابح عاديات ... وما تتلو السفاسرة الشهورُ
لآل محمد راعٍ حفيظ ... ودود الصدر مني والضميرُ
فلست بقاطع رحمي وولدي ... ولو جرّت مظالمها الجزورُ
أيأمر جمعهم أبناء فهر ... بقتل محمد والأمر زورُ
فلا وأبيك لا ظفرت قريش ... ولا أمّت رشاداً إذ تشيرُ

لقد آلى أبو طالب على نفسه ـ وهو يرى ابن أخيه فذاً في الأولاد، نادراً في الصفات ـ ألا يدّخر جهداً في تنشئته وفق ما تستحقه نفسه الصالحة، وحسبما يتناسب مع ملكاته الشخصية، فجعله رفيقاً، يصطحبه في الاجتماعات العامة، ويأخذه في زياراته الخاصة، ولا يتركه أبداً ما دام في البيت، أو حينما يتجول في أنحاء مكة وجوارها.

وبهذا فقد نشأ محمد بعيداً عن مساوئ المجتمع الذي عاش فيه، وانصرف إلى المفاهيم السامية والأعمال الجليلة، حتى كان له من الخلق العظيم الذي يدفعه إلى

تقديم نفسه والسمو بها على عمل الخير وسلوك طرق الصواب.

لقد كان من خُلُقه أنه إذا رأى قومه على أمرٍ جامع ذهب إليه وشارك فيه ما وسعته المشاركة من غير أن يرضى بباطل، أو يتوانى عن دعوة حق؛ ولذلك نراه يندفع عندما وقعت حرب الفجار؛ كي مع عمه يشارك في سد المنافذ على المتهوّرين، ومنع الاقتتال في موسم الحج خلال الأشهر الحرم. وكما شارك في حرب الفجار تهدئة وتسوية وصلحاً، فقد شارك أيضاً في ريعان الشباب في حلف الفضول.

ولشدة ما أثّر فيه هذا الحلف، فإنه لم ينسَه في حياته.

محمد في بيت عمه أبي طالب

ويترعرع محمد في بيت أبي طالب الذي كفل النبي من يوم وفاة عبد المطلب وأخذه إلى بيته وضمّه إلى أهله وولده. وكان هو وزوجته السيدة فاطمة ابنة أسد ابن هاشم بن عبد مناف يبذلان كل ما في وسعهما في سبيل خدمة النبي محمدﷺ والترفيه عنه، حتى إنهما كانا يفضلانه على أولادهما في المطعم والملبس، والعناية والخدمة، يقول:

وما زلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم

فكانﷺ يتذوق طعم الحنان بأحلى صوره، فهو يتمتع بشفقة الأبوة متمثلة بشخص عمه أبي طالب، وبحدب الأمومة متمثلة بشخص زوجة عمه فاطمة ابنة أسد التي وجد فيها الأم الرؤوم التي احتضنته كما احتضنت وليدها علياً من حين كَفَلَهُ عمه أبو طالب، وقد أنزلته من قلبها منزلة الأحشاء، وجعلته نصب عينيها إن غاب عنها لحظة لم يغب مثاله، ولا تفقد شخصه، وتذهل عن كل شيء حتى يحضر، فتشتغل بتغذيته وغسله وتنظيفه وتلبيسه وتدهينه وتعطيره وإصلاح شأنه، وإذا كان الليل اشتغلت بفرشه وتوسيده وتمهيده. وكانت لا تغفل عنه ولا عن خدمته لحظة في ليل ولا في نهار من يوم كان عمره ثماني سنوات.

وإلى جانب هذه اللذة التي ذاق طعمها محمد، وجد لذة الألفة والانسجام الروحي بينه وبين ابن عمه علي بن أبي طالب، ووجد فيه خير صفي له في فتوته. وقد تمثّلﷺ أمه آمنة ابنة وهب في شخص فاطمة ابنة أسد، تلك التي رعته أيام

صباه في بيت عمه أبي طالب، وكانت له من بعد أمه أماً، فكان يسميها أمي، ويروى عنه أنه قال: «**هي أمي بعد أمي**».

وكانت تفضّله على أبنائها علي وعقيل وجعفر، وكانت من السابقات إلى الإيمان، ومن فضليات النساء.

أدركت معنى الإسلام وأسلمت قبل غيرها، وكانت في عدد المسلمين جميعاً الحادية عشرة، أي أنها أسلمت بعد عشرة من المسلمين والمسلمات، وبايعت الرسول محمداًﷺ قبل كل النساء من المسلمات. وهاجرت إلى رسول اللهﷺ من مكة إلى المدينة المنورة مشياً على الأقدام.

وكان رسول اللهﷺ شاكراً لبرّها، ويبالغ في إكرامها وإعزازها وتبجيلها واحترامها، ويثني عليها كثيراً، ويدعوها أمه. وحسبها بذلك شرفاً لا يعادله شرف.

وظل يتيم عبد الله في أحضان عمه وزوجته فاطمة لا يشعر بالغربة بين أولادهما الأربعة، ولا يحس بمرارة اليتم والفقر. ووجد منها من الحرص والرعاية فوق ما يتصوره إنسان من أبوين مع وحيد عزيزٍ عليهما.

وبلغ من حرص فاطمة على محمد أنها كانت ـ في سنين الجدب والقحط التي مات فيهما الناس جوعاً وعطشاً ـ تحرم أولادها من القوت الضروري، وتطعمه إياه، واستمرّت تعامله بهذه المعاملة إلى أن شبّ وترعرع، وأسرعت إلى تصديقه والإيمان برسالتَه والإخلاص له في السرّ والعلانية هي وزوجها وأولادها منذ أن بدأ يدعو الناس إلى عبادة الواحد الأحد.

وماتت في السنة الرابعة من الهجرة، ولم يكن رسول الله ـ وهو الوفي الكريم الذي علّم الناس الوفاء والإحسان ـ لينسى لها مواقفها التي أنسته فقد أبيه وأمه

وجدّه، فلما ماتت بكاها وقال ـ والدموع تنهمر من عينيه ـ: «**اليوم ماتت أمي**».

ولما توفيت كفنها رسول الله صلى الله عليه وآله في قميصه ليدرأ به عنها هوامّ الأرض، وأمر من يحفر قبرها، فلما بلغوا اللحد نزل النبي صلى الله عليه وآله بنفسه، وأتم حفره بيده، وأضجعها فيه، وصنع ما لم يصنعه بمسلم قبلها، وقال: «**اللهم اغفر لأمي فاطمة ابنة أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها**». فقيل: يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه بأحد قبلها، فقال صلى الله عليه وآله: «**ألبستها قميصي؛ لتلبس من ثياب الجنة وحللها، وأضطجعت في قبرها ليوسعه الله عليها فتأمن من ضغطة القبر؛ إنها كانت من أحسن خلق الله صنعاً لي بعد عمي أبي طالب، ولا أبر بي منها، ما حييت بيتم منذ أن التجأت إليها**».

فإذا أضفت إلى هذا الفخار فخاراً هو كون المرتضى ولدها، وقد تغذّى من در صدرها، قلنا بلا جدال: إنها من خير النساء.

حماية أبي طالب لابن أخيه

كان أبو طالب أوجه وجهاء قريش، وزعيمهم بعد أبيه عبد المطلب، وأنفذهم كلمة، وأحكمهم رأياً. واشتهر عنه أنه لم يذق طعم الخمر طوال حياته، وكان من الذكاء والدهاء وقوة الإرادة ما ساعده على بسط نفوذه على قريش، حتى استطاع أن يحمي ابن أخيه محمداً من أعدائه، فلم ينله أذاهم طوال حياته. مع أنه كان يحارب دينهم، وقد نال جهداً عظيماً عندما ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله ببعثته، وهمَّ مشركو قريش وكفارها بمعارضته، ونادوا بكراهة ما كان يجهر به من تحقير آلهتهم، وتعظيم الإله الواحد الأحد. على أنه استطاع أن يحميه منهم، فما نالوه بأذى في كل حياته. يقول الشيخ جعفر النقدي في قصيدته:

كفل النبي المصطفى خير الورى	**ورعى الحقوق له بصدق ودادِ**
رباه طفلاً واقتفاه يافعاً	**وحماه كهلاً من أذى الأضدادِ**
وعلا به عيناً على كل الورى	**إذ قال فيه بمطرب الإنشادِ**
إن ابن آمنة النبي محمداً	**عندي يفوق منازل الأولادِ**
راعيت فيه قرابةً موصولةً	**وحفظت فيه وصية الأجدادِ**
يا والد الكرار والطيار والـ	**أطهار أبناء النبي الهادي**
شكر الإله فعالك الغر التي	**فرحت بها أملاك سبع شدادِ**

ولقد اتفقت الكلمة على أنه لولا أبو طالب وزوجته وابنه الإمام علي لقضي على دعوة محمد في المهد، ولم يكن للإسلام عينٌ ولا أثرٌ.

لقد كان بيت أبي طالب أول نواة في حقل الإسلام، وأول قوة دعمت الإسلام ونبي الإسلام، لقد كان بيت أبي طالب هو العامل الوحيد لنشر كلمة الحق وتثبيت أركان دعوتها، كما أن شبله الإمام أمير المؤمنين خلفه في مؤازرة تلك الدعوة، والتفاني في سبيلها.

عن حذيفة بن اليمان قال: كنا نعبد الحجارة، ونشرب الخمر، وعلي بن أبي طالب من أبناء الرابعة عشرة عاماً قائم يعبد الله، يصلّي مع النبي محمد ليلاً ونهاراً، وقريش تسافه محمداً، وعلي يذبّ عنه لا غيره وغير أبيه. يقول ابن أبي الحديد:

فلولا أبو طالب وابنه ... لما مثل الدين شخصاً فقاما
تكفل عبد مناف بأمر ... فأودى فكان علي تماما
فذاك بمكة آوى وحامى ... وهذا بيثرب جس الحماما
فلله ذا فاتحاً للهدى ... ولله ذا للمعالي ختاما
وما ضر مجد أبي طالب ... جهول لغا وبصير تعامى
كما لا يضر ضياء الصبا ... ح من ظن ضوء النهار ظلاما

فأبو طالب كان عضد الرسول المصطفى، وحرزاً له في أمره، وناصراً له على قومه.

يقول القرطبي في تفسيره: روى أهل السير قالوا: خرج النبي ذات يوم إلى الكعبة ليصلي، فصفّ قدميه عند المقام وقام يصلي، وكانت قريش جلوس بفناء الكعبة، فقال أبو جهل: من يقوم إلى هذا الغلام ويفسد عليه صلاته؟ فقام ابن الزبعرى وأخذ فرثاً ودماً، فلطخ به وجه النبي، فانفتل النبي من صلاته، وأقبل إلى دار عمه أبي طالب، وقال: «**يا عم ألا ترى إلى ما فُعل بي؟**». قال: من فعل بك هذا؟ قال: «**عبد الله بن الزبعرى**». وفي رواية قال له: «**يا عم، من أنا؟**». فقال: ولم

يا بن أخي؟ فقص عليه القصة.

فقال: وأين تركتهم؟ قال: «**بالأبطح**». فقام أبو طالب، وأخذ سيفه ووضعه على عاتقه، وأخذ بيد ابن أخيه ـ وقد بان الغضب في وجهه ـ ومشى معه حتى أتى إلى القوم ـ وهم في مجلسهم ـ فلما رأوا أبا طالب قد أقبل وسيفه على عاتقه، جعل القوم ينهضون ليتفرقوا، فقال أبو طالب: مكانكم، ورب هذه البنية لئن قام منكم رجل جللته بسيفي. فقعدوا حتى دنا منهم، فقال: يا بني من الفاعل بك هذا؟ فقال: «**عبد الله بن الزبعرى**» فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً، فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم، وأساء لهم القول، ثم التفت إلى ابن أخيه، وقال: سألتني: «من **أنا؟**».

أنت النبي محمدٌ ... قرم أغرّ مسوّدُ
لمسودين أكارم ... طابوا وطاب المولدُ
نعم الأرومة أصلها ... عمرو الخضم الأوحدُ
هشم الربيكة في الجفا ... ن وعيش مكة أنكدُ
ولنا السقاية للحجيـ ... ـج بها يماث العنجدُ
والمأزمان وما حوت ... عرفاتها والمسجدُ
أنى تضام ولم أمت ... وأنا الشجاع العربدُ
وبطاح مكة لا يرى ... فيها نجيع أسودُ
وبنو أبيك كأنهم ... أسد العرين توقدوا
ولقد عهدتك صادقاً ... في القول لا يتزيدُ
ما زلت تنطق بالصوا ... ب وأنت طفل أمردُ

إيمان أبي طالب

حماه أبونا أبو طالب وأسلم والناس لم تسلمِ
وقد كان يكتم إيمانه وأما الولاء فلم يكتمِ

عبد الله بن حمزة الحسيني

لقد اشتهر أبو طالب بولائه لرسول الله ﷺ، والمحبة إليه والنصرة له والتصديق به، وكان يحميه ويؤيده وما يساوره في صدقه أدنى ريب، ويقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

قال الإمام عبد الواحد السفاقسي في (شرح البخاري): إن في شعر أبي طالب هذا دليلاً على أنه كان يعرف نبوة النبي محمد ﷺ قبل أن يُبعَث، لما أخبره به بحيرا وغيره من شأنه مع ما شاهده من أحواله، ومنه الاستسقاء به في صغره.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط شديد من احتباس المطر عنهم فقائل منهم يقول: أعمد اللات والعزى، ومنهم يقول: أعمد مناة الثالثة الأولى. فقال لهم شيخ وسيم، حسن الوجه، جيد الرأي: أنى تؤفكون، وفيكم بقايا إبراهيم، وسلالة إسماعيل؟ قالوا: كأنك عنيت أبا طالب؟ قال: نعم.

قالوا: فقوموا بنا إليه. فقاموا بأجمعهم، وقمت معهم، فطرقوا عليه الباب، فخرج إليهم، فقالوا له: يا شيخ قريش، لقد أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم لتستقي لنا.

فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه الشمس تجلّت عنها سحابة، وتبعه الناس، فجاء حتى دخل الحرم، فقصد الكعبة، وأخذ أبو طالب ذلك الغلام وألصق ظهره بالكعبة، فرفع الغلام إصبعه إلى السماء، ورمقها بطرفه كالمتضرع، فأقبل السحاب من هنا وها هنا، واغدودق الوادي، وأخصب النادي والبادي ببركة النبي محمدﷺ.

ولما تمالأت قريش على أذية محمدﷺ بعد البعثة، جعل أبو طالب يذكّرهم يده وبركته عليهم، ويقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل

قال البرزنجي: توالت الأخبار أن أبا طالب كان يحب النبي محمداًﷺ، ويحوطه وينصره، ويعينه على تبليغ دينه، ويصدقه فيما يقوله، ويأمر أولاده كجعفر وعلي باتّباعه ونصرته. وهذه الأخبار صريحة في أن قلبه طافح وممتلئ بالإيمان بالنبي محمدﷺ.

وقال الأميني: إن القرابة والرحم تبعثان إلى المحاماة إلى حد محدود، لكنه إذا بلغت حد التضحية بولد كأمير المؤمنين ـ وهو أحب الناس إلى والده ـ فهناك يقف التفاني على موقفه، فلا يستسهل الوالد أن يعرّض ابنه إلى القتل كل ليلة، فينيمه على فراش المفدّى، ويستعوض به ابن أخيه إلّا أن يكون مندفعاً إلى ذلك بدافع ديني، وهو معنى اعتناق أبي طالب للدين الحنيف.

قال أبو جعفر في أماليه: كثيراً ما يخاف أبو طالب على رسول اللهﷺ البيات إذا عُرف مضجعه، فكان يقيمه ليلاً من منامه، ويضجع ابنه علياً مكانه. فقال له

علي ليلة: «**يا أبتي إني مقتول لا محالة**». فقال له أبو طالب:

اصبرنْ يا عليُّ فالصبر أحجى	**كل حي مصيره لشعوبِ**
قد بذلناك والبلاء شديد	**لفداء الحبيب وابن الحبيبِ**
لفداء الأعز ذي الحسب الثا	**قب والباع والكريم النجيبِ**
إن تصبك المنون فالنبل تبرا	**فمصيب منها وغير مصيبِ**
كل حي وإن تطاول عمراً	**آخذ من مذاقها بنصيبِ**

فأجابه علي يقول:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد	**ووالله ما قلت الذي قلت جازعا**
ولكنني أحببت أن ترى نصرتي	**وتعلم أني لم أزل لك طائعا**
سأسعى لوجه الله في نصر أحمد	**نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعا**

ورُوي في (نهج البلاغة) أن أبا طالب طلب النبي يوماً فلم يجده، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه، فخرج في طلبه، ومعه ابنه جعفر، وكان النبي صلى الله عليه وآله ـ كما ذكر بعض أهل العلم ـ إذا حضرت الصلاة يخرج إلى شعاب مكة ومعه علي ابن أبي طالب ـ وعمره تسع سنين ـ متخفياً عن أبيه أبي طالب. فيصليان الصلاة فيها، فإذا أمسيا رجعا ومكثا ما شاء الله أن يمكثا، فعثر عليهما أبو طالب وهما يصليان، فقال لابن أخيه: يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ فقال محمد: «**أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم**».

والتفت إلى ابنه علي وقال: أي بني ما هذا الذي تعمله؟ قال: «**يا أبتي، آمنت بالله وبرسول الله محمد، وصدّقته بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته**». فقاله له: الزم ابن عمك، أما إنه لم يدعُك إلّا إلى خير، وأنشد يقول:

إن الوثيقة في لزوم محمد ... فاشدد بصحبته على أيديكا

ثم التفت إلى جعفر وقال: صل جناح ابن عمك يا بني. فقام إلى جنب علي فأحسَّ النبي فتقدمهما، وتخلف علي وجعفر، فهي أول صلاة عقدت. وأقبلوا على أمرهم حتى فرغوا، وانصرف أبو طالب مسروراً، وهو يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي ... عند ملم الزمان والنوبِ
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما ... أخي لأمي من بنيه وأبي
والله لا أخذل النبي ولا ... يخذله من بنيَّ ذو حسبِ
حتى ترون الرؤوس طائحة ... منا ومنكم هناك بالقضبِ
نحن وهذا النبي ننصره ... نضرب عنه الأعداء كالشهبِ
إن نلتموه بكلّ جمعكم ... فنحن في الناس ألأم العربِ

وأخرج الصدوق في الأمالي بإسناده عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس أن رجلاً سأله: يا بن عم رسول الله، أخبرني عن أبي طالب هل كان مسلماً؟ قال: وكيف لم يكن مسلماً وهو القائل:

وقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعبا بقيل الأباطلِ

إن أبا طالب كان مثله كمثل أصحاب الكهف حين أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرتين، وإن أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرتين.

البشارة بالنبي صلى الله عليه وآله

قال البوصيري في همزيته:

ما مضت فترة من الرسل إلا ... بشرت قومها بك الأنبياءُ

وفي سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1]، ودلالة السياق على تعبير عيسى عليه السلام عنه بأحمد، وعلى كونه اسماً له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بمحمد ظاهرة لا سترة عليها، ويدل عليه قول حسان:

صلى الإله ومن يحفّ بعرشه ... والطيبون على المبارك أحمد

هذه هي البشارة التي احتضنتها الكتب المقدسة كتاباً بعد كتاب ليجدها المؤمنون بين أيديهم في أسفار الله، ثم إلى رسله رسولاً بعد رسول إلى أن عهد الله بها إلى أحد أنبيائه المختارين: عيسى بن مريم عليه السلام؛ لكي يعلنها في الناس من خلال التعاليم السماوية التي أنزلت على قلبه صادعاً بها على رؤوس الأشهاد، ومثبتاً لها في جوهرة العقد من رسالته الكريمة.

وها هو القرآن الكريم بعد قرون في سلسلة الزمان يحفظ تلك البشارة مصدقاً لها ولحاملها تماماً كما نطق بها عن ربه على لسان السيد المسيح.

أجل، فقد تحققت البشارة عندما بعث الله منذ نيف وأربعمئة وألف عام، من

---

(١) الصف: ٦.

قلب الجزيرة العربية محمد بن عبد الله رسولاً بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويزيل عن عقولهم أوهام المعتقدات البالية، ويقتلع من قلوبهم أدران الوثنية الزائفة. ولذا وجب أن تعين البشارة هذا الرسول بالذات، وتسميه باسمه بياناً للمكانة الخاصة التي له عند ربه؛ لأنهﷺ وحده قادر على حمل عبء تلك الرسالة التي ستلقى على عاتقه؛ لتكون خاتمة الرسالات، وليكون حلالُها حلالاً إلى اليوم القيامة، وحرامها حراماً إلى يوم القيامة دون تغيير أو تبديل أو اجتهاد؛ لأنها تستوعب شؤون الناس في كل زمان ومكان، وتحقق مطالبهم الكاملة في كل عصر ومصر:

لولاه ما كان من فُلْكٍ ولا فَلَكٍ   كلا ولا بان تحليل وتحريم

وهكذا خطّت في اللوح المحفوظ نبوته، وكرست عند الله كرامته، وكانت في التوراة والإنجيل بشارته. فمن هو محمد صاحب هذه الشخصية الإنسانية الكاملة، والرسول الذي أهّله تكامله الإنساني لحمل أكبر وآخر رسالة سماوية إلى الأرض؟ هل هو الطفل الذي رُبي يتيماً محروماً من رعاية الأب كلها، ومن حنان الأم إلّا أقله، أم إنه ذلك الفتى الذي نزع عن الطيش، وترك اللهو واللعب، وانصرف منذ مطلع تفتحه على الحياة إلى التفكر بالقيم والمثل التي تنمّي المدارك، أم هو ذلك الشاب الذي قهر شظف العيش، وانتصر على مرارة الفقر والجوع، أم محمد الزوج والأب المثالي الذي يقدس حرمة الزواج، ويصون حقوق المرأة ومثال الأب البار؟

لقد عاش محمد في مجتمع جاهلي تتحكم فيه عادات وتقاليد يغلب عليها طابع الصلف والعناد ويقوم جانب من حياته على الغزو والسلب والاقتتال، ويقوم

جانب آخر على أبشع ما عُرف الإنسان في تاريخه من هدر لقيمة الإنسان كوأد البنات، وأكل الربا.

في مثل هذه البيئة القاسية الغارقة في العار والشنار عاش محمد بن عبد الله، عاش محمد وهو كاره لواقع مجتمعه السيّئ، منكر لفعاله البشعة، مبتعد عن كل عاداته وتقاليده المخزية، مقبلٌ على التفكير فيما يجب أن يعمله حتى يخلص أبناء قومه مما هم فيه من كفر وضلال. فإذا كان محمد قد استحق هذا الفضل بذاته ولذاته، فإن الشهادات التي تزكي هذا الفضل الأكبر دليل على استحقاقه لها. فهو عند أبناء قومه الصادق الأمين بعد اقتناعهم بأنه لا أحد فيهم على شاكلته؛ لا في القول، ولا في الفعل، ولا في السلوك، حتى صار هذا اللقب علماً خاصاً به لا يعرف به إلّا هو، ولا ينادى به غيره.

وبعد شهادة الناس له تأتي شهادة زوجه خديجة؛ فإنه عندما بلغ الأربعين من عمره، وكان متردداً بين غار حراء للتعبد ينزل عليه الوحي الأمين جبرئيل وهو في وحدته، ويفجؤه الوحي وهو في خلوته، ويلقنه الأمين آيات يحملها من ربه، فيعود إلى منزله وهو يقول: «**زملوني، دثروني**». فتسأله خديجة عما جرى، فيخبرها الرسول بما كان له في غار حراء، فتزمله وتدثره وهي تقول: أبشر يا محمد، فلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر.

ثم تأتي الشهادة الكبرى.. الشهادة التي يطرب لها الإنس والجان والملائكة، والتي يشدو لها الطير، وتبتسم لها الزهور، ويتراقص لها الندى على الأوراق، وتهتزّ لها الأشجار، وتغنيها الرياح، وتنتشي لها سائر مخلوقات الله، تلك هي شهادة الله

تبارك وتعالى إذ يقول لنبيهصلى الله عليه وآله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وهل أعظم منها شهادة، وأرفع منها وساماً في مدى الدهر، ومن الأبد إلى الأزل.

«**الله أكبر**» ما أحبها شهادة تصدر عن الله في الثناء على صفات مخلوقه، إنها شهادة تقوّم الإنسان بذاته ولصفاته، وتخلد على الدهر أنشودة العظمة في فم الدهر، وفي مشارق الأرض ومغاربها: «يا محمد إنك لعلى خلق عظيم».

هذه هي الشهادة التي تزكّي محمداً الإنسان الذي ألف النسك. يقول البصيري:

ألف النسك والعبادة والخلـ ـــوة طفلاً وهكذا النجباءُ

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاءُ

شهادة من الناس، وشهادة من الزوجة، وشهادة من خالق الناس وبارئ الكون بأسره، فحق لصاحبها أن يكون المصطفى من البشر، والمختار من الخلائق لحمل الأمانة الكبرى التي يريدها الله منار هداية للناس.

(١) القلم: ٤.

الاحتفال بمولده

ينبغي أن يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ويقيموا المهرجانات الكبرى في هذه المناسبة الشريفة التي كانت مبدأ الخير والبركة، ومنشأ السعادة والكرامة للبشرية. وإذا كان الاحتفال لم يرد به أمر في كتاب أو سنة، فإنه أمر محبب ومطلوب يقود المؤمنين إلى حب نبيهم وعترته. وأية مناسبة أحرى بالاحتفاء والاحتفال من هذه المناسبة؟

ليلة المولد الـذي كـان للديــ	**ـــن سـرور بيومــه وازدهــاءُ**
فهنيئـــاً بــه لآمنـــة الفضـــ	**ـل الـذي شـرفت بـه حـواءُ**
من لحواء أنهــا حملـت أحــ	**ـــمد أو أنهـــا بـــه نفســاءُ**
يوم نالت بوضـعه ابنـة وهـب	**من فخار مـا لـم تنلـه النسـاءُ**

على أن إقامة مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تكريم رسول الله، وتعظيم شعائر الله، وهو أمر مطلوب ومحبوب في الشريعة المقدسة؛ قال تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1]. وهو لا يختص بزمان دون زمان، ولا مكان دون مكان؛ فعلى المسلمين في كل زمان ومكان أن يعظموا شأن رسول الله، ويكرموه؛ سواء في حياته أو بعد مماته؛ لما له من فضل عظيم على الناس، ولما له من منزلة عند الله، ولأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

ومعنى الأولوية أنه لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون النبي محمدﷺ أحب إليه من نفسه وأهله وماله وولده. جاء في الحديث عن النبي محمدﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وأبويه، وأهله وولده، والناس أجمعين**». والاحتفال بميلاده لا يعني سوى ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والإشادة بشرفه وفضله، وهي أمور مدحه القرآن الكريم بها؛ إذ قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾(٢) وغير ذلك من الآيات المادحة لرسوله الكريم. فالاحتفاء والاحتفال بمولد خاتم النبيينﷺ إنما هو تكريم لمن كرمه الله وأمر بتكريمه، وحثّ على احترامه وحبه ومودته، وإنه بالتالي أداء شكر الله على تلك الموهبة العظيمة، وتلك العطية المباركة، حيث منَّ سبحانه وتعالى على البشرية عامة وعلى المسلمين خاصة بأن شرّف الأرض بمولد عظيم نعمت الأرض ببركة شخصيته وخلقه، وأشرقت الكائنات بنور رسالته ودعوته.

فأية نعمة أولى بالشكر من هذه؟ وأي شكر أجمل وأفضل من الاحتفاء والاحتفال بمولد هذا النبي العظيم وذكر فضائله ومناقبه، والتعرف عليها، والاقتداء بها، والابتهال إلى الله في يوم ميلاده، وطلب التوفيق الإلهي لمتابعته والسير على نهجه، والدفاع عن رسالته، والذب دون دينه، والصلاة عليه عند ذكر اسمه؟

ولقد درج المسلمون في العصور الإسلامية الأولى على الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، وألفوا الكتب وأنشؤوا القصائد والأشعار الرائعة في مدحه،

---

(١) القلم: ٤.

(٢) الشرح: ٤.

وذكر خصاله ومكارم أخلاقه، والسرور بمولده، والقيام عند الوضع به.

جاء في (السيرة الحلبية): لقد جرت عادة عند كثير من الناس إذا سمعوا بذكر وضع النبيﷺ أن يقوموا تعظيماً لهﷺ. وهذا القيام بدعة لا أصل لها لكنها بدعة حسنة؛ لأنه ليس كل بدعة مذمومة. وقد وُجد القيام عند ذكر اسمه من عالم الأمة ومقتدى الأئمة ديناً وورعاً الإمام تقي الدين السبكي، وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره. فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره، فأنشد منهم منشد قول البوصيري في مدح النبيﷺ:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب   على ورق من خط أحسن من كتب

وأن تنهض الأشراف عند سماعه   قياماً صفوفاً أو جثياً على الركب

يقول: فعند ذلك قام الإمام السبكي وقام معه جميع من في المجلس، فحصل أُنس كبير في ذلك المجلس. ويكفي في مثل ذلك في الاقتداء.

ويقول الإمام أبو شامة ـ شيخ الإمام النووي ـ: ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولد النبيﷺ من الصدقات والمعروف، وإظهار الزينة والسرور، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء مشعر بمحبة النبي وتعظيمه في قلب فاعل ذلك وشكر الله على ما منّ به من إيجاد رسوله الذي أرسله رحمة للعالمين.

ويقول السخاوي: لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون الموالد، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. وهم يعتقدون أن تعظيم رسول اللهﷺ ينطلق من كونه عبداً مطيعاً لله عزّ وجل، أدى رسالته بصدق

وإخلاص، وجسد بسلوكه وسيرته كل مكارم الأخلاق أصدق تجسيد.

فالاحتفال بمولده الكريم احتفال بالقيم السامية، وشكر لله على منّه وإظهار للحب الكامن في النفوس ليس إلا.

أخبار الكهان

روى ابن هشام في السيرة النبوية قال: كانت الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قبل مبعثه لما تقارب من زمانه؛ أما الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، فممّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. وأما الكهان العرب، فبما أتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع؛ إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، ولا تلقي العرب لذلك فيه بالاً حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون، فعرفوها.

فلما تقارب أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وقرب مبعثه، حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت يقعدون فيها لاستراق السمع منها؛ لئلا يشكل الوحي بشيء من خبر السماء؛ فيلتبس على أهل الأرض وما جاءهم من الله فيه لوقوع الحجة وقطع الشبهة، فآمنوا وصدقوا.

وهناك هتافات غيبية شعرية تبشر بمبعث الرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خوطب بها أناس في بدء الإسلام، فاهتدوا بها، وهي معدودة من معاجز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ منها ما رواه البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس أن رجلاً في الجاهلية ضلت له إبل، فخرج إلى الصحراء في طلبها، حتى إذا عسعس عليه الليل، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف به هاتف يقول:

يا أيها الراقد في الليل الأجمْ — قد بعث الله نبياً في الحرمْ
من هاشم أهل الوفاء والكرمْ — يجلو دجنات الدياجي والبهمْ

فجعل ينظر يميناً وشمالاً، فلم يرَ له شخصاً كما سمع له صوتاً، فأنشد مخاطباً له يقول:

يا أيها الهاتف في داجي الظلمْ — أهلاً وسهلاً بك من طيف ألمْ
بين هداك الله في لحن الكلمْ — من ذا الذي تدعو إليه يغتنمْ

قال: فإذا هو يسمع نحنحة، وقائلاً يقول:

ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمداً بالحبور، صاحب النجيب الأحمر، والتاج والمغفر، والوجه الأزهر، والحاجب الأقمر، والطرف الأحور، صاحب قول شهادة: أن لا إله إلّا الله، ذلك محمد المبعوث للأسود والأبيض والأحمر، من أهل المدر والوبر. ثم أنشأ يقول:

الحمد لله الذي — لم يخلق الخلق عبثْ
أرسل فينا أحمدا — خير نبي قد بعثْ
صلى عليه الله ما — حج له ركب وحثْ

وروي عن مازن بن الفضوبة قال: كنت أسدن ـ أي أخدم ـ صنماً بقرية يقال لها سمائيل ـ من بلاد عمان ـ فعترت ذات يوم عند الصنم عتيرة ـ أي ذبيحة ـ فسمعت صوتاً من جوف الصنم يقول: يا مازن اسمع تُسرْ، ظهر خير وبطن شر، بعث نبي من مضر، بدين الإله الأكبر، فدع نحيتاً من حجر؛ تسلم من نار سقرْ.

قال مازن: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: إن في هذا لعجباً.

ثم عترت بعد أيام عتيرة أخرى ـ أي ذبحت ذبيحة أخرى للصنم ـ فسمعت

صوتاً من داخل الصنم يقول:

أقبــــلْ إلــــي أقبــــلْ تســـمع مـــا لا تجهـــلْ

هـــــذا نبــــي مرســــلْ جــــاء بحــــق منـــــزلْ

آمــــنْ بـــه كـــي تعـــدلْ عـــن حـــر نـــار تشـــعلْ

فقلت: إن هذا لعجب، وإنه لخير يراد بي. وبعد أيام قدم علينا رجل من أهل الحجاز، فسألته الخبر، فقال ظهر رجل في مكة يدعو إلى الله يقال له أحمد. يقول: فكسرت الصنم ولحقت بمكة.

وفي (الخصائص الكبرى) عن الجعد بن قيس قال: خرجنا أربعة نفر نريد الحج في الجاهلية، فمررنا بوادٍ من أودية اليمن، وإذا بنا نسمع هاتفاً يقول:

ألا أيها الركـب المعـرس بلغـوا إذا مـا وقفـتم بـالحطيم وزمزمـا

محمـــداً المبعـــوث منـــا تحيـــة تشـيعه مـن حيـث سـار ويممـا

وقولــوا لــه إنــا لــدينك شــيعة بذلك أوصانا المسـيح بـن مريمـا

وروي عن لقمان بن عمر أنه قال: سمعت أبا إمامة يقول: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : ما كان بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾[١]، وبشارة أخي عيسى عليه السلام : ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٢]، ورؤيا أمي آمنة حين حملت بي رأت أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصـرى من أراضي الشام وسمعت هاتفاً يقول:**

صــلى الإلــه وكــل عبــد صــالح والطيبــون علــى الســراج الواضــحِ

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) الصف: ٦.

المصـــطفى خيـــر الأنـــام محمـــد   الطـــاهر العلـــم الضـــياء اللائـــحِ
زين الأنام المصطفى علـم الهـدى   الصـــادق البـــر التقـــي الناصـــحِ
صـــلى عليـــه الله مـــا هبّـــت صـــبا   وتجاوبـــت ورْق الحمـــام النـــائح»

والبوصيري يقول:

وتوالت بشرى الهواتـف أن قـد   ولـــد المصـــطفى وحـــق الهنـــاءُ
وتـــداعت قصـــور قيصـــر بـــالرو   م يراهـــا مَـــن داره البطحـــاءُ
وتغنـــت بمدحـــه الجـــن حتـــى   أطـــرب الإنـــس منـــه ذاك الغنـــاءُ

قريش تبني الكعبة

الكعبة المشرفة بقعة من الأرض وسط الوادي الأجرد، تحفّ بها الصخور السوداء و الجبال الشم، منذ جعل البيت هناك مثابة للناس، وأمناً، وحرماً وملاذاً يطمئن فيه الخائف، ويأمن لديه المروع، ويحقن عنده الدم المهدور، وتحمى في حماه حياة كانت إذ ذاك مستباحة في شرعة الصحراء، وبضراوة البيداء: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾**[1].

وكانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف مثابة عبادة، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة؛ ولذا فهم ينثالون إليها حجّاجاً ضارعين، ويلوذون بها داعين مبتهلين، قد هانت لديهم الأرض إلّا موضعاً، وعز الأمان إلّا في مكان. ومن ثم يمضي مؤرخونا القدامى ورواتنا الأوائل فيملؤون الأسفار بالحديث عن حرمة ذلك البيت العتيق، كيف عظمت وجلّت، وعن مكة في عهدها الجديد كيف تسامت إلى المنزلة الرفيعة التي بقيت لها على مر الحقب، وتتابع الأجيال، وما تزال الدنيا تقف خاشعة أمام ذلك الجلال الذي استأثرت به مكة دون سواها من مدائن كبيرة، وحواضر أجمل منظراً، أو أرغد عيشاً، وأخصب أرضاً.

يقول ابن إسحاق: وكانت مكة لا يقرّ فيها ظلم ولا بغي، ولا يبغي فيها أحد إلّا أخرجته، ولا يريدها ملك يستحلّ حرمتها إلّا هلك مكانه. فيقال: إنها ما سميت ببكة إلّا لأنها كانت تبكّ ـ أي تكسر أعناق الجبابرة ـ إذا أحدثوا فيها شيئاً.

---

(١) ال عمران: ٩٦.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١].

وطال المدى، ومكة مهوى الأفئدة وقبلة العرب، لا تكاد بقعة أخرى تطمع في منافستها، أو تطمع في انتزاع مجدها حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى، وكانت خدمة الكعبة نذراً غالباً تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان.

وأجمعت قريش على أن تهدم الكعبة، وتعيد بناءها بعد أن طال ترددها في ذلك تهيباً وتحرجاً، وكانت الكعبة قد أضرت بها شرارة طارت من مجمرة ـ إحدى النسوة ـ فأحرقت ستائرها، وأوهت بنيانها، ثم إنحدر سيل دافق من الردم الذي بأعلى مكة، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق، ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة اليدين ما تدري ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذي جعل من مكة مركز حج العرب جميعاً، ومهوى أفئدتهم، وأنزل قريشاً بحكم جوارها للحرم منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها، فهي تخشى الإقدام على هذا الأمر؛ لما للكعبة من قدسية ومهابة، فهي بيت الله الحرام الذي يأتيه الناس حاجين متبركين من أيام إبراهيم وإسماعيل، وتخشى أن يمنعهم الله.

أجل توجّلوا من هدمها وإعادة بنائها، ولكن السيل خرّبها، فأصبح مفروضاً على قريش هدمها وبناؤها من جديد كيفما كانت الحال. فاجتمعت قريش وقرروا هدم الكعبة وبناءها من جديد، واشترطت ألّا ينفق مال في سبيل بنائها إلّا إذا كان مالاً طيباً لا يخالطه أي خبث في دية دمٍ هُدِر، أو ربا مال أُخِذ، أو مهر امرأة استُحِلّ، أو مظلمة أحد من الناس، حتى يتقبل الله العمل ويكون خالصاً لوجهه تعالى.

---

(١) الحج: ٢٥.

فتسابقت القبائل لتنال شرف الاشتراك في إعادة بناء الكعبة بعد أن عزمت قريش بنيّة خالصة، وبعزيمة صادقة على إعادة بنائها، فاقتسمت جوانبها أربعة أقسام، لكل جماعة جانب تقوم بهدمه وبنائه، فكان لبني عبد مناف وزهرة الجانب الشرقي الذي فيه باب الكعبة، ولبني مخزوم ومن انضم إليهم من بطون قريش الجانب الجنوبي بين الركن الأسود والركن اليماني، ولبني جمح وسهم الجانب الغربي ظهر الكعبة. ولبني عبد الدار وبني أسد وبني عبد العزى أبناء قصي الجانب الشمالي حجر إسماعيل، وهو الحطيم.

وتمت القسمة، وكان قد سبقها العزم، ولكن من يقدم على الهدم وضرب المعول؟ فالخوف والرهبة ما زالا يسيطران على النفوس، ولا أحد يجرؤ على البدء. وتظل قريش تتردد حتى يقدم الوليد بن المغيرة المخزومي فيأخذ المعول ويبدأ ببعض من جانب الركن اليماني، وهو يقول: اللهم لم ترع، إنما نريد الخير. ثم أهوى بالمعول، والقوم ينظرون إليه مرتاعين خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعاً، فلما لم يصبه سوء اطمأنوا. إلّا أنهم مع ذلك أبوا إلّا أن يتربصوا ليلتهم تلك، وقالوا: ننظر؛ فإن أُصيب، لم نهدم منها شيء ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا من هدمها.

حتى إذا أصبح ولم يصبه أذى، وعاد إلى عمله كيومه السابق، اندفع الجميع من قريش إلى الهدم؛ إذ هُم أحقّ بهذا الشرف من سائر قبائل العرب. حتى انتهى الهدم إلى حجارة صغيرة يقال: إنها أساس إبراهيم، فضربوا عليها بالمعول، فارتدَّ عنها، فاتخذوها أساساً للبناء فوقه. وتنافست القبائل في جمع الحجارة لبناء الكعبة كلّاً على حدة، وشارك النبي محمدﷺ في ذلك العمل المجيد، فكان ينقل الحجر مع الناقلين.

وراح كل بطن من قريش يرفع قسمه من البناء، حتى صار في طول قامة الرجل، ولمّا آن أوان وضع الحجر الأسود مكانه اختصمت قبائل قريش في وضع الحجر مكانه، فكلّ قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه إلى موضعه.

ونشب الخلاف بين بطون قريش، وشدت الخصومة عدة أيام، حتى كاد القتال أن يقع، وتزهق الأرواح لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ـ المعروف بزاد الراكب، وكان يومها أسن قريش كلها، وهو والد أم المؤمنين أم سلمة زوج الرسول المصطفىﷺ ـ دعا إلى اجتماع عقد داخل الحرم، فلما اجتمعوا، قام فيهم خطيباً يدعو إلى الوفاق والوئام، وعرض على الجميع الحل الذي ارتآه؛ أملاً أن ترضى به الأطراف كافة، فقال: يا معشر قريش، إن رأيتم أن تجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد ليقضي بينكم، وأشار إلى باب الصفا.

فقبلوا قوله، وسكن حماس القوم، وهدأ الغضب في النفوس، وتوجهت الأنظار نحو باب الصفا تترقب الحكم المجهول. وبينما هم كذلك إذ أقبل رجل شاب وسيم تام الفتوة، متّزن الخطا من غير تكلّف، بهيّ الطلعة ذو جِدّ ووقار، فهتفوا جميعاً لما رأوه: يا الله إنه الصادق الأمين، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي، رضينا بحكمه ولا أعدل من حكمه.

ولما انتهى إليهم، أقبلوا عليه وحدّثوه بما اشتجر بينهم من خلاف، فطلب ثوباً، فجاؤوا بثوب فبسطه على الأرض، وأخذ الحجر بيده ووضعه في الثوب والجميع ينظرون إليه، ثم قال: «**ليأخذ رئيس كل قبيلة بطرف من أطراف الثوب وارفعوه جميعاً**». ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكانه تناوله بيده من الثوب ووضعه مكانه في موضعه، فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبيﷺ حجراً يشد به الركن، فقال له النبيﷺ: «**لا يبني معنا إلّا من كان منا**».

فدفعه العباس بن عبد المطلب، وناول النبي صلى الله عليه وآله حجراً دعم بناءه، فغضب النجدي وقال: عجباً لقوم أهل شرف وعقول ومال عمدوا إلى أصغرهم سناً، وأقلهم مالاً، فرأسّوه عليهم في مكرمتهم، أما واللات والعزى ليفوقنهم سبقاً، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن كبير، ونبأ عظيم. وكان أبو طالب حاضراً يسمع كلامه في ابن أخيه ـ ويقال: إنه ابليس ـ فجعل يقول:

إن لنـــا أولـــه وآخـــره ... في الحكم والعـدل الـذي لا ننكـره

وقــد جهــدنا جهــدنا لنعمــره ... وقــد عمرنــا خيــره وأكثــره

فإن يكن حقاً ففينا أوفره

وبذلك ساهموا جميعاً في حمل الحجر الأسود، ونالوا بذلك الشرفَ الذي لا يحدّ. وبهذا الحكم حسم محمد خلاف القوم، وقضى بذلك بينهم قضاء حقن لهم دماءهم؛ مما جعل صيته تتحدث به أندية مكة وغيرها، وبلغ صيته النساء القرشيات فأعجبن به، ومن بينهن خديجة. لقد نجت قريش مما كان يتهددها من حرب ودمار، ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشي هبيرة بن أبي وهب المخزومي ببشرى نجاة قريش على يد الأمين محمد صلى الله عليه وآله الذي حماه الله وصانه من صغره، وطهره من دنس الجاهلية ومن كل عيب، ومنحه من كل خلق جميل أوفره حتى لم يكن يعرف بين قومه إلّا بالصادق الأمين، يقول هبيرة:

تشاجرت الأحياء في فضـل خطـة ... جرت بينهم بالنحس من بعـد أسـعدِ

تلاقـوا بهـا فـالبغض بعـد مـودة ... وأوقـد نـاراً بيـنهم شـر موقـدِ

فلمـا رأينـا الأمـر قـد جـد جـده ... ولـم يبـقَ شـيء غيـر سـلّ المهنـدِ

رضـــينا وقلنـــا العـــدل أول طـــالع   يجيء من البطحـاء مـن غيـر موعـدِ

ففاجأنـــا هـــذا الأمـــين محمـــد   فقلنـــا رضـــينا بـــالأمين محمـــدِ

وعادت قريش إلى العمل حتى أتموا بناء الكعبة، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلّا بدرج أو سلّم.

وعادت الكعبة بيت الله حرماً آمناً، وستظل بيت الله الحرام على قدسيتها وطهارتها مثابة للناس وأمناً.

هذه هي مكة منبت آمنة ابنة وهب والدة اليتيم الذي بُعث في رحابها، فأيد مبعثه ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلاً بعد جيل، واتخذ الإسلام من الكعبة التي تعبّد فيها الخليل إبراهيم قبلته التي يولي المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وأنى قاموا، ما عبد الله في الأرض. أجل هي مكة بلد آمنة، ومهد ولدها الوحيد، ومثابة آبائه وأجداده، ودار مبعثه، وقبلة القوم الذين آمنوا به أمس واليوم وغداً وإلى الأبد.

حلف الفضول

إن التضامن عند العرب مألوف ومعروف ومشهور، بحيث لا يُنكب فرد من قبيلة بمظلمة إلّا وتهب القبيلة بجملتها للانتصار له من ظالمه ورد مظلمته. ولا يقتصر هذا التضامن على أفراد القبيلة الواحدة، بل تتعداه إلى الانتصار إلى الجوار أيضاً الذي هو من عاداتهم المحمودة. ويدل على ذلك: الحلف الذي عقده أبناء عبد المطلب على نصرة كل مظلوم بمكة المكرمة قبل مبعث الرسول الأعظمﷺ بعشرين سنة في شهر ذي القعدة بعد حرب الفجار بأربعة أشهر؛ لمحاربة البغي والعدوان، ووضع حد لغطرسة القرشيين واعتداءاتهم المتكررة على الوافدين إلى بيت الله الحرام من حجاج ومعتمرين. ولما سمعت قريش بهذا الحلف سمته حلف الفضول؛ لأنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

يقول ابن قتادة: إنما سمي هذا الحلف بحلف الفضول؛ لأنه أشبهَ حلفاً تحالفه الجرهميون يدعى بحلف الفضول، وكان هذا الحلف يهدف إلى الدفاع عن حقوق المظلومين. وكان المؤسسون لهذا الحلف ثلاثة نفر من أشرافهم اسم كل واحد منهم، فضل: فضل بن فضالة، وفضل بن وداعة، وفضل بن الحارث.

وحيث إن الحلف الذي عقدته جماعة من قريش فيما بينها كان متحداً معه في الهدف؛ فلذلك سمي هذا الاتفاق بحلف الفضول. فالفضول جمع فضل، وهي أسماء أولئك الذين ذكرناهم آنفاً.

والحلف في الأصل اليمين والعهد، وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمع به،

وأشرفها في العرب.

وكان أول من تكلم به، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان السبب في ذلك أن رجلاً من بني زبيد من اليمن قدم مكة المكرمة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان من زعماء قريش، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عن الزبيدي ثمنها. فلما يئس الزبيدي، استعدى عليه جميع الأحلاف بمكة: حلف بني عبد الدار، وحلف بني مخزوم، وحلف بني جمح، وحلف بني سهم، وحلف بني عدي بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاص ابن وائل، وسفهوه وانتهروه، فلما رأى الزبيدي الشر أقبل وصعد على جبل أبي قبيس ـ وهو جبل عالٍ بمكة ـ عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، وصاح ينادي بأعلى صوته في قريش؛ كي تهب لإعانته ورفع الظلم عنه:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفرِ
ومحرم أشعث لم يقضِ عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجرِ
هل مخفر ليَ من سهم لخفرتهم ... فعادل أو حلال مال معتمرِ
إن الحرام لمن تمت مكارمه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدرِ

فاهتزّت قريش لهذه الأبيات، وثارت في نفوس القرشيين الحمية؛ إذ لا يمكن أن تسلب بجوار بيت الله الحرام الأموال، ولا أن تضيع في كنفه الحقوق، وهذا نداء رجل ضاع حقه، فهل يقعدون عن الاستجابة لندائه؟ فهب أبناء عبد المطلب بدعوة من أخيهم الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وقام مغضباً وهو يقول: والله ما لهذا مترك. وأنشد يقول:

حلفت لنعقدَنْ حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهلَ دارِ

نسـمّيه الفضـول إذا عقـدنا ... يعزّ بـه الغريـب لـذي الجـوارِ
ويعلم من حـوالي البيـت أنّـا ... أُبـاة الضـيم نمنـع كـل عـارِ

وجعل يدعو الناس إلى عقد حلف ينصرون به المظلوم على الظالم.

واجتمعوا في دار الندوة ـ وكانت للحل والعقد ـ فاجتمع إليه بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو عبد مناف، وبنو عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو كلب، وبنو تيم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر، ثم قاموا جميعاً إلى دار عبد الله بن جدعان أحد بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي؛ لشرفه وسنه ـ وكان صاحب نخوة وكرم، يطعم الطعام، ويقرئ الضيف، وكان له جفنة يأكل منها الراكب وهو على بعيره، ويقال: إنه سقط فيها صبي دون العاشرة وغرق فيها ومات. وفي السيرة الحلبية عن النبي محمدﷺ أنه قال: «**كنت استظل بجفنة عبد الله بن جدعان عن الهاجرة**». وقال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان:

لــه داعٍ بمكــة مشـمعلّ ... وآخر فـوق كعبتهـا ينـادي
إلى ردُحٍ مـن الشـيزى عليهـا ... لباب البـر يلبـك بالشـهاد[1]

فصنع لهم طعاماً ـ وكان في شهر ذي القعدة من الأشهر الحرم ـ وتحالفوا وتعاقدوا وتعاهدوا بالله العظيم على ألّا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، وأن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم حتى يؤدّى إليه حقه، وعلى الظالم حتى يرتد عن ظلمه، وألّا يجدوا بمكة من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس مظلوماً إلّا قاموا معه، وكانوا له عوناً على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، ويؤدّى إليه

---

(١) معنى الرداح الجفان العظيمة وواحدها ردح.
والشيزا الخشب الذي تصنع منه الجفان (ابن هشام).

حقه ما بلّ بحر صوفة، وما رسا جبلاً حراء وثبير مكانيهما. فقال الزبير في ذلك معتزاً:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ... ألّا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجار والمعترّ فيهم سالم

ولقد شهد النبي محمدﷺ هذا الحلف وهو ابن عشرين سنة، وشارك أعمامه في الدعوة إليه وفي عقده، وكان محبباً إلى نفسه التي تكره الظلم وأصحابه، وتحن إلى نصرة المظلوم وإنصافه. ولشدة ما أثر فيه هذا الحلف فإنه لم ينسَه في حياته، فكان يقول بعد بعثته: «**ما أحب أن لي بحلفٍ حضرته في دار عبد الله بن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت**».

وأقامت قريش على الوفاء لحلفها، ونفذته فور انعقاده، فمشى منهم جماعة شاهرين سيوفهم إلى دار العاص بن وائل، وانتزعوا منه سلعة الزبيدي ودفعوها إليه.

إن التجاوزات التي كانت تصدر من فتيان قريش على الوافدين لم تكن لتقف عند حد لولا حلف الفضول الذي وقف أعضاؤه بحزم في وجه أُولئك المعتدين. ومن جملة حوادث تلك الاعتداءات ما رُوي عن قاسم بن ثابت أن رجلاً من خثعم دخل مكة حاجاً ومعه ابنة له تدعى القتول ـ وهي فتاة رائعة الجمال، من أحسن النساء وجهاً، وأعذبهن كلاماً ـ فلما رآها نبيه بن الحجاج أحبها وشغف بها، فغلب عليها أبويها، وأخذها منهما عنوة إلى منزله.

فنادى الخثعمي من يعدّيني على هذا الرجل؟ فقيل له: عليك بحلف الفضول. فجاء ووقف عند الكعبة ونادى: يا آل حلف الفضول. فتواثبوا إليه من كل

جانب، وقد انتضوا أسيافهم يقولون: جاءك الغوث، فما لك؟ قال: إن نبيهاً ظلمني في ابنتي، وانتزعها مني قسراً. فساروا معه حتى وقفوا على باب نبيه، ونادوه أن يخرج ويرد الفتاة إلى أهلها، وقالوا له: قد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه. فقال نبيه: اتركوها عندي الليلة. فقالوا له: ما أجهلك! والله ولا حلب ناقة. وأخذوا الفتاة منه، وأعادوها إلى أبويها قبل أن يمسها. وجعل يخاطب نفسه ويقول:

راح صبحي ولم أحيِّ القتولا ... لم أودعهُمُ وداعاً جميلاً

إذ بدا للفضول أن يمنعوها ... قد أراني ولا أخاف الفضولا

لا تخالي أن العشية راح الـ ... ـركب هنتم علي ألا أقولا

ثم أنشد متأسفاً:

لولا الفضول وحلفها ... والخوف من عدوائها

لدنوت من أبياتها ... ولطفت حول خبائها

وشربت فضلة ريقها ... ولنمت في أحشائها

فقوم يعقدون مثل هذا الحلف لأن واحداً من وجهائهم حبس حق تاجر غريب وهم في جاهلية لا يعرفون فيها الحرام من الحلال، ولا شريعة لهم تأمرهم بمعروف وتنهاهم عن منكر لخليق بهم أن تحترم ضمائرها الطاهرة، ونفوسهم العالية، وأخلاقهم الرفيعة.

ويبقى لحلف الفضول صورة طيبة في الأذهان إلى ما بعد ظهور الإسلام بزمن طويل؛ لأنه يلتقي في أهدافه مع أهداف الإسلام ومقاصده.

أبو جهل والإراشي

في السيرة عن ابن إسحاق قال: قدم رجل من إراش يقال له إراشة ـ بكسر الهمزة؛ نسبة إلى إراشة بطن من خثعم ـ بإبل إلى مكة المكرمة، فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادٍ من أندية قريش، ورسول الله في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش، من يساعدني على استرداد حقي من أبي الحكم بن هشام؛ فإني رجل غريب، وابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟ فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس بفناء الكعبة؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ ـ وكان قصدهم الاستهزاء بالرجل؛ لعلمهم بأن محمداً لا قدرة له على أبي جهل؛ لما يعلمونه ممّا بينه وبين أبي جهل من العداوة ـ قال: نعم. قالوا: اذهب إليه؛ فإنه يساعدك عليه.

وكان عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي أشد الناس عداوة للنبي محمد ﷺ في صدر الاسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. قال في عيون الأخبار: سودت قريش أبا جهل، ولم يطرّ شاربه، فأدخلته دار الندوة مع الكهول، وكان يقال له أبو الحكم، فدعاه المسلمون أبا جهل، يقول حسان:

الناس كنوه أبا حكمٍ ... والله كناه أبا جهلِ

وقد سأله الأخنس بن شريق الثقفي ـ وكان قد استمع شيئاً من آيات القرآن الكريم يتلوها النبي محمد ﷺ ـ: ما رأيك يا أبا الحكم فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان

قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه. واستمر على عناده يثير الناس على محمد رسول الله وأصحابه، لا يفتر عن الكيد، لهم والعمل على إيذائهم، حتى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها.

فأقبل الإراشي حتى وقف على رأس النبي محمدﷺ وهو لا يعرفه، فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم عمرو بن هشام قد غلبني على حق لي قبله، وأنا رجل غريب، وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يساعدني عليه يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك؛ فخذ لي حقي منه يرحمك الله. فقام معه النبيﷺ، فلما رأوه قام معه، قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه وانظر ماذا يفعل. فأقبل رسول الله مع الإراشي حتى جاء دار أبي جهل، فطرق عليه بابه فقال: من الطارق؟ قال: «**محمد بن عبد الله**».

فخرج إليه وما في وجهه بقية من روح، وقد اصفر لونه، فقال له: «**أعطِ هذا الرجل حقه**». قال: نعم. فدخل وخرج وفي يده ثمن الجمال ودفعها إلى الرجل. فقال النبي للإراشي: «**استلمت مالك من حق، فالحق بشأنك**». وعاد رسول اللهﷺ إلى مجلسه، وأقبل الإراشي حتى وقف على أهل ذلك المجلس وقال: جزاه الله خيراً؛ فقد والله أخذ لي حقي. وجاء الرجل الذي بعثوه معه، فقالوا له: ويحك ماذا رأيت؟ قال: رأيت واللات عجباً، ما هو إلّا أن طرق عليه محمد الباب، فخرج إليه وما معه روحه، فقال له: «**أعطِ هذا حقه**». فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه. فدخل مسرعاً وجاء إليه بثمن الإبل وأعطاه إياه.

قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له ـ وهم مندهشون ـ: ويلك يا أبا

الحكم، ما رأينا مثل ما صنعت اليوم قط. قال: ويحكم، ما هو إلّا أن ضرب علي بابي، وسمعت صوته، حتى ملئت رعباً، وخرجت له بدون روح، فرأيته وإن على رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه، ولو أبيت لأكلني. يقول البصيري في قصيدته:

وقضاء النبي دين الإراشي — ولقد ساء بيعه والشراءُ
ورأى المصطفى أتاه بما لم — ينجُ منه دون الوفاء التجاءُ
هو ما قد رآه من قبل لكن — ما على مثله يعدّ الخطاءُ

حكومة مكة وزعماء قريش

للنسابين خلاف طويل في تسمية قريش؛ فقائل: إن النضر بن كنانة اسمه قريش، والنضر لقب له فمن كان من ولده فهو قرشي. وفي ذلك يقول جرير بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان:

فما الأم التي ولدت قريشاً ... بمقرفة النجاد ولا عقيمِ

وما قوم بأنجب من أبيكم ... ولا خال بأكرم من تميمِ

يقول ابن هشام: يعني بذلك أم النضر بن كنانة ـ وهي برة بنت مر أُخت تميم ابن مر ـ وقيل: فهر بن مالك اسمه قريش، وفهر لقب له، ومن كان من ولده فهو قرشي. وقيل: اسمه فهر، وإنما سمي قريشاً؛ لأنه كان يقرش ـ أي يفتش على حاجة المحتاج من الناس فيسدها بماله ـ فسمي قريشاً.

وقيل: قريش اسم لشخص يدعى قريش بن بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة، المكي ولادة ونشأة، وكان يعمل دليلاً لبني كنانة في تجاراتهم، فإذا أقبل في قافلته قالوا: قدمت عير قريش، وإذا ذهبت القافلة قالوا: ذهبت عير قريش، فغلب لفظ قريش على من كان في عهده من بني النضر بن كنانة، فسموا قريشاً.

وابنه بدر هو الذي حفر البئر المنسوبة إليه في الموضع التي كانت عندها واقعة بدر العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

وقيل: سميت قريشاً من التقرّش، وهو التكسب والتجارة، كما حكاه ابن هشام. وقال الجوهري: القَرش: الكسب والجمع، وبه سميت قريش قريشاً. قال اليشكري:

إخوة قرَّشوا الذنوب علينا   من حديث من دهرنا وقديم

وقال الزبير بن بكار: قريش: تصغير قرش ـ وهي دابة في البحر من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلّا أكلته ـ يقول الجمحي:

وقريش هي التي تسكن البحـ   ـر بها سميت قريش قريشاً

ويقال أن قصي بن كلاب هو أول من لقب بقريش؛ لأن اشتقاق قريش من التقرش والتجمع بعد التفرق، فلقب قصي بذلك؛ لأنه عندما حاربته خزاعة جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال، وأسكنهم مكة لتقوى بهم عصبته؛ فسمي مجمِّعاً، وإلى ذلك يشير حذافة العدوي:

أبوكم قصي كان يدعى مجمّعاً   به جمَّع الله القبائل من فهرِ

فجمعهم قصي بعد تفرقهم إلى اثنتي عشرة قبيلة، وأسكنهم من مكة بطاحها وظواهرها، وأمر من بالبطاح أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم حول البيت، وقال لهم: إن فعلتم ذلك هابتكم العرب، ولم تستحل قتالكم. فبنوا حول البيت من جهاته الأربع، وجعلوا أبواب بيوتهم جهة الكعبة، ولكل بطن منهم باب ينسب إليه، وتركوا قدر الطواف بالبيت، فأطلق على من سكن البطاح قريش الأباطح، على ومن سكن الظواهر قريش الظواهر، والأولى أشرف من الثانية، ومن الأولى بنو هاشم، وإلى ذلك يشير الشاعر بقوله:

من بني هاشم بن عبد مناف   وبنو هاشم بحار الحياءِ
من قريش البطاح من عرف النا   س لهم فضلهم بغير امتراء

وقال ذكوان للضحاك بن قيس الفهري حين اعتدى عليه وضربه:

فلو شهدتني من قريش عصابة   قريش البطاح لا قريش الظواهرِ

فبنو هاشم بن عبد مناف أشرف فرع من فروع قبيلة قريش بل أشرف القبائل العربية بأجمعها؛ لأنها قبيلة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه نزلت بجوار الحرم المكي الشريف، فتحضرت وقبضت على زمام الأمور، ويقال لها: قريش الأباطح، ويعرفون أهل الله.

يقول الثعالبي في كتابه (ثمار القلوب): «كان يقال لقريش في الجاهلية: أهل الله؛ لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم والفضائل والخصائص:

فمنها: مجاورتهم بيت الله.

ومنها: ما تفردوا به من الإيلاف والوفادة والرفادة والسقاية والرياسة واللواء والندوة.

ومنها: كونهم على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل؛ من قِرى الضيف، ورفد الحاج، والمعتمرين.

ومنها: كونهم قبلة العرب، وموضع الحج الأكبر، يؤتون من كل أوب بعيد وفج عميق، فترد عليهم الأخلاق والعقول، والآداب والألسنة واللغات، والعادات؛ فلذلك صاروا أدهى العرب، وأعقل البرية، وأحسن الناس بياناً، وصار أحدهم يوزن بأُمة من الأمم.

وكانوا يعرفون آل الله، وسكان الله وجيران الله. يقول عبد المطلب:

نحن آل الله في بلدته ... لم يزل ذاك على عهد ابرهَمْ
نعبد الله وفينا سنة ... صلة الرحم وإيفاء الذممْ
لم تزل لله فينا حجة ... يدفع الله بها عنا النقمْ

وهؤلاء تقاسموا حكم مكة التي هي مقر الكعبة محاجّ العرب جميعاً على ما يقرب من الحكم الجمهوري المعروف في زمان الناس. وبقي هذا التقسيم ساري

المفعول إلى زمن ظهور الإسلام.

فاختص بنو هاشم بالسقاية ـ وهي أهم الوظائف لذلك العهد؛ لما نعلمه من قلة المياه في مكة ـ إذا رأوا أن يناط أمر سقاية الحاج بأكبر قبيلة في العرب نفوذاً؛ حتى لا يقتتلوا على المياه في الأشهر الحرم، المحرم فيها القتال. كما اختصوا أيضاً بالسدانة ـ ومعناها خدمة الكعبة وحفظ النظام في الكعبة في زمن الحج ـ فعليهم أن يراقبوا الحجاج، ويمنعوهم عن بذيء القول، ورفع الصوت أو التزاحم.

واختص بنو أُمية بالراية ـ وتسمى العقاب ـ وهي راية قريش الكبرى، وهي التي يرفعها القوم على رمح، وتكون علامة على إعلان قتال العدو، فيجتمعون تحتها. فإذا ما وقعت الحرب أعطوها لمن يثقون به من أولئك الرؤساء، وقدموه عليهم في الحرب. وبقوة هذه الراية جمع أبو سفيان العرب على حرب النبوة.

واختص بنو نوفل بالرفادة ـ وهي ما يجمع من الطعام للحجيج يأكل منه من لم تكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم ـ ورفد المنقطعين من الحاج، وإعادتهم إلى مواطنهم.

واختصت بنو عبد الدار بالحجابة ـ ومعناها خدمة الكعبة، وحفظ مفاتيحها ـ وكذلك كانت فيهم الندوة، وهي الدار التي كانت قريش ينتدون فيها، أي يجتمعون فيها للتشاور للخير والشر.

واختص بنو أسد برئاسة الشورى، فكانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب المشورة؛ فإن أعجبهم وافقهم عليه، وإلا تخير، وكانوا له أعواناً فيما يختار.

واختص بنو تيم بالأشناق ـ وهي جمع المال والجمال؛ لمساعدة من يحمل غرماً أو دية من قريش ـ توسلاً لحقن الدماء وحفظ كرامة قريش.

واختص بنو مخزوم بالقبة، وذلك أن قريشاً عندما تهبّ إلى حرب يضرب لهم زعيم بني مخزوم قبة يجمعون إليها عُدَدَهم الحربية، وتجهيزاتهم العسكرية، كما لهم الأعنة ـ وهي رأسة الخيالة ـ فكان زعيم بني مخزوم يعتني بالخيالة في الجيش، ويقودهم إلى القتال.

واختص بنو عدي بالسفارة، ويراد بها مخابرة الأعداء؛ لإشهار حرب، أو تلافيها أو عقد صلح، أو غير ذلك.

واختص بنو جمح بالأزلام والأقداح، كانوا يضربون بها إذا أرادوا أمراً خطيراً، وهي من خرافات العرب وجاهليتهم، وقد حرمها الإسلام.

وعلى هذا التقسيم كانت قريش تدير شؤون العرب، وتدبر شؤونهم، وتحكمهم، فإذا كان المجد العربي الأسمى قد انتهى في الجاهلية إلى بني هاشم، فقد ابتدأ من هذا البيت الكبير مجد أسمى لا يدانيه مجد الدنيا والآخرة بالنبوة، إذ اختص الله بها سيدنا محمد بن عبد الله، فكان خاتم النبيين، وسيد المرسلين.

ديانات العرب

اهتم الباحثون اهتماماً كبيراً بالمعتقدات الدينية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. وذهبوا في ذلك مذاهب كثيرة بعضها يميل إلى الاعتدال، وبعضها يغلب عليه التعصب. ولن ننسى أن القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف قد صوّرا لنا مذاهب العرب ومعتقداتهم الدينية أصدق تصوير؛ فهذه الصديقة الزهراءعليها السلام تقول في خطبتها: «**فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عُكّفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمدصلى الله عليه وآله ظُلَمَها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلّى عن البصائر غممها، وقام في الناس بالهداية وأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم**».

لقد فهرست الصديقة الزهراء لنا حياة البشرية برمتها قبل أن يصدع أبوها القائد برسالته السماوية المباركة؛ فهناك الذين فرّقوا دينهم شيعاً، وأخضعوه لمتطلبات شهواتهم ورغباتهم كاليهود والنصارى، وهناك العاكفون على الأوثان، الخاضعون للأصنام التي صنعوها بأيديهم، واتخذوها آلهة من دون الله سبحانه، معتقدين بقدرتها على الخلق والإبداع، والرزق، والتوفيق، والنصر. وهذا ما كانت عليه الجزيرة العربية حيث إن العرب لها نوع من التدين، فملؤوا بيت الله الحرام بركام من الأحجار والصخور، دعوها آلهة تقربهم بزعمهم إلى الله زلفى.

إن الوثنية كانت العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية، وقد تفشّت فيهم في مظاهر متنوعة ومتعددة، وكانت الكعبة المعظمة محط العرب في الجاهلية، وموضع آلهتهم المنحوتة. وقد كان لكل قبيلة في هذا البيت صنم، وبلغ عدد الأصنام الموضوعة في ذلك المكان المقدس ٣٦٠ صنماً في مختلف الأشكال والهيئات والصور. وأهمها هبل، وهو صنم على صورة إنسان نحت من عقيق أحمر، وقد كسرت يده اليمنى فجعلت له قريش يداً بديلة من ذهب. أما النصارى فقد نقشوا على جدران البيت وأعمدته صوراً لمريم والمسيح والملائكة.

إن أرض الجزيرة العربية برمتها كانت قد أصبحت مسرحاً للأصنام، ومستودعاً ضخماً للأوثان، وحتى بيت الله الحرام كان قد تحوّل إلى مخزن للنصب المؤلهة، والتماثيل المعبودة. وتجلى هذا الأمر من قول السيد قصي بن كلاب، وكان ينهى عن عبادة الأصنام:

أربّاً واحداً أم ألف ربٍّ ... أدينُ إذا تقسمت الأمورُ

عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبورُ

فلا العزى أدين ولا مناة ... ولا صنمي بني عمرو أزورُ

ولا هبلاً أدين وكان رباً ... لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ

ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الرب الغفورُ

فتقوى الله ربِّكُمُ احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا

ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية سعيرُ

وخزي في الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدورُ(١)

(١) في هذا البيت دلالة على إيمانهرحمه الله بالمعاد والقيامة.

وقيل: هذه الأبيات لزيد بن عمرو بن نفيل.

يقول المسعودي في كتابه (مروج الذهب): لقد اختلفت عادات العرب في عبادة الأوثان، وتفاوتت تقاليدهم في درجات تقديسها، على الرغم من جليل المكانة التي كانت لها في النفوس، والمهابة التي غرستها في العقول، [فهم كما قالت الصديقة الزهراء: «**فرقاً في أديانها**»]. فهم أصناف في معتقداتهم الدينية، لاسيما قضية البعث، والحياة والآخرة، والخلود، والثواب والعقاب، وما إلى ذلك من القضايا التي لامست مشاعر الإنسان.

يقول الشهرستاني: فصنف منهم أنكر الخلق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المغني، وهم الذين حكى الله إلحادهم، وخبّر عن كفرهم بقوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[١]، ورد الله عليهم بقوله في السورة نفسها: ﴿**وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾[٢].

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق، ونوع من الإعادة، وأنكروا الرسل، وعكفوا على عبادة الأصنام، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة، وحجوا إليها، ونحروا لها الهدايا، وقربوا القرابين، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر، وأحلوا وحرموا. وقد أخبر عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾[٣].

وصنف منهم أقروا بالخالق، وابتداء الخلق والإبداع، وأنكروا البعث

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) الجاثية: ٢٤.

(٣) الزمر: ٣.

والإعادة. قال شاعرهم:

حيـاة ثـم مـوت ثـم نشـر	**حديث خرافـة يـا أم عمـرو**

في (تفسير العياشي) عن الحلبي عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام قال: جاء أُبي بن خلف إلى رسول الله، وفي يده عظم قد رم، ففتّه بين يدي النبي محمدﷺ، ثم داره في الهواء، وقال: يا محمد، ﴿**أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**﴾[1]؟ فقال النبيﷺ: «**نعم وأنتم داخرون**» ـ أي صاغرون ـ «**ويبعثك الله ويدخلك النار**». فنزل الأمين جبرئيل على النبي محمدﷺ بهذه الآية: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾[2]، فأجابه القرآن الكريم في السورة نفسها: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[3]. فولى وهو يقول:

أيوعدنا ابن كبشـة أن سـنحيا	**وكيف حيـاة إصـداء وهـامِ**
أيعجـز أن يـرد المـوت عنـي	**وينشرني إذا بليـت عظـامي**
ألا مـن مبلـغ الـرحمن عنـي	**بـأني تـارك شـهر الصـيامِ**
فقــل لله يمنعنــي شــرابي	**وقــل لله يمنعنــي طعــامي**

كما عرفت أرض العرب عقائد دينية أخرى مختلفة غير الوثنية، كالصابئة، والدهرية، والحنيفية، واليهودية، والمسيحية، ومنهم من يعبد الملائكة لتشفع لهم إلى الله، ويزعمون أنهم بنات الله، وهم الذين حكى الله عنهم وعن كفرهم

---

(١) الإسراء: ٤٩.

(٢) يس: ٧٨.

(٣) يس: ٨٠.

وإلحادهم في القرآن الكريم في سورة النحل: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ**﴾(١).

وأمّا الصابئة، فكانت معتقداتهم مزيجاً غريباً من التوحيد، ومن عناصر خرافية تقوم على التنجيم والسحر والكهانة، ويعبدون النجوم والكواكب، ويجعلونها واسطةً بينهم وبين الله، ويقدّمون إليها القرابين، ويعظّمون الجن والشياطين. وتدلّ الأبحاث على أن تعظيم الجن وتقديسه لم يكن من معتقدات الصابئة وحدهم، بل معتقدات كثير من العرب الذين أقروا بوجودها، وبقدرة ما تتمتع به من قوة فآمنوا بها؛ خوفاً من تلك القدرة، واعتبروها تشارك الله في قدرته وفي عظمته؛ مما وسّع نشر الأساطير حول الجن.

فلما جاء الإسلام كان للجن سورة خاصة بهم في القرآن الكريم؛ لدحض ذلك الاعتقاد السخيف، وإبطال الوهم الذي سيطر على تلك العقول التي تظن أن الجن شركاء لله، فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**﴾(٢).

ومنهم الحنيفية الذين يقول فيهم الشاعر:

كل دين يوم القيمة عند الـ ـــله إلا ديـن الحنيفـة ديـن

وهم الذين رأوا في الوثنية ضروباً من الخرافات التي لا يقبلها عقل، ولا يقرها فكر، فراحوا يبحثون عن دين تقبله العقول، وتطمئن إليه النفوس، وأوصلهم البحث والتفكير إلى أن الإله الذي يجب أن يعبد هو صانع الإنسان والحيوان

---

(١) النحل: ٥٧.

(٢) الأنعام: ١٠٠.

والأرض والسماء وما فيهن وما بينهن وما تحت الثرى، حتى اهتدوا إلى ملة إبراهيم خليل الرحمن، فاتخذوها ديناً، وآمنوا بالله الواحد الأحد، وعبدوه، ودعوا إلى عبادته، وحرموا على أنفسهم ما أحله غيرهم كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

وقد عُرفوا في أنحاء كثيرة من شبة الجزيرة العربية، وفي مكة المكرمة والمدينة المنورة، علماً أن كثيراً منهم ظلّوا على وثنيتهم يرون الهداية ولا يهتدون، ومنهم من مال إلى النصرانية واليهودية.

وممن كان يعتقد بالتوحيد ويؤمن بيوم الحساب قس بن ساعدة الأيادي الذي كان يدعو الناس إلى عبادة الله في سوق عكاظ. جاء عن ابن عباس قال: لما قدم وفد عبد القيس على النبي محمدﷺ قال لهم: «**ما فعل قيس بن ساعد؟ة**». قالوا: هلك يا رسول الله. «**قال لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر يخطب الناس** ويقول: **أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا، وافهموا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، أقسم قسٌّ قسماً حقاً لا ريب فيه: لأن كان في الأرض رضا ليكونن بعده سخط، إن لله ديناً هو أحب من دينكم الذي أنتم عليه. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول أجالاً؟ طحنهم الدهر بكلكله، وفرقهم بتطاوله، ثم أنشد** يقول:

فـــي الـــذاهبين الأولـــــ ـــين مـن القـرون لنـا بصـائرْ
لمـــا رأيـــت مـــوارداً للمـوت لـيس لهـا مصـادرْ
ورأيـــت قـــومي نحوهـــا يمـض الأصـاغر والأكـابرْ
لا يرجـــع الماضـــي إلـــ ـــي ولا مـن البـاقين غـابرْ
أيقنـــت أنـــي لا محـــا لـة حيـث صـار القـوم صـائرْ

العرب قبل الإسلام

أطلق الجغرافيون على أرض العرب اسم (الجزيرة العربية)، وفي (معجم البلدان) اسم جزيرة العرب على سبيل التسامح، أو لأن اللسان العربي فيها شائع، في حين أن المؤرخين سموها شبه الجزيرة العربية؛ لأن الجزيرة في عرف الجغرافين هي الأرض التي يحيط بها البحر من جميع جهاتها كجزيرة البحرين، أما أرض العرب فشبه جزيرة لأن الجغرافيين عرفوا شبه الجزيرة بالأرض التي يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها، وأرض العرب يحيطها البحر من ثلاث جهات: البحر الأحمر من الغرب، والخليج العربي وبحر العرب من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، وتؤلف اليابسة ناحيتها الشمالية.

وتغلب على أرضها الصحاري، ويسود جوها الجفاف؛ لقلة الأمطار، وعدم وجود الأنهار وينابيع المياه؛ مما أثر ذلك على اقتصاديات البلاد، فكانت الزراعة قليلة والصناعة شبه معدومة. وبسبب ندرة المطر، وقلة الخصب اتجهت أنظار البدو إلى الرعي والانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلاء والماء؛ مما جعل مواطن الماء والكلاء من أهم العوامل الدافعة للاقتتال والغزوات بين القبائل.

فالأرض التي فتحت على أبعاد شاسعة كان يخنقها الشحّ، ويضنيها القحط، فكان مجتمعها مجتمعاً قتالياً منتشراً هنا وهناك، وهناك قبائل لا يضبطها نظام اقتصادي، ولا فكرٌ موحدٌ، فهي تعتمد على الغزو، وقد كان كثيراً عليها أن تعتمد

التنظيم في توجيه اقتصادها مستوحية العقل والعلم.

وإلى جانب الغزوات هناك دور آخر هو ما تقوم به الرعاة من غارات على الواحات المجاورة لمناطق تواجدهم، فينهبون المحاصيل، ويسرقون المواشي والقطعان، ولا شيء يصدّهم إلّا أن يعقدوا معهم اتفاقاً على دفع جزية مقابل حمايتهم من المغيرين الآخرين. ويعتبرون ما يقومون به من غزوات وغارات أو فرض الجزية مصادر مهمة للكسب والارتزاق، ويقرّها الواقع، وتفرضها ظروف العيش، حتى صارت بمثابة القانون السائد في مناطق البدو الرحّل. وإلى جانب ذلك كان لهم مصدر آخر للكسب، هو حماية القوافل التجارية وإرشادها إلى الطريق لقاء أجور يدفعها أصحابها.

وإذا كانت تربية المواشي والنهب والسلب وفرض الجزية وأجور حماية القوافل التجارية هي موارد الرزق لأهل البادية من العرب الرحّل، فإن الأمر يختلف بالنسبة لأهل القرى وسكان المدن الذين كانوا يقيمون في مناطق آثرتها الطبيعة ببعض فيضها، حيث يهطل المطر، وتخصب الأرض؛ مما جعل أهلها ينصرفون إلى الزراعة والاهتمام بها.

وعلى الرغم من هذا الاهتمام كانت المزروعات قليلة، ولكن أكثرها انتشاراً كانت شجرة النخيل والكرمة. فمن زراعة النخيل انتجوا التمور بأنواع متعددة، وجعلوها المادة الرئيسة للغذاء، ومن هذه الثمار استخرجوا دبساً ونبيذاً، كما هدتهم التجربة إلى استعمال بعض أجزاء النخلة في الطبابة والمداواة من بعض الأمراض، واستعملوا أوراقها للكتابة.

ومن الكرمة جني العنب، وصناعة الزبيب، واستخراج الخمور. وإلى جانب

هذه المزروعات مورد طبيعي هام وهو إنتاج التوابل والطيوب كالبخور واللبان والقرفة، وهذه كلها كانت محطّ اهتمام العالم المتمدن في تلك الحقبة من التاريخ.

وقد أتجر العرب بهذه المواد، وصارت بلادهم مصدراً رئيساً لتصديرها إلى البلدان الأُخرى المجاورة لأرض الجزيرة، وقد اعتبر العرب التجارة مهنة شريفة فأقدم عليها أشرافهم وسادات قبائلهم، حتى شاعت كثيراً عند سكان الحواضر، وباتت مورداً للغناء والثراء. ولعل أبرز البلدان التي عرف أهلها التجارة، واتخذوها سبيلاً هاماً للكسب هي مكة المكرمة التي كان يساعدها موقعها الجغرافي على ذلك؛ إذ كانت ملتقى طرق القوافل التجارية إلى اليمن، وإلى الحيرة والشام، وإلى نجد وغيرها، وهذا ما كان.

ولن ننسى أن حكمة سيدها هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ساعد مكة على ازدهار الحياة فيها، فهو الذي سنّ رحلتي الشتاء والصيف: الأولى إلى اليمن، والثانية إلى الشام، فسَمَت مكانتها في أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها، واعتبرت العاصمة المعترَفِ بها.

ثم ساعد على هذا الازدهار أن هاشماً وإخوته أبناء عبد مناف عقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام، وامتد حبل القوافل من مكة إلى العراق إلى اليمن إلى الشام تخرج بالطيب وتعود بالحرير.

والحق يقال أن كل تطوير في حياة الجزيرة كان بفضل هذا الجوار الذي انفتح أمام زحوفات القوافل في رحلات ومداورات تجارية. ومضت الأيام ولم يتبدل سير القوافل، ولم يتغير نمط التجارة حتى جاءت على الخطّ قافلة خديجة بنت خويلد، فتغيّر فيها مركز القيادة، فخديجة هي الشرارة الأولى في الثورة الاجتماعية

التي قلبت الأوضاع ونفضت القديم. فكان ينقل من الحجاز واليمن البخور والطيب والمر والعود واللؤلؤ وموجات من الإنسان، ويدخل إليها الذهب والقصدير والعاج وخشب الصندل والأبنوس وريش النعام، ويدخل معها الفكر ملقحاً بثقافات تعبت في إبرازها أجيال الإنسان وأبناء مجتمعاته، وامتزجت القبائل المهاجرة من الجزيرة بالعائدة إليها.

ومرّت الأيام وفي يمناها زمام جاهلي تقوده على طريق مكة والشام بقافلة جاهلية المولد، جاهلية الرحل، جاهلية العير، جنت منها أرباحاً طائلة ولم تكن غير جاهلية.

وإذا لم تكن قافلة خديجة بنت خويلد هي الأولى بين القوافل فإنها ستصبح عين القوافل التي ستفقه معنى الانفتاح، والتي ستنتقل بالاحتكاك من شكله التجاري المادي المحدود إلى انطلاقة الخير الواسع المفتوح على المدى الرحب إلى المدى الأرحب الذي يوسّع أجواء الجزيرة العربية.

محمد الفتى

تطلّع محمد حواليه فإذا أكثر الناس في مكة يعملون بالتجارة بالنظر إلى موقع بلدهم الجغرافي، حيث تمرّ القوافل فيها لتذهب إلى اليمن والشام، أو لتعود منهما، فقريش كانوا قوماً تجاراً، ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشيء.

وقد دفعهم لهذا العمل وجود الكعبة المكرمة، وهي البيت الذي يقصده الناس من أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها للحج وأداء فروض العبادة، ثم ينصرفون بعدها لعقد الندوات، وإقامة أسواق الشعر والخطابة، فتزدهر في تلك البقاع تجارة البيان إلى جانب تجارة البضائع والسلع.

إن هذه المزايا الثلاث: وجود الكعبة المكرمة، والموقع الطبيعي، والاتجار بالأموال وفنون الأدب، جعلت الموسرين من أهل مكة ـ والقرشيين خاصة ـ ينصرفون إلى المتاجرة متجاوزين بلدهم هذا إلى الآفاق البعيدة في رحلتي الشتاء والصيف.

وهنا أدرك محمد بن عبد الله الفتى القرشي هذا الأمر وإن كان ما زال في أول تفتّح شبابه على الحياة، فأراد أن يعمل في التجارة من أجل الكسب الشريف، واجتناء الرزق الحلال من العمل اليدوي، والجهد الشخصي. فراح يعمل في نطاق مكة مثال العاملين الشرفاء في كل زمان وكل مكان، لا يجذبه طيش الشباب ورعونته، ولا تغويه المحرّمات ومفاسدها، ولا يغريه زخرف الدنيا وزينتها، بل هو أبداً الشاب الرصين الفاضل الذي ديدنه الاستقامة، وناموسه الحلال

والطهارة، فضُرب المثل الأعلى في عمله. ولكن محمداً لم يكن جُلّ اهتمامه في تلك الأثناء مُنصَبّاً على العمل وحسب، بل كان نظره يتطلّع دوماً إلى معرفة ما يدور حوله؛ فقد كان يذهب إلى الأسواق المجاورة كسوق عكاظ وسوق المجنة وسوق ذي المجاز، حيث تقام فيها إلى جانب الاتجار بالسلع والبضائع أسواق الأدب والبلاغة وندوات البيان.

وهناك كان يشهد المباريات بين الشعراء، ويسمعهم يتغنون بالفخر والغزل، ويتبارون بذكر الأنساب، ويتباهون بالكرم والشجاعة. كما أنه كان يستمع إلى إنشاد المعلقات، ويصغي إلى الخطباء، ثم يعرض ذلك كله على بصيرته، فتلفظ منه ما تلفظ، وتعجب بما هو جدير بالإعجاب منه.

لا يحفل بشيء إلّا إذا كان حقاً، ولا يأبه لأمر إلّا إذا كان خيراً، ولا يسلك طريقاً إلّا إذا كان قوياً، ولا يأتي عملاً إلّا إذا كان صواباً. وكان يسترعي انتباهه في تلك الندوات والمباريات آراء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ وهم يرفضون وثنية العرب، ويعلنون بديلاً عنها: تعاليم موسى وعيسى‹ ـ ، فأخذ يميل إلى التفكير والتدبر، وتاقت نفسه إلى العزلة والانفراد، وراح ينفرد عن قومه في لون حياته الخاصة والعامة.

فالصدق والأمانة، والوفاء وحسن الخلق، وجفاء الأصنام والعقائد السائدة، كل ذلك كان ديدنه حتى اعتادت قريش أن تسميه الصادق الأمين، ولقد احتكمت لديه في رفع الحجر الأسود عند بناء البيت، فحل خصومتهم بإحضاره ثوباً وضع في وسطه الحجر الأسود، وأمر كل قبيلة أن ترفع طرفاً من أطراف الثوب، وعند وصوله إلى المكان المعدّ له أنزله من الثوب، ووضعه مكانه بيده، وقضى بذلك بينهم قضاءً حقن لهم دماءهم؛ مما جعل صيته تتحدث به أندية مكة

وغيرها، وبلغ صيته النساء القرشيات فأعجبن به، ومن بينهن خديجة بنت خويلد.

نعم إن محمداً بالسلوك القويم، وبالقول الصادق، والعقل السليم امتلك قلوب الناس من حوله، وحاز على تقديرهم وإعجابهم.

عاش محمد في مجتمع جاهلي تتحكم فيه عادات وتقاليد يغلب عليها طابع الصلف والعناد، ويقوم جانب من حياته على الغزو والسلب والاقتتال، ويقوم جانب آخر منها على أبشع ما عرف الإنسان في تاريخه من هدر لقيمة الإنسان كوأد البنات.

ويغمر حياة ذلك المجتمع كله ما انتشر من تعاطي الفواحش والمنكرات، وأكل الربا والولوغ في اللذائذ والمعاصي.. في مثل هذه البيئة القاسية الغارقة في العار والشنار عاش محمد بن عبد الله وهو كاره لواقع مجتمعه السيّئ، منكر لفعاله البشعة، مبتعد عن كل عاداته وتقاليده المخزية. ولم يقف محمد عند حدود السلبية من هذه الموبقات. بل انصرف إلى التفكير فيما يجب أن يعمله، حتى يخلّص أبناء قومه مما هم فيه من كفر وضلال. ثم يترامى فكره إلى أبعد من حدود مجتمعه، فيتطلع إلى الإنسانية بأسرها، فيميل إلى التأمل والتفكير، ويجذبه الكون بعوالمه، فيروح يتبصر بما يتناهى إليه الفكر، ثم يقرر الانقطاع إلى الوحدة والانفراد بالنفس، والرجوع إلى العقل علّه يجد الحلول التي تجلب الخلاص.

وفي غار حراء كان انقطاعه، وهناك كانت خلوته، وما برح حتى قادته فطرته السليمة، وبصيرته النافذة إلى معرفة حقائق الوجود، وإلى إدراك أسرار الحياة، فكانت تلك المعرفة أول تمهيد لاستقبال الوحي الإلهي في يوم ما.

محمد في تجارة خديجة

بمثل تلك الصفات الفاضلة، وبمثل ذلك السلوك اللين القويم عاش محمد ابن عبد الله حياة الجماعة بأفراحها وأتراحها: بعزها وضيمها. فكان الإنسانَ المدركَ، والمواطنَ الصالحَ، يحرص على مصلحة الجماعة حرصه على صون نفسه، لا يعمل إلّا للحق ونشر الفضيلة، ولا يقدم إلّا على توثيق عرا التعاون والتضامن، ولا يقوم إلّا لشدّ أواصر الإلفة والمحبة، حتى كان عَلَماً في البيئة التي عاش فيها، ونبراساً في الجماعة التي ينتمي إليها.

عاش إنساناً نظيفاً شريفاً، طاهر البدن والنفس والقلب، والناس كلهم من حوله يعرفون ذلك، فيتحدّثون عن محمد وشرفه، وصدقه وأمانته، وعن سائر صفاته وأخلاقه في مجالسهم وندواتهم. فطرق سمع خديجة بنت خويلد تلك المرأة القرشية حديث محمد، وكانت امرأة شريفة عفيفة ـ تسمى الطاهرة في الجاهلية والإسلام، وتعرف بسيدة نساء قريش ـ وهي أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأرفعهن مكانة، وأطيبهن سيرة، وأصبحهن وجهاً، وأنبههن ذكاء. قد اشتهرت بثرائها، لأنها أحسنت رعاية شؤون أموالها، وما ورثته عن زوجيها عتيق وأبي هالة، فآثرت بعدهما عدم الزواج، وارتضت بالعيش وحيدة لتقف جهودها على رعاية شؤون أموالها، ولتنمية ثروتها التي بلغت حداً كبيراً؛ مما جعلها أوفر أهل مكة مالاً.

وكانت تستخدم مالها في التجارة، وقد عرف أن قافلتها التي تحمل بضائعها يمكن أن تعادل قوافل قريش كلها وما تحمله من بضائع، بل قد تفوقها في بعض الأحيان. ولم تكن خديجة تتولى تجارتها بنفسها؛ لأن الإشراف على تسيير القوافل، والسفر إلى الشام أو اليمن من شؤون الرجال، فكانت تستأجر من الرجال من يقوم بأعمال تجارتها مقابل أجور تدفعها لهم، أو لقاء نصيب من الأرباح يتقاضونها نتيجة عقود مضاربة تجريها معهم. ومما لا شك فيه أن خديجة ما كانت تسيّر القافلة إلّا وتبعث معها بعض خدّامها، أو من تثق به ليراقب الرجال، ويشرف على سير العمل خلال الرحلة. وفي ذلك حسن إدارة، وحكمة من امرأة مثلها.

وكانت خديجة قد بلغها ما كان الناس يتحدثون به في مجالسهم وندواتهم فرادى وجماعات عن صدق حديث محمد وشرفه، وعظم أمانته وكرمه، وعن سائر صفاته وأخلاقه وعفته، وليس في مكة اسم له إلّا الصادق الأمين؛ لما تكاملت فيه من خصال الخير، وكان يعمل في التجارة داخل مكة.

سمعت هذه المرأة عن محمد الشيء الكثير، فتمنّت أن أمر تجارتها يكون إليه، وراحت تستقصي أنباءه كل حين، فبلغها يوماً أن محمداً يفتش عن مال ينطلق به مع القافلة إلى بلاد الشام للمتاجرة هناك، حيث اعتاد عرب الحجاز يوم ذلك أن يتاجروا مع بلاد الشام أو الحبشة؛ حيث كانت مكة سوقاً عالمياً، ومفترق طرق التجارة بين الشمال والجنوب.

وتجد خديجة هوى في نفسها لمد محمد بما يحتاج إليه من المال شريطة أن يكون لها نصيب من الربح الذي يكسبه، فبعثت إليه من أخبره برغبتها في الخروج بمالها متاجراً إلى بلاد الشام وعلى أن تعطيه أفضل ما تعطي غيره من الرجال. فوجد

النبي محمدﷺ في نفسه إلى هذا مَيلاً وقبولاً، إلّا إنه اشترط مشاورة عمه أبي طالب، فذكر لعمه ذلك، فقال العم: إني لأكره أن تذهب إلى الشام؛ لأني أخاف عليك اليهود، ولكن لا أجد من ذلك بداً؛ فإنه رزق ساقه الله إليك.

وعلى الفور يتفق الطرفان، ويسافر محمد في تجارة خديجة إلى الشام. وراحت القافلة تمر في الأماكن نفسها التي عرفها محمد قبل ثلاث عشـرة سنة خلت، يوم عبر هذه البقاع مع عمه أبي طالب في أول رحلة إلى الشام.

وكان إلى جانب محمد في رحلته هذه غلاماها ميسرة وناصح، وقد بعثت بهما خديجة مع القافلة لا ليراقبا محمداً، بل ليقوما على خدمته والعون له، وألا يخالفاه في شيء أراده؛ لأن محمداً كان يقوم لأول مرة بمثل هذه الرحلة التجارية خارج مكة، وقالت لهما: اعلما أنني قد أرسلت معكما أميناً على أموالي، وإنه أمير قريش وسيدها، فلا يد على يده، فإن باع لا يُمنع، وإن ترك لا يُؤمر. وليكن كلامكما له بلطف وأدب، ولا يعلُ كلامكما على كلامه. هكذا جاء في كتاب (البحار)، وقد عملا بأمر سيدتهما، فلم يتركا محمداً يغيب عن ناظريهما، بل كانا ملازمين له كظله.

وحين وصلت القافلة بصرى توقفت لأخذ الراحة والتزود بالماء، فتوجه محمد إلى شجرة كان قد استظل بظلها مع عمه أبي طالب في سفره معه، فجلس يستظل تحتها، وكانت بقربها صومعة راهب، فرآه وهو في صومعته، فصاح بميسرة وكان يعرفه لكثرة تردده إلى الشام في تجارة خديجة.

وقال له: من هذا الرجل الجالس تحت ظل الشجرة؟ قال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلّا نبي. ثم نظر إليه وقال إنه هو هو ومنزل الإنجيل، وقد قرأت عنه بشائر كثيرة.

ولما وصلت القافلة إلى الشام جاء التجار يشترون أحمالها من البضائع، فباع محمد سلعته التي خرج بها إلى الشام، وربح فيها أضعاف ما كانوا يربحون فيها سابقاً، وراح يشتري لخديجة ما أراد أن يشتري من سلع الشام. فوقع بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى. فقال النبيﷺ: «**ما حلفت بهما قط**». فقال الرجل: القول قولك. والتفت إلى ميسرة وقال: هذا نبي، وهو آخر الأنبياء، والذي نفسي بيده تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم.

وعادت القافلة إلى مكة المكرمة تحمل الخير والبركة، وقد تمكن محمد من أن يحقق من هذه الرحلة أرباحاً زادت على تقدير ميسرة على أرباح كل من سبقه إلى العمل في تجارة خديجة. وكان ميسرة يرى ـ إذا صارت الهاجرة ـ غمامة تظلُّ محمداً عن حرارة الشمس، وهو يسير على بعيره، وقيل: كانا ملكين.

فلما وصلت القافلة إلى مكة المكرمة أقبل محمد يلقي بين يدي خديجة جني القافلة، وأسرع ميسرة إلى سيدته ليبشرها بنتائج الرحلة، ولكنها لم تكترث للمال، بل راحت تستفسر عن سلوك محمد خلال الرحلة، وراح ميسرة يوضح لها ما رآه عن محمد، وما سمعه من أمر الراهب، وشاهده من أمر الغمامة، وينشد قول الشاعر:

وأخبار صدق خبّرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصحُ
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطحُ
وظني به أن سوف يبعث صادقاً ... كما أرسل العَبدان نوح وصالحُ

فما كان من خديجة إلّا أن أشرق وجهها بالبشر والأمل الكثير الذي تنتظره، وتزداد ثقة مما سمعته من الأنباء المثيرة عنه. وكانت امرأة حازمة شريفة، لبيبة

عاقلة فاهمة، مع ما أراد الله لها من كرامة، فلما أخبرها ميسرة عن أحوال النبي محمدﷺ جعلت تفكر في أمر، ذلك الشاب الأمين الذي خصه الله بغمامة تظله وتحميه من حرارة الشمس، وسمعت عن جِدّه واستقامته، وصدقه وأمانته وعفته. فمهد هذا كله سبيل النبي محمدﷺ إلى قلبها الذي كانت قد أغلقته دون الرجال جميعاً، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينها، وتمنت أن يكون لها زوجاً.

ولم تكن خديجة إذ ذاك بالفتاة الغريرة، بل كانت السيدة الناضجة المجربة التي خبرت الدنيا وعرفت الناس، وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادات قريش، وعاملت رجالاً آخرين بالتجارة كانوا يخرجون في مالها إلى الشام.

وإن في إعجاب مثلها بمحمدﷺ، وحرصها على الزواج منه لدليلاً على أنها وجدت في شخصيته الآسرة اللافتة ما لم تجده في أي رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها. فذهبت إلى عمها ورقة، وأخبرته بما أخبرها به غلامها ميسرة، فقال ورقة: إن كان هذا حقاً فإن محمداً لنبي هذه الأمة. وأنشد يقول:

فإن يك حقاً يا خديجة فاعلمي — حديثك إيانا فأحمد مرسلُ
وجبريل يأتيه وميكال معْهما — من الله وحي يشرح الصدر منزلُ
يفوز به من فاز فيها بتوبة — ويشقى به العاني الغرير المضللُ
فريقان منهم فرقة في جنانه — وأخرى بأحواز الجحيم تعللُ

وكان قد عرف أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، وهذا زمانه.

وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب السماوية، وسمع من أهل التوراة والإنجيل أن الأدلة والبشائر كلها تشير إلى هذا الحدث العظيم، وهو أن الأمين محمد بن عبد الله هو المبعوث المنتظر لهذه الأمة، ليقرّ الدين الحنيف، فجعل يقول:

لججت وكنت فـي الـدنيا لجوجـا   لأمـــر طالمـــا بعـــث النشـــيجا
ووصف من خديجـة بعـد وصـف   فقـد طـال انتظـاري يـا خـديجا
بـــبطن المكتـــين علـــى رجـــائي   حـــديثك أن أرى منـــه خروجـــا
بمـــا خبرتنـــا مـــن قـــول قـــس   مـــن الرهبـــان أكـــره أن تعوجـــا
بـــأن محمـــداً سيســـود قومـــاً   ويخصـم مـن يكـون لـه حجيجـاً
ويظهـر فـي الـبلاد ضـياء نـور   يقـــوم بـــه البريـــة أن تموجـــا
فيلقـــى مـــن يحاربـــه خســـاراً   ويلقـــى مـــن يســـالمه فلوجـــاً

محمد الزوج

كان محمد شاباً قرشياً هاشمياً عريق الأصل، طيب المنبت، أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الذي وعت مكة قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه. وهي قصة مثيرة أحيت ذكر الذبيح الأول إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام جد العرب العدنانية. وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن قصي بن كلاب، أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً.

وقد أمضى أعوامه الأولى في بادية بني سعد، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص في شخصيته، وأكسبته صحة الجسم والنفس، وصلابة الخلق، وفصاحة اللسان، كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك قوة احتمال وشعوراً مبكراً بالمسؤولية.

وجاءت رحلة صباه مع عمه إلى الشام فوسّعت من أُفقه، وزودته ببعض الخبرة بالدنيا والناس، فكان في إبان شبابه الرجل الناضج، الجلد الصبور، تلمح في شخصيته آثار البادية، وفي سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم الذي هو مثابة الحجاج، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجاري بين الأطراف المتحضرة في الجزيرة، كما تلمح في عقله تجارب الحياة الجادة العاملة، وفي خلقه شمائل هاشمي قرشي لم يفسده الفراغ والمال، ولم يصبه الترف بآفات النعومة واللين.

هكذا كان محمد حين سمعت عنه خديجة، وبلغها ما يتحدث به القوم عن جِدّه واستقامته، وصدقه وأمانته وعفته. وكانت السيدة خديجة على أعظم نصيب من

الذكاء والدهاء، فلما عاد ميسـرة ونقل إليها ما رأى وسمع من المعجزات التي تمت لمحمدﷺ، تعلقت بحبه، ورأته كفئاً لها؛ لأنه يحاكيها بشرف النسب، وله من جماله وأمانته والكرامات التي سمعتها عنه ما يعيضها عن المال، وكان عندها منه الشيء الكثير.

وبدا لها في الطريق جبين وضاح فيه من العزم أكثر مما فيه من الفتوة، وفيه من المجد أبلغ مما فيه من السكون فرأت تلاميحه، واستبشرت بفك رموزه، وأقدمت دون أن يثنيها قنوط الأربعين، واستسلمت دون أن يؤثر عليها أي اعتبار، ومهد هذا كله سبيله إلى قلبها الذي كانت قد أغلقته دون الرجال جميعاً، وفكرت في الاقتران منه قبل أن تلقاه وتراه بعينها.

إلا إن التقاليد الموروثة في مجتمع خديجة ما كان لينيلها حق التعبير عن مدى الشوق عندها إلّا في نطاق ضيّق كان له صدّه بالمرصاد إن تعدّى الحدود.

وفي اللحظة التي وجدت فيها منطلقاً للإرادة، كسـرت الطوق، وثارت على التقاليد، وكان لها من الحق ما اعتصمت به على الإقدام والتحقيق؛ ولهذا لم تتردد في ثورة على التقاليد، وأقبلت تعرض هي على محمد تجسيد هذا الحب، وصب هذا الحنين في قالبه، وتضاءلت بين يدي حبها الكبير عوائق دنياها، وذاب من تحت عينيها بريق الذهب، ذلك كان إيمان الحب بالحب، وبعثت أختها هالة ـ وقيل: نفيسة بنت منبه ـ لتتصل بمحمد فتعرض عليه رغبتها في الزواج منه. وقيل: بعثت إليه، فلما حضر، قالت له: يا بن العم، إذا أخذت الذي لك من المال والجِمال، فماذا تصنع به؟ قال: «**إن عمي يريد أن يأخذ لي جملين لأسافر عليهما للتجارة، والباقي يخطب لي به امرأة من قومي تتحلى بجمال الخلق قبل جمال الوجه، وبغنى النفس**

قبل غنى المال، وبالطهارة قبل الجاه، وبالشرف قبل النسب، وبالوفاء قبل كل شيء». قالت خديجة: أنا أعرف فتاة من قومك، طاهرة مطهرة، مصونة عفيفة، تساعدك عل الأمور، وترضى منك بالقليل، تحسدك عليها الملوك والأكاسرة، إلّا إنها أكبر منك سناً، وقد عرفت قبلك برجلين.

وكانت خديجة صغيرة لما سيقت إلى زواج باكر من عتيق بن عابد، وسريعاً ما قبر الموت هذا الزوج، فسيقت إلى زواج آخر تقدم به منها شريف يدعى أبا هالة، ورزقت منه ولداً أسمته هنداً[1] ثم عاد الموت فقصم عروة الزواج الثاني فتوقفت خديجة عن تلبية العروض في تكرار زواجها.

وكان رفضها بمثابة ضريبة أدتها عن نفسها تعويضاً عن زواجين سابقين لم يكن لها فيهما كبير شأن. ومرت الأيام وإذا هي تكشف لها أنها أمام رجل وسيم الوجه، هادئ الطبع، بريء القسمات، عميق السكون، وكان من بيت كريم، له في مجتمعه مكانة الزعامة في الخامسة والعشرين من عمره، لم تدخل حتى الساعة امرأة في حياته.

وقد كان بينها وبينه ما يشبه الاختبار والامتحان حين جعلته في قافلتها التجارية إلى الشام، فزادت أرباحها أضعافاً، فأقدمت دون أن يثنيها قنوط الأربعين، واستسلمت دون أن يؤثر عليها أي اعتبار.

فقال لها محمدﷺ: «**سميها لي**». قالت: إنها سيدة نساء قريش خديجة بنت

---

(١) كان هند قد عمّر وكان من أكابر صحابة رسول اللهﷺ، ومن شيعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، وخلّص أنصاره، مات تحت رايته يوم الجمل، وكان يفتخر بقوله: أنا أكرم الناس أباً وأماً، وأخاً وأختاً، أبي رسول الله ـ لأنه زوج أمه خديجة ـ وأخوه القاسم بن رسول الله، وأمه خديجة بنت خويلد، وأخته الصديقة فاطمة الزهراءعليها السلام.

خويلد أعلاهن شرفاً وكمالاً، وأكثرهنّ مالاً، وأحسنهن خلقاً وجمالاً. وقد خطبها أكابر القوم، وقدموا لها الأموال والخدم، وما شاءت وتمنت، فصدت كلّ من خطبها لنفسه، وهي الآن تريدك زوجاً إذا شئت. فأطرق النبيﷺ حياء، وقام وانصرف.

هكذا أحبت خديجة محمداً ملامح نور لا ملامح نار، ورجاحة عقل لا غضاضة عود، أحبته بعقل الأربعين لا بغفلة التسع، ولا بنزوة العشرين، أحبته في إرادة التعبير، فانساقت هي إليه، ولم تسق، ولكل امرأة في تنسيق الزواج بين أن تسوق نفسها وبين أن تساق بشير سعادة، أو نذير شقاء. تلك هي حرية الإرادة ينبثق منها صدق الميل، وصدق التعبير في إنشاء العقد الاجتماعي الصحيح الجذور.

فذهب محمد إلى عمه أبي طالب، وأخبره بما قالته خديجة، فتبسم أبو طالب فرحاً، وقال: يا بن أخي، هذا رزق ساقه الله إليك. ثم قام مسرعاً ودعا بني هاشم، وأشراف بني عبد المطلب، ورؤساء مضر، وأخذ بيد ابن أخيه محمد، وساروا جميعاً إلى دار خويلد بن عبد العزى ليخطب السيدة خديجة لابن أخيه محمدﷺ. فلما وصلوا واستقر بهم المجلس، قام أبو طالب خطيباً، وافتتح خطابه بقول: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم الخليل، وزرع إسماعيل الذبيح، ومعدن معدّ وأصل مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حكاماً على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن به.

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله، الفحل الذي لا يصدع أنفه، لا يوزن برجل من قريش إلّا رجح عليه شرفاً ونبلاً، وفضلاً وعقلاً، وكرماً ومجداً، ولا

يقاس بأحد إلّا كان أعظم منه، وإن كان في المال قل؛ فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة. وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطب جليل، وهو من قد عرفتم قرابته، وأن له في خديجة رغبة، ولها فيه مثل ذلك. وقد خطب إليكم رغبة منه في كريمتكم، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونصف، وقيل: عشرون بكراً من الإبل. ثم جلس، فقام عمرو بن أسد ـ وقيل: ورقة بن نوفل ـ وقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادات العرب وقادتها، وأنتم أصل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم مثل رغبتكم، فاشهدوا يا معشر قريش أني قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب على المهر الذي ذكره الشيخ أبو طالب.

وفي العام الخامس والعشرين من وقعة الفيل السنة الخامسة عشرة قبل المبعث، احتفلت مكة المكرمة بزواج شاب زيّن قريشاً شرفاً وأمانة وخلقاً من السيدة خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً. وتمت لخديجة في محمد هدية القلب إلى ما يحب، ويعانق قلب محمد قلب خديجة، وينسجم روحاهما في وقت كان محمد في الخامسة والعشرين من عمره ويبلغ عمر السيدة خديجة الأربعين سنة.

وهي أول امرأة تزوجها النبيﷺ وسكن إليها، وهي أول امرأة آمنت بدعوته من النساء وصدّقت ما جاء به من عند الله، ولم يتزوج عليها إلى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين.

لقد اختار محمد المرأة التي وجد عندها الأنس والحنان، يفيضهما قلب نقي،

ونفس صافية إلى جانب الشرف والعزة، والعفة والطهارة. فكأن الله سبحانه أراد أن يعوّض هذا اليتيم عن عطف الأم الرؤوم، وحدب الأب الكريم، فوهبه خديجة الفاضلة؛ لتكون له زوجاً صالحة، وأماً حانية، ورفيقة حياة وفية، وعاش الزوجان في هناء وسعادة، يغمرهما الحب، وتجمعهما الألفة. وقضت مكة أياماً وليالي ولا حديث لها إلّا عن ذلك الزواج المشهود. ولم تكن بهجة الحفل وحدها هي التي استأثرت بحديث القوم، وإنما كانت المفاجآت غير منتظرة كثيرة؛ فما دار في خلد أحدهم أن ترغب السيدة خديجة في الزواج من جديد بعد الذي عرف من زهدها في الرجال، وانصرافها عنهم، وردها سادة قريش واحداً بعد الآخر، ردّاً مؤيِّساً، ولا خطر ببالهم أن يكون محمد ابن الخامسة والعشرين هو الزوج المختار للأرملة الثرية ذات الأعوام الأربعين.

وإذا كان رجال من قريش قد نقموا يومئذٍ على العقيلة الغنية أن تؤثر عليهم شاباً غير ذي مال، فلعل بنات هاشم قد تحدثن طويلاً عن شبابه الغض الذي استأثرت به سيدة تزوجت من قبل مرتين، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ذوات الصبا النديّ والحسن النضير.

البيت الجديد

في جوار الحرم المكي ـ حيث دور قريش حافة بالبيت العتيق، مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الأسنى ـ قامت الدار التاريخية التي كتب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمي، وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاماً من العرس عائداً من غار حراء ليلة القدر، مبعوثاً بختام رسالات الدين.

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق، فينزل إليها بعدد من الدرجات، توصل إلى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قدم، وطولها عشرة أمتار، أما عرضها فأربعة. وعلى اليمين باب صغير، يصعد إليه بدرجتين يؤدي إلى ممرّ ضيّق عرضه نحو مترين، وفيه ثلاثة أبواب، يفتح أولها ـ من الجانب الأيسر ـ على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار، كانت للنبي المختار محراباً ومعبداً، ويؤدّي الباب الأمامي إلى بهو متّسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة وقد جعل مخدعاً للزوجين، أما الباب الثالث فعلى يمين الداخل، وهو يفتح في غرفة مستطيلة طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة وقد جعلت لبنات النبي صلى الله عليه وآله.

وعلى طول هذه المسكن من ناحية الشمال فضاء واسع مساحته ستة عشر متراً في سبعة أمتار، ويرتفع عن الأرض بنحو متر، وفيه كانت السيدة خديجة تخزن تجارتها قبل الزواج، فلما تزوجت واعتزلت التجارة استعملت هذه المساحة مضيفة لاستقبال الضيوف[1].

---

(١) نقلنا هذا الوصف من كتاب (بنات النبي) للدكتورة بنت الشاطئ.

هذه هي الدار التي استقبلت محمداً أول ما استقبلته يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج في مالها إلى الشام متاجراً، ثم استقبلته عائداً من رحلته حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش، وأخذها منه تفرد سماته وجلال شخصيته، حتى إذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل، السنة الخامسة عشرة قبل المبعث دقت الطبول فيها احتفالاً بزواج زين شباب قريش شرفاً وأمانة وخلقاً من السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى سيدة نساء قريش وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً.

ونحرت الذبائح، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، فإذا بينهم حليمة قد جاءت من بادية بني سعد لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته، ثم لتعود في الغداة ومعها أربعون رأساً من الغنم هبة من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت محمداً زوجها الحبيب.

وبدأت حياة زوجية هانئة يظلّلها الحب المتبادل والتقدير المشترك، والمودة الخاصة.

ونهل الزوجان من نبع السعادة صافياً لم تشبه شائبة من كدر، ثم لم يمضِ على زواجهما عامان أو ثلاثة حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة، ولما لاح بوادر الحمل هزّ الفرح أعطاف خديجة، وأقبلت على زوجها مشوقة تزف إليه البشرى، وبعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد في دور بني هاشم، وينشرونه في أحياء قريش، وأغدقت عطاءها على ذوي الحاجة، وكأنها أرادت أن تشاركها مكة كلها في فرحتها، فلا يبقى فيها جائع ولا محروم، وخفق قلب محمد فرحاً وغبطة؛ إذ يوشك للمرة الأولى أن يغدو أباً.

وأثارت الأبوة المرتقبة أعمق عواطفه، وأرق انفعالاته، وهو مقبل على التجربة العظمى التي لا يكمل وجود الرجل بغيرها، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج إلى النور، وتستقبل الحياة؛ لتكون امتداداً لحياته.

وعما قريب يرى صورته ممثلة في كيان صغير لطيف تتم به هذه السعادة التي عرفها منذ عرف خديجة.

وذكر أمه التي رحلت عن الدنيا وهو صبي في السادسة، وذكر أباه الذي ثوى في يثرب وخلفه جنيناً في رحم أمه آمنة بنت وهب، فتمنى لو أنهما عاشا ليفرحا بوحيدهما، ويملأا أعينهما من مولوده المنتظر. ولم ينسَ جده الشيخ عبد المطلب الذي كان له من بعد أبيه أباً، فرّق قلبه وهو يستعيد ذكراه، وندّت من عينيه دموعٌ شجواً ورحمةً.

ثم آب من تأملاته، وراح يرقب زوجته الحبيبة، وهي تروح وتغدو في الدار بخطوات أثقلها الحمل الغالي، ووجهها المشرق يتألق بسنا السعادة والحنان. حتى إذا آن أوان الوضع تجلدت للتجربة التي عرفت من قبل شدتها وقسوة آلامها على حين وقف الزوج في محرابه ينتظر اللحظة الحاسمة بلهفة مشوبة بشيء من القلق، لم يلبث أن تبدد حين انبعث من مخدع الوالدة صيحة رقيقة واهنة معلنة عن بشرى الميلاد.

ثم فتح باب المخدع عن القابلة سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تحمل إلى الأب طفلته الأولى، فتلقاها بين ذراعيه فرحاً، وسماها زينب، ونحرت الذبائح احتفالاً بمولدها.

وتشبثت الأمّ بوليدتها أياماً قبل أن تدفع بها إلى المراضع المختارة على المألوف

من عادة أشراف مكة. وشغلا بالحديث طوال فترة رضاعتها حتى عادت أشبه بزهرة غضة باسمة، أضفت على البيت مزيداً من الإشراق والبهجة. ولم يطل بها المقام في البيت حتى استقبل ذلك البيت أختها رقية، ثم جاءت من بعدها أم كلثوم. وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة في بيئة مفتونة بالبنين، ولكنهما أدركا أن الأمر في هذا لله وحده، وما كانا ليجحدا نعمته عليهما.

وأقبلا على طفلتهما الثالثة شاكرين لله ما أعطى، طامعين مع هذا في مزيد من كرمه.

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة.

مولد الصديقة فاطمة

تزوجت خديجة بنت خويلد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ فهجرتها نساء مكة فلا يدخلن عليها ولا يسلمن عليها ولا يتركن امرأة تدخل إليها. وهذا الإجراء كان جزءاً من المقاطعة التي فرضتها قريش على النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أبان بعثته بشدةٍ أيضاً. والمرأة تأنس بقريناتها، وترتاح لسماع حديث بنات جلدتها، فإذا ما تركنها وحدها أثر ذلك فيها أيما تأثير.

لقد استوحشت خديجة لهذه المقاطعة، وكان جزعها وغمها حذراً على زوجها العظيم الذي تتربص به العرب الدوائر. وقد شاء الله ألّا يدع هذا القلب العامر بالإيمان يعيش حالة من الضمور والتأكّل الداخلي، فلما حملت بفاطمة أنطقها الله وهي جنين في بطنها، وجعلها تحدث أمها حديث النساء في سمرهن ومجالسهن.

وكانت خديجة تكتم ذلك عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فدخل عليها يوماً فسمعها تتحدث، فقال لها: «**من تحدثين يا خديجة؟**» قالت: الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني. فقال: «**يا خديجة، هذا جبرئيل يبشرني أنها أنثى، وأنها النسلة الطاهرة الميمونة، وأن الله سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة، ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقطاع وحيه**».

لقد ظلت تحدث أمها بما يبعث الطمأنينة والدعة إلى قلبها طيلة أيام الحمل، فلما آن أوان الوالدة، وجّهت خديجة إلى بعض نساء قريش ليلين من أمرها ما تلي

النساء من النساء عند الولادة، فأرسلن إليها: أنت عصيتِنا ولم تقبلي قولنا، وتزوجت محمداً يتيم أبي طالب، فلسنا نجيء لك، ولا نلي من أمرك شيئاً. وحين يكون بيت محمد قد قوطع باتفاق قريش هذه المقاطعة العنيفة، وحين يحاصر هذا الحصار الشاقّ، فلابد للسماء أن تدخل وتحطم هذه الأغلال وتقهرها بعمل غيبي مشهود، فما دام أهل الأرض منغمسين في جاهلية ـ جهلاً ـ وقد تعاهدوا على محاصرة محمد وأهل بيته، فالسماء مستعدة لنصرته أنى كان لون ذلك النصر والعون؛ ماديين كان، أو معنويين، وليس ذلك بعسير على الله، وليس من المستحيل عليه.

أجل امتدت يد السماء لتشارك خديجة في مراسيم ولادتها لفاطمة، فقد دخلت عليها أربع نساء سمر طوال كأنهن من نساء قريش ولسن منهن، وإنما جئن من خارج هذا العالم المحسوس.. جئن من العالم الذي حجبت أبصارنا عن رؤيته. جئن من عالم الآخرة ليلين من بنت خويلد ما تلي النساء من النساء أثناء الولادة. ففزعت منهن خديجة لما رأتهن، فقالت لها إحداهن: «لا تحزني يا خديجة، فإنا رُسُل ربك إليك، ونحن أخواتك؛ أنا سارة، وهذه آسية بنت مزاحم، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثم أخت موسىعليه السلام، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء من النساء عند الولادة».

فجلست واحدة عن يمينها، وأخرى عن يسارها، والثالثة بين يديها والرابعة من خلفها، وتضع خديجة ابنتها فاطمة طاهرة مطهرة. فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها نور مشرق دخل بيوتات مكة. وولدت فاطمة بعد مبعث الرسول الأكرم بخمس سنوات، وقبل الهجرة بثماني سنوات، وهي آخر أولاد رسول الله

من خديجة. ولدت في مكة في بيت الوحي والجهاد، وفي أجواء الصبر والصمود وتحمّل المشاق.

في مثل هذا الظرف الدقيق الذي تمر به الدعوة الإسلامية حيث يلتحم معسكر الإيمان ـ وهو ما زال غضّاً ـ مع معسكر الوثنية بقوته وجبروته في مثل هذه المعركة الضارية بين رسالة السماء وفوضى الجاهلية، وفي أقسى الظروف التي تمر بها الرسالة الإسلامية المباركة، يعلن البيت النبوي بيت الرسالة نبأ ميلاد فاطمة بنت محمد.

ولدت فاطمة في وقت كانت أمها قد قوطعت نهائياً من جميع النساء القرشيات أسوة برجالهن الذين قاطعوا محمداً المنقذ. ولدت فاطمة المباركة في وقت كانت أمها تنتظر مولودتها بفارغ صبر، وفي لهفة شوق؛ لتميط عنها الوحشة التي فرضتها عليها قريش.

تضع خديجة ابنتها فاطمة، فيذاع النبأ، وتتردد أصداؤه في كل أفق. وكان لهذا النبأ صداه العميق في النفوس المجاهدة الصابرة في المعترك، وفي جميع الجهات التي تملكها دعوة الله في مكة المكرمة. وسرى النبأ إلى القائد العظيم محمد بن عبد الله فأشرق وجهه بالبشر، وتهلل فرحاً وسروراً، وأسرع إلى خديجة ليبارك لها في ولادتها المباركة ويهنيها بسلامة الوضع.

ثم تلقى طفلته الرابعة يبارك مولدها في ذلك اليوم الأغرّ، وكانت أول بادرة فاه بها أن دعاها فاطمة ولقبها بالزهراء.

وقد آثر الله الزهراء بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث: زينب، رقية، وأم كلثوم، فكتب لها أن تكون وحدها الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة، والمنبت الطيب

لدوحة الشرف من آل البيت. وقد فجّر الله لها أسخى ينابيع الحب والإعزاز في قلب هذه الأم التي اكتفت من دنياها جميعاً بأن تكون زوج محمد ﷺ، وأرضاها كل الرضا أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى بعد أن نفضت يديها من الرجال، وأوصدت قلبها على يأس.

وبقي للأبوين ـ كي تتم سعادتهما ـ مطلب واحد هو أن يهبهما الله مولوداً ذكراً بعد أن منّ عليهما بإناث أربع، وبدا الأمل بعيداً؛ إذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت بعد مولد فاطمة خمسين سنة، لكنها مع ذلك لم تبلغ مرحلة اليأس من الولد، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء، فاستجاب الله لهما دعاءهما فوهبهما غلامهما القاسم، ثم تلاه عبد الله، فتضاعفت الفرحة بمولدهما حين ظُنَّ أن لا رجاء، لكن الله لم يشأ للولدين أن يعيشا طويلاً، بل ما لبث أن استرد الوديعتين إحداهما بعد الأخرى.

مراتب الوحي

يعتبر الاعتقاد بالوحي أساساً لجميع الرسالات والأديان السماوية، وتقوم هذه الحقيقة (حقيقة الوحي) على أن الذي يوحى إليه يمتلك روحاً قوية قادرة على تلقي المعارف الإلهية من دون واسطة، أو بواسطة ملك من الملائكة المكلّفين بهذا الأمر. ويلخص العلماء الوحي، على أنه هو تعليم الله من اصطفاه للبشر من عباده كلّ ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر.

وقسّم الفقهاء الوحي إلى سبع مراتب، كل مرتبة منها قد تتداخل مع الأخرى بحيث لا يمكن الفصل التام بين بعضها البعض؛ لأنها ذات جوهر روحي.

المرتبة الأولى: الرؤيا الصادقة، وهي ما يشاهده النائم في نومه، أو الذي خمدت حواسّه الظاهرة بإغماء أو ما يشابهه، فتكون في الواقع صادقة في اليقظة، تنكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشاف النهار. عن عروة بن الزبير عن السيدة عائشة قالت: كان أول ما بدأ به النبي محمدﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت كفلق الصباح.

المرتبة الثانية: النفث في الروع ـ وهو ما كان يلقيه الأمين جبرئيل في روع محمد وقلبه، فيتلقى الحقائق السماوية العليا، فيتّخذ ما تم القاؤه في النفس؛ بدليل قولهﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي: لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**».

المرتبة الثالثة: المخاطبة وجاهة ـ أي وجهاً لوجه ـ وهو ما يفعله الأمين جبرئيل مع الرسول محمدﷺ؛ فقد كان يأتيه في صورة رجل جميل، بهي الطلعة، يجلس إليه، ويلقنه أوامر ربه، فيعي محمد قوله له. وهذا التمثّل تجسيد للروح الأمين حيث يظهر للرسول محمدﷺ بصورة دحية الكلبي. يقولﷺ: «**كان الأمين جبرئيل يأتيني في صورة دحية الكلبي**».

المرتبة الرابعة: الاتحاد في الروح: لقد كان الأمين جبرئيل ـ وهو الروح ـ يختلط بالنبي محمدﷺ ويمازج روحه فيتحدان مع بعضهما، ثم ينقل الوحي مخاطباً به روح محمد، فتأتي المخاطبة قوية شديدة الوقع ذات تأثير عجيب؛ مما تجعل الرسول الأكرم يتصبب عرقاً ولو في يوم شديد البرد ويثقل جسمه.

المرتبة الخامسة: نزول جبرئيل على صورته الحقيقية. كان الأمين جبرئيل كثيراً ما ينزل بالوحي في صورته التي خلقه الله عليها، فيبلّغ الرسول ما شاء أن يوحيه الله تعالى إليه كما جاء في سورة (النجم)، قال تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى*عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[1].

المرتبة السادسة: تلّقي الوحي من عند الله مباشرة دون أي وسيط، كما جرى ليلة المعراج، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى*فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى*فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾[2]. وكما جرى لموسى بن عمران، قال تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً**﴾[3].

المرتبة السابعة: الوحي أو من وراء حجاب؛ إما في اليقظة، وإما في النوم،

---

(١) النجم: ٤ ـ ٥

(٢) النجم: ٨ ـ ١٠

(٣) النساء: ١٦٤.

وذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾[١].

وفي الحقيقة إن هذا التقسيم لمراتب الوحي لا يتعدى كونه نوعاً من التوضيح الذي يقرب للأذهان الطرق التي كان يتلقى فيها النبي محمدﷺ رسالة الإسلام من الله تعالى إلى الناس كافة، وهي في حقيقتها مراتب روحية. وما دامت تلك المراتب ذات جوهر روحي فإنها تكون متداخلة بعضها في بعض.

---

(١) الشورى: ٥١.

بعثة النبي صلى الله عليه وآله

ألم ترى أن الله أرسل عبده … ببرهانه والله أعلى وأمجدُ
فشق له من اسمه ليجله … فذو العرش محمود وهذا محمدُ
نبي أتانا بعد يأس وفترة … من الرسل والأوثان في الأرض تعبدُ
تعاليت رب العرش من كل فاحش … فإياك نستهدي وإياك نعبدُ

تمر الأيام سريعة يعيش فيها محمد صلى الله عليه وآله وخديجة عيشة هانئة ندية، يقضي فيها محمد أكثر أوقاته بعيداً عن غوغاء الجاهلية وضجيجها في غار حراء خارج مكة، متأملاً في أوضاع قومه المتردية، متفكراً في ملكوت الله سبحانه، وخديجة تشاركه أحاسيسه ومشاعره بقلب يفيض بالحب والوفاء وهي في داخل بيتها.

وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب الخلوة والانفراد عن قومه؛ لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام. ثم طابت له الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده، فكان يذهب إلى جبل بجانب مكة يتعبد فيه ليله ونهاره على شرع أبيه إبراهيم الخليل. ويقال له غار حراء، ويتفكر في خلق السماوات والأرض، والجبال والنجوم، ويسأل نفسه: من الذي خلق كل هذا، وأبدع تصويره؟ لابد أنه خالق عظيم مبدع، يستحق الشكر والعبادة. يقول البصيري:

ألف النسك والعبادة والخلـ … ـوة طفلاً وهكذا النجباءُ

وإذا حلت السعادة قلباً نشطت في العبادة الأعضاءُ

لقد وجد محمد في غار حراء ما ينشده من الوحدة والخلوة مع نفسه بعيداً عن الناس ولغوهم وضوضائهم.

نعم، هناك في الناحية الشمالية الشرقية من مكة المكرمة، وعلى بعد ثلاثة أميال منها يقع جبل حراء، وفي أعلاه كهف يقال له غار حراء. ففي تلك الناحية لا زرع ولا غرس، بل صخور بلا عمران، وأرض بلا نبات، وسماء لا تعدم الصفاء، وجو كله هدوء، لا يصل أحد إلى سفح ذلك الجبل إلّا بعد مسيرة على الأقدام تقرب من الساعة يصل إليها في طريق متعثرة، ومسارب صعبة ترتفع بالسالك تدريجياً حتى يبلغ الغار.

في ذلك المكان الخالي الذي تهيمن عليه الرهبة. في هذا الكهف اختار محمد بن عبد الله عزلته، فكان يأتي إليه ويخلو فيه، ويتعبد فيه الليالي قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لخلوة ثانية. وكان أول ما يبدأ به عند خروجه وإيابه إلى منزله الطواف بالكعبة، ومضت ليالٍ وأيام كثر فيها خروج محمدﷺ إلى ذلك الغار حتى ألف الخلوة فيه، واستطابت له رياضته الروحية التي يحس خلالها كأنما هو يدنو من الحقيقة الكبرى، ويستجلي السر الأعظم.

وكان عند ذهابه إلى الجبل وإيابه منه لا يمر بحجر ولا شجر إلّا قال: السلام عليك يا رسول الله. فيلتفت يميناً وشمالاً، فلا يرى إلّا شجراً ومدراً.

في هذا الكهف اختار محمد بن عبد الله عزلته، فكان يذهب إليه في شهر رمضان من كل عام يقيم فيه الشهر بكامله مكتفياً بالقليل من الزاد والماء تحمله إليه زوجته خديجة، وبسراج ذابل ينير الظلمة التي تحيط به. وما كانت خديجة في وقار سنها

وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوة التي تبعده عنها أحياناً، أو بالتي تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت. وإذا انطلق إلى غار حراء ظلت عيناها عليه من بعيد، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه دون أن يقتحم عليه خلوته، أو يفسد عليه وحدته، وتبدأ الحقائق التي تشغل نفسه تتكشف له شيئاً فشيئاً.

وهكذا كان كل شيء مهيئاً لاستقبال الرسالة المرتقبة، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها بكرامة ـ ليلة السابع والعشرين من شهر رجب ـ كما جاء عن أهل البيت عليهم السلام الموافق لعام ١٢ قبل الهجرة عام ٦١٠ ميلادية ـ هبط عليه الأمين جبرئيل وبيده صحيفة ـ وكان قد أخلد إلى النوم يرتاح قليلاً ـ وقال له: «**اقرأ يا محمد**». فقال صلى الله عليه وآله: «**ما أقرأ؟**». فأعاد عليه القول ثانية: «**اقرأ يا محمد**». فعاد الرسول يسأل: «**ما أقرأ؟**». فيقرأ عليه الأمين جبرئيل ويقرأ محمد معه: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إقرا و رَبُكَ الاكَرَم * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[1].

فقرأها، فعرج عنه جبرئيل، وأفاق الرسول من نومه الذي كان أشبه شيء باليقظة، وقد استنارت نفس محمد وروحه بنور الوحي، وتعلم كل ما ألقاه عليه ملك الوحي، وانتقشت تلك الآيات في صدره حرفاً حرفا وكلمةً كلمة، وراح يتلفت حواليه فلم يرَ أحداً، فأخذته رهبة الموقف. يقول صلى الله عليه وآله: «**فخرجت من الغار حتى إذا كنت في وسط الجبل، سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبرئيل**».

---

(١) العلق: ١ـ٥

بهذه الكلمات الوجيزة المعبرة خاطب الملك الأمين محمداًﷺوجهاً لوجه وبيقظة تامة ووعي كامل، لا بالرؤيا من أجل أن يثبت في عقله، ويقر في نفسه بأنه هو المختار من رب الكون.

فاضطرب لهذين الحدثين اضطراب العظمة المسؤولة، فأسرع إلى منزله من غبش الفجر ـ وهو يرجف ـ حتى دخل على زوجته الرضية، وهو يقول: «**زملوني، زملوني**». واستلقى على فراشه لعله يرتاح من هول ما لقي ويهدأ من شدة ما رأى، وتسرع زوجته الفاضلة تزمله، وطلبت منه أن يخبرها عما جرى له، فحدثها بكل ما سمع، وقص عليها ما رأى، فلم تبدِ جزعاً مما سمعت، ولم تظهر رهبة مما علمت، بل رنت إليه بنظرة المحبة والإكبار.

ونام محمد في هدأة جلبت معها القلق لزوجته المحبة الصادقة، فماذا تفعل؟ فكرت ملياً ثم قامت مهرولة إلى ابن عمها ورقة، فوجدته قابعاً في بعض زوايا تبتله وعبادته الخاصة ـ وكان قد تنصّر، وقرأ الكتب السماوية، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ـ فقصّت عليه ما سمع زوجها وما رأى، فقال: اسمعي يا خديجة، فوالذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني القول، فقد جاءه الناموس الذي كان يأتي موسى بن عمران، وإنه نبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت.

فأعاد بهذا الكلام الطمأنينة إلى قلب خديجة، فعادت مسرعة إلى زوجها الحبيب تعجل له بالبشرى، فإذا به لا يزال نائماً كما تركته، فجلست إلى جنبه، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الإنسانية في قلبها.

فبينما هي جالسة وإذا به قد أفاق مبتسماً هانئاً راضياً، وحدثته بما سمعت من ابن عمها ورقة، وقالت: أبشر يابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر.

الدعوة إلى الله

مكث الرسول في بيته فترة بعد عودته من غار حراء، وزوجته خديجة جالسة عنده، وقد عز عليها أن توقظه. فبينما هي غارقة في بحر من الأفكار وإذا بها تراه فجأة ينتفض في فراشه وتتثاقل أنفاسه ويتفصد العرق في جبهته. وظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته، وتنتظم أنفاسه، ويبدو عليه كأنما يصغي إلى محدث غير مرئي، ثم يتلو في بطء كأنه يستعيد درساً أُلقي عليه: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾[1].

تلقته خديجة بعد صحوته بين ذراعيها، فرنا إليها محمد ملياً، حتى إذا ملأ عينيه من تلك التي ملأت دنياه حباً وأمناً وسلاماً استدار ينظر إلى الفراش، وقال: «**يا خديجة، انتهى عهد النوم والراحة، فقد أمرني جبرئيل أن أنذر الناس، وأدعوهم إلى الله، وإلى عبادته**».

فمن ذا يدعو؟ ومن ذا يستجيب؟ فما كانت قريش لترضى أن يعيب أحد دينها، ويسفه أحلامها، ويحقر آلهتها التي وجدوا آباءهم لها عابدين. لقد كان أول من آمن به وصدق برسالته خديجة بنت خويلد، وكان إيمانها أمناً وسلاماً له؛ لأنها بإيمانها أقامت له بيتاً يتوفر فيه الهدوء والبركة والأمن، ويهيمن عليه الرضا والمحبة والسلام.

---

(١) المدثر: ١ ـ ٧

ويصدقه علي بن أبي طالب، ويؤمن به. وكان يافعاً، رباه النبي في بيته بدافع ما كان عنده من مودة في القربى؛ إذ كان عمه أبو طالب كثير العيال قليل المال، وقد أجدبت مكة وضواحيها تلك السنة، وقلّ فيها الماء، وأصابت الناس أزمة شديدة، فاقترح محمد أن يساعد عمه أبا طالب ويخفف عنه عبء العيال. فانطلق إلى عمه العباس ـ وكان كثير المال ـ وعمه الحمزة، وقال: «**إن أخاكما أبا طالب كثير العيال قليل المال، وقد أصاب الناس ما ترون من هذه الأزمة، فانطلقا بنا إليه نخفف عياله، يأخذ كل واحد منا ولداً يكفله**». فذهبوا جميعاً، ودخلوا عليه، وسألوه ما أرادوا، فقال: إن تركتم لي عقيلاً فافعلوا ما شئتم. فأخذ العباس طالباً، وأخذ الحمزة جعفراً ـ ولم يزل معه في الجاهلية والإسلام ـ وأخذ محمد علياً، وقال: «**لقد اخترت من اختاره الله لي عليكم**». وبقي عقيل عنده.

ووسع محمد لابن عمه مكاناً في بيته وفي قلبه، وزوّجه بعد الهجرة من الزهراء أصغر بناته وأحبهن إليه. وكان علي يوم البعثة صبياً في العاشرة من عمره، ولكنه كان يمتاز عن أترابه بذهن متوقد، وذكاء مفرط، وزادته التربية المحمدية قوة في ذاته؛ لأنها كانت تشعره دائماً بأنه من أحب الناس إليه، وأقربهم إلى نفسه.

وقد أفاض الله من عليائه على قلب علي من نعمه وفضله ورحمته ما جعل الإيمان يعمر ذلك القلب الفتيّ، حتى يكون علي أول مسلم على الرغم من حداثة سنه. وقف أمام ابن عمه محمد يعلن إسلامه، مصدقاً بـ «**أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله**» دون أن يستشير أباه. علماً أن أباه لم يخفَ عليه أمر ابنه، فما وقف في وجه إسلامه، بل شجعه عليه. قال عليعليه السلام: «**بعث النبي محمد صباح يوم الاثنين، وآمنت خديجة مساء يوم الاثنين، وأسلمت صباح يوم الثلاثاء، فأنا أول**

رجل أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله».

وكان إلى جانب النبي بمثابة الظلّ لا يفارقه أبداً، ونهض محمد ينفّذ نداء السماء، فاتّصل بمن كانت تشده إليهم صلة قرابة، أو معرفة سابقة، أو من يثق بصدقه يدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام والأوثان، فصدقه بعضهم. واستمر به الحال يدعو بصورة فردية؛ لأن الظروف يومئذٍ لا تسمح إلّا بسرية الدعوة؛ حذراً من وقع المفاجآت على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها. ومنذ تبلَّغ الرسول هذا الأمر صار يقضي أكثر أوقاته في رحاب الكعبة المشرفة حيث يكثر تردد الناس، وتعقد المجالس، ويجري التشاور في الأمور العامة.

وبعد أن يطوف بالكعبة المشرفة يجلس إلى الناس ويدعوهم لعبادة الواحد الأحد. ففي هذا المكان الطاهر، ومن رحاب الكعبة المشرفة أراد محمد أن يبدأ دعوته حيث ظلال القداسة وأسس العبادة تنبثق من ذلك المكان؛ فلعل الكعبة المكرمة بما تحمل من معاني التعبد وربط الأرض بالسماء ـ لعلها ـ توحي لمن حولها من الرواد استعداداً للهداية؛ فيصدق الناس محمداً بما يدعوهم إليه.

وهكذا كانت تسري دعوة محمد صلى الله عليه وآله إلى دين الله الواحد الأحد، وأخذ يزداد عدد المسلمين، وأخذ الناس في مكة يدخلون في دين الإسلام أفواجاً من الرجال والنساء حتى كانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب من أربعين رجلاً وامرأة دخلوا في الإسلام وإن كانت عامتهم من الفقراء والأرقّاء، ممّن لا شأن له عند قريش.

ولكي تتمرس هذه العقيدة في نفوسهم فقد شاء رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتخذ لهم مكاناً يجتمعون فيه، ويكون مدرسة يتعلمون فيها أصول الدين ونهجه القويم.

وقد حرص الرسول على أن يتجنب مواقف الاصطدام بينه وبين قومه، فاختار لهم مكاناً منعزلاً عن الناس هو دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ وهو سيد من سادات قريش الذين سبقوا إلى الإسلام ـ وكانت داره تلك على مقربة من الصفا ليجتمع بها مع أصحابه الكرام.

ولم يكن أحد من قريش يعلم أن الأرقم كان قد أسلم، ولم يخطر ببال أحد من قريش أن يتم اللقاء في داره. وكان الأرقم من بني مخزوم الذين كانوا يحملون لواء التنافس على سيادة قريش ضد بني هاشم؛ ولذا كان بعيداً عن ذهن قريش أن يجتمع محمد وأصحابه في قلب ديار بني مخزوم، كما أن الأرقم في ذلك الوقت صغير السن لا يتجاوز عمره السادسة عشرة. فلهذا وغيره كان من المستبعد أن يجتمع المسلمون في منزل هذا الفتى في نظر القرشيين.

فكان رسول الله يجتمع فيها؛ ليعلم، ويثقف، ويربي، ويعدّ، ويدرب أصحابه. وكان لا يألو جهداً في هذا الإعداد، وتزويد الصحابة بالعلم والمعرفة، ويثير في أعماقهم مكامن التفكير والتأمل بآيات الله وحفظ القرآن، وترتيل آياته، وتفسير معانيه حتى تكون الهداية كاملة وتهذيب النفوس شاملاً، ومفاهيم الإسلام واضحة ثابتة.

سار الرسول الأعظم على هذا النهج القويم حتى غدت دار الأرقم مدرسة الإسلام الأولى بحق، وفي الوقت نفسه مجمع العلم والبيان، ومكان الأنس والراحة لنفس الرسول ولأصحابه الأبرار، وجعل العلم ينتشر في تلك البيئة الوثنية الكافرة، فقد جعل من العلم الرسولصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ نقطة الارتكاز لدعوته، والدعامة التي يقوم عليها الشباب الذين أقبلوا على هذه الدعوة مؤمنين راضين

باذلين. وقد جمع منهم في دار الأرقم نفراً لا يتعدّون الأربعين شخصاً رجالاً ونساءً من قريش، ومن عامة أهل مكة وعبيدها.

فإذا كان محمد قد عمل كثيراً؛ لكي يدخل الإيمان الحق إلى النفوس، ولكي يجعل الناس تقبل على الهداية والفلاح، فإن شيئاً من ذلك لم يحصل وظلت دعوته شبه يتيمة لا يتجاوز أتباعها بضع عشرات. إلّا إن الشيء الهام الذي أحرزه الرسول العظيم هو علم الناس بالدعوة، وقد بدأ هذا العلم يسري في مكة بصورة تلقائية حتى إنه ما من بيت من بيوتها ـ وخاصة بيوت القرشيين ـ إلّا وصار أهله يتحدثون بالإسلام وبدعوة محمد، وبأنه يوحى إليه من السماء.

وانقضت السنوات الثلاث الأول من بدء الوحي، ووضع المسلمين على حاله لا يطرأ عليه أي تغيير، يذهبون للصلاة في شعاب مكة ويستخفون عن العيون في دار الأرقم. وكانوا كلما دخل أحد في الإسلام، أوصوه بالحرص على التكتم، وعدم ذيوع خبره إلّا لمن يأنس عنده نفحة للإيمان، وقابلية للهدى، وقولاً بالإسلام.

وبينما رسول الله ـ ذات يوم ـ في منزله يتلو القرآن الكريم وقد قارب الفجر الطلوع وإذا بالأمين جبرئيل ينزل عليه حاملاً الوحي من ربه صادعاً بالأمر الجليل: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[1].

---

(١) الشعراء: ٢١٤ ـ ٢٢٠

دعوة الأقربين

بقي محمد منذ أن بعثه الله نحواً من ثلاث سنين يتستر في دعوته، ويتحاشى الرأي العام وجبابرة قريش، فآمن به عدد قليل، وتستروا في إسلامهم؛ حتى لا يتعرّضوا للعذاب والتنكيل. ومع ذلك فإن أنباء دعوة محمد قد تسربت إلى المكيّين من هنا وهناك، وتحدث الناس عنها في مجالسهم، ولكنهم في تلك المرحلة من تاريخها لم يتحسّوا بأخطارها، وظنوا أن حديثها لا يزيد عن أحاديث الكهان، وأن محمداً وأتباعه عائدون إلى دينهم، وستكون الغلبة لآلهتهم لا لغيرها.

فلما جاء محمداً الأمرُ من ربه بإنذار عشيرته، والبدء بهم ـ وكان عليه أن يدعوهم لعبادة الله وحده، وأن ينذرهم ما سوف يحل بهم من عقاب ربهم إن هم استمروا على الكفر والعناد، وأنزل عليه: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ**﴾(1) ـ ضاق بذلك ذرعاً، وعرف أنه إن بادأهم بهذا الأمر رأى منهم ما يكره؛ لشدتهم في شركهم، ولا سيما عمه أبا لهب؛ فقد كان سرياً من سراة قريش، كثير المال، مسموع الكلمة، وكان شديد التعصب لدين قريش وتقاليدها، حريصاً أشد الحرص على أن يظل هذا الدين مرعيَّ الجانب، موفور الكرامة. وكانت فيه حدة وسفاهة، واندفاع مع الغضب، وكان أشد ما يسوءه أن تمس

---

(1) الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٧.

قداسة الآلهة، أو تهان كرامة الآباء، فيثور لذلك أعظم ثورة، ولا يبالي أن يعادي في سبيل ذلك أقرب المقربين، وكان رسول الله يعرف منه ذلك، ويخشى أن يفسد عليه أمره ـ فجعل يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها أن يدعو عشيرته إلى الإسلام بحيث يتّقي شر هذا العم الجهول، ويأمن من أثر نفوذه القوي على بني هاشم. ولم يكن إلّا تلبية أمر الله، فدعا بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يذبح شاة ويدعو عليها قومه.

يقول الطبري في تاريخه: عن عبد الله بن العباس عن عليعليه السلام قال: «**لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] دعاني رسول اللهﷺ وقال: يا علي، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، ولابدّ من الامتثال لأمر الله، فصمتّ عليه، حتى جاءني جبرئيل وقال: يا محمد، إنك إلّا تفعلْ ما تؤمر به يعذبْك ربُّك، وقرأ عليّ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]. فقد جاء الأمر من ربي بإنذارهم، والبدء بهم، فعليّ أن أدعوهم وأنذرهم بما سوف يحل بهم من عقاب إن هم استمروا على الكفر والعناد. فاصنع لنا صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عساً من لبن، واجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به**».

يقول عليعليه السلام: «**ففعلت ما أمرني به رسول الله، ودعوتهم له ـ وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ـ فيهم أعمامه أبو طالب، والعباس بن عبد المطلب، وحمزة، وعبد العزى ـ وكان يدعى أبا لهب؛ لأن وجهه فيما يقال كان مشرقاً حسناً تتلهب وجنتاه**

(١) الشعراء: ٢١٤

(٢) الحجر: ٩٤.

بالحمرة كما تتلهب النار ـ فلما اجتمعوا قدمت لهم الطعام، فقال النبي: كلوا باسم الله. فأكلوا حتى شبعوا، ولم يرَ فيه إلّا موضع أصابعهم، وأيم الله، إن أحدهم ليأكل مثلما قدم لهم جميعاً. ثم قال اسقِ القوم، فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا ولم ينقص منه شيء، وأيم الله إن أحدهم ليشرب مثله.

فلما انتهى من الطعام تأهب الرسول ليعرض دعوته عليهم، فبادرهم عمه أبا لهب قائلاً: لقد سحركم صاحبكم. فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله».

وكان الأجدر بعشيرة محمد الأقربين أن تتفهم صدق ما يريد قوله، وأن تؤازره وتعاضده، ولكن هذه العشيرة لم تفعل شيئاً من ذلك، بل أعرضت رجالاتها عنه، وقاموا يهمون بالخروج، ولكن هذا الإعراض لم يفتَّ في محمدصَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ولا من عزيمتهصَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ شيئاً، بل عاد بعد تلك الدعوة إلى مثلها؛ إذ ذهب بعد أيام قلائل ودعا بعلي الذي يقول: «**قال لي: يا علي، إن هذا الرجل سبقني إلى ما قد سمعت، وتفرق القوم قبل أن أكلمهم. فافعل لنا من الطعام مثلما صنعت سابقاً، واجمعهم إلي. ففعلت ما أمرني به وجمعتهم إليه، فلما أكلوا وشربوا وانتهوا من طعامهم وشرابهم بدرهم رسول الله، وقام فيهم خطيباً وقال بعد الحمد والثناء على الله: «والله إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعهم ما كذبتكم، ولو غررت الناس كلهم ما غررتكم. والله يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعو عشيرتي الأقربين، ورهطي الأدنين، وأنتم عشيرتي الأقربون ورهطي الأدنون.**

إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، فمن يجبني منكم إلى هذا الأمر، ويؤازرني

على القيام به، يكن أخي ووزيري ووصي ووارثي وخليفتي فيكم بعدي؟». يقول الرواة: فسكت القوم، ولم يجبه أحد إلّا الفتى الطري العود علي ابن أبي طالب؛ فقد انبرى من بينهم، وأعلن على ملئهم استجابته لأمر الله، وتلبيته لنداء رسول اللهﷺ. وكان أحدثهم سناً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً وأخمشهم ساقاً، وقال: «**أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه**». فقال اجلس يا علي.

يقول الحميري:

وقيل له أنذر عشيرتك الألى … وهم من شباب أربعين وشيبِ
فقال لهم إني رسول إليكم … ولست أراني عندكم بكذوبِ
وقد جئتكم من عند رب مهيمن … جزيل العطايا للجزيل وهوبِ
فأيكم يقفو مقالي فأمسكوا … وقال ألا من ناطق فمجيبي
ففاز بها منهم علي وسادهم … وما ذاك من عاداته بغريب

ثم أعاد القول ثانية وثالثة، كل ذلك يسكت القوم ولم يجبه إلّا علي، فقال النبي: «**أنت أنت يا علي.**» وأخذ برقبته، وقال: «**هذا أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا**».

وبدلاً من أن تهز صرخة هذا الفتى ضمائرهم، وأن يدبّ الإيمان في قلوبهم، راحوا يتضاحكون ويتغامزون، ويقولون لشيخهم أبي طالب: عليك أن تطيع ابنك الغلام؛ فقد أُمّر عليك. ثم خرجوا يسخرون ويستهزئون. يقول الحميري:

ويوم قال له جبريل قد علموا … أنذر عشيرتك الأدنين إن بصروا
فقام يدعوهمُ من دون أمته … ما تخلّف عنه منهمُ بشر
فقال يا قوم إن الله أرسلني … إليكمُ فأجيبوا الله وادّكروا

فأيكم يجتبي قولي ويؤمن بي   أني نبي رسول فانبرى غدرٌ
فقام منهم علي وهو أحدثهم   سناً وخيرهمُ في الذكر إذ ذُكروا
آمنت بالله قد أعطيت نافلة   لم يعطها أحد جن ولا بشرٌ
وإن ما قلته حق وأنهم   إن لم يجيبوا فقد خابوا وقد خسروا
ففاز قدماً بها والله أكرمه   وكان سباق غايات إذا ابتدروا

الجهر بالدعوة

لقد اتبع قائد الإسلام الأكبر الرسول الأعظمﷺ في دعوته إلى دينه هذه الطريقة، مركزاً جهده على الدعوة السرية مدة ثلاثة أعوام من دون تعجل، وكان يعرض دينه على كل من وجده أهلاً للدعوة، ومستعداً من الناحية الفكرية للتبليغ. ولم تقم زعماء قريش وسادات مكة خلال هذه السنوات الثلاث بأي عمل عدائي ضدّ دعوة محمدﷺ، وهو أيضاً لم يتعرض لأصنامهم وآلهتهم في هذه الأعوام الثلاث.

فلما جاءه الأمر من ربه بإنذار عشيرته، فبلغ وأنذر جاءه الرد من غاشم جهول من أكثر أبناء العشيرة قرابة له: عمه أبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب بالإعراض عن دعوته، مؤثراً الشرك بالله. لقد دعا النبي عشيرته الأقربين، وأنذرهم بأمر الله، ولكن دعوته وإنذاره لم يلقيا تجاوباً من تلك العشيرة التي أصرت على الكفر ورفض أمر الله، ولم تقف غلواؤها عند هذا الحد، بل قامت تجهر بأشد العداوة له، ويحمل لواء تلك العداوة رهط من الكفار كأبي جهل وأبي سفيان بالإضافة إلى عمه أبي لهب، ويؤلبون الناس عليه وعلى دعوته. في حين أنه كان الأجدر بعشيرة محمد الأقربين أن تتفهم صدق ما قاله لها، وتعاضده وتؤازره، ولكن هذه العشيرة لم تفعل شيئاً من ذلك، بل أعرضت رجالاتها عنه، وقاموا يهمون بالخروج لولا أن وقف علي الفتى اليافع، وأخزى سادات قريش كلهم، وأعلن على ملئهم استجابته لأمر الله، وتلبيته لنداء الرسول محمدﷺ، قائلاً:

«**أنا يا رسول الله، حرب لمن حاربت، وسلم لمن سالمت**».

ولكن هذا الإعراض لم يفتّ من عزيمة محمد شيئاً، فإذا كانت قريش قد أظهرت عداوتها لمحمد، ودعوته علناً، وبدت نذرها تلوح بالأفق بما تقوم به من تآمر وأحاييل، فلا يجوز أن تبقى دعوة محمد مستترة، بل لابد لمحمد أن يعلن دعوته على الملأ من قريش وعلى الناس أجمعين، فجاء وصعد على الصفا، ونادى: «**وا صباحاه**». فتنادى القوم من جميع جنبات مكة، وهم يقولون: محمد على الصفا يهتف، فلنَر ماذا يريد. ومن كان منهم لم يستطع الخروج أرسل رسولاً ينظر الأمر ويستطلعه.

فلما اجتمعوا قال: «**يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تصدقونني؟**». فقالوا: نعم أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذباً قط. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فأسلموا وأطيعوا تهتدوا. يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تيم، يا بني مخزوم، يا بني أسد يا أهل مكة، إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً إلّا أن تشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأني رسول الله**».

وكان رد الفعل من قريش أمام جهره بالدعوة أن أدبروا عنه، وتنكروا لدعوته، معتذرين أنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذي ورثوه عن آبائهم. وانبرى من بين القوم عمه عبد العزى بن عبد المطلب وقال: ماذا أُعطى يا محمد إذا أنا آمنت بك؟ قال: «**كما يُعطى المسلمون**». فقال: ما لي عليهم فضل؟ قال: «**وبما تفضل؟**». فقال: تباً لك ولهذا الدين الذي أكون فيه أنا وهؤلاء سواء.

بمثل هذا الرد جوبه محمد، وممّن؟ من عمه أبي لهب أقرب المقربين له، وثقل

عزم انصياع قريش لأمر الله على محمد، وأحزنه موقف عمه أبي لهب. لكنه سكت صابراً محتسباً؛ مما جعلهم يتفرقون من حوله، فجاءته المواساة لصبره من الله العلي القدير، ونزل عليه الوحي في سورة المسد: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ**﴾(١).

هكذا يأتي العقاب من الله سبحانه جزاء لتجرئه على رسول الله، وعاد بلعنة خالدة ما خلد القرآن الكريم. ولم يقف تعزيز القدرة الإلهية لمحمدصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ عند حد الوعيد لأبي لهب، بل تناول الوعيد زوجته أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، فكانت لها حصتها من الوعيد بالعقاب الأليم، فقال تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾(٢)، فقد جعلت هذه المرأة الخبيثة زوجها أبا لهب أُلعوبة بيدها، فراحت تحرضه على النبي محمدصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والإيقاع به. يدفعها إلى عملها السيّئ الحقد الدفين الذي توارثته عن آبائها الذين كانوا يناصبون بني هاشم العداء.

كما أمرت ولديها عتبة وعتيبة أن يطلقا بنتي محمد رقية وأم كلثوم، ظناً منها أن هذا الطلاق يؤذي محمداً ويثقل كاهله. وكانت تجمع الشوك وتضعه في طريق النبي محمدصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وعلى باب بيته؛ إذ كانت تجاوره في السكن.

فلم تكن لتبقى بدون جزاء، بل خصّتها السماء بما هو أكثر من زوجها لا بسعير النار الملتهبة في الآخرة فحسب، بل في الحياة الدنيا جعلتها آيات الله سخرية على الأفواه حيث ترسم صورتها وهي تحمل الحطب لتوقد النار وفي عنقها حبل من ليف لحزم الحطب.

---

(١) المسد: ١ ـ ٣

(٢) المسد: ٤ ـ ٥

ولم تكن هذه الصورة الساخرة التي رسمتها القدرة الإلهية لزوجة أبي لهب إلّا ترذيلاً لفعلها الشنيع حين كانت تجمع الشوك وتضعه في طريق محمد.

ولقد خيل لتلك المرأة اللعينة ـ بعدما تناقل الناس كلمات الله المعبرة بتصوير قرآني يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدلّة بحسبها ونسبها ـ أن رسول الله يهجوها بالشعر، فعمدت هي تقرض الشعر؛ لتذم به محمداً، وتسميه مذمماً لا محمداً، وخرجت إلى الحرم، وبيدها فهر من الحجر وهي تقول:

مذمماً قلينا ودينه أبينا

وأمره عصينا

فوصلت إلى الكعبة وكان النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جالساً بفنائها، ومعه أبو بكر، فقال له: يا رسول الله، إنها امرأة بذيئة، فلو قمت عنها؛ لأنها تريدك بسوء. فقال: «**إنها لن تراني**». فوقفت عندهما، وقد أخذ الله ببصرها فلم ترَ محمداً، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، واللات والعزى، لو وجدته لضربته بهذا الفهر.

فلما انصرفت قال أبو بكر للنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أما تراها رأتك؟ قال: «**لقد أخذ الله ببصرها فلم ترني**». يقول البوصيري:

وأعدت حمالة الحطب الفهـ ـر وجاءت كأنها الورقاءُ

يوم جاءت غضبى تقول أفي مثـ ـليَ من أحمد يقال الهجاءُ

وتولت وما رأته ومن أيـ ـن ترى الشمسَ مقلةٌ عمياءُ

ومهما تألّبت قوى الشر على محمد وعلى الإسلام فإنه استمرّ في دعوته، لم يقعده عن الجهر بها شرك مشرك، ولا يثنيه عن عزمه استهزاء مستهزئ، ولم يعد يستخفي

عن عيون الناس، بل استمر يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك رادّ، ولا يصده عن ذلك صادّ، يتبع الناس في أنديتهم، ويلحقهم في مجامعهم ومحافلهم، ويدخل عليهم في الندوات، وينتظرهم في المواسم ومواقف الحج، يغشى جوانب مكة وأسواقها، ويذهب إلى الأسواق المحيطة بها في مجنة، وعكاظ، وذي المجاز، وغيرها، يطرق الأبواب، ويستأذن في الدخول على أهلها هادياً مبشراً منذراً. يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير.

نعم أعلنت الدعوة وراح محمد وأتباعه يعملون ليلاً ونهاراً، علانية وجهاراً، ولم يكن هذا النهج الذي اتبعه الرسول وأصحابه في الجهر بالدعوة ليذهب سدى؛ فالاتصال بالجماعات والقبائل ـ التي كانت تأتي مكة إلى بيت الله الحرام حجاجاً، أو معتمرين، أو تجاراً مضاربين ـ قد جعل دعوة محمد حديث هؤلاء عندما يفدون وعندما يغادرون إلى قومهم، يلازمهم خبر الدعوة في الحل والترحال، وبين الأهل والأقارب، وبين الآحاد والجماعات، فتناقل الناس الخبر، وشاع بين قبائل العرب جمعاً قريبها وبعيدها.

وهذا الأمر قد أثار مخاوف القرشيّين، فاندفعوا للبحث عن طرق وأساليب جديدة للقضاء على الدعوة الإسلامية قبل أن يستفحل أمرها، وتنتشر بين القاصي والداني. وكان اندفاع قريش في هذا السبيل مردّه الخوف على مكانة قريش والحرص عليها من الأخطار التي قد تتعرض لها من انتشار الدعوة الإسلامية؛ فقريش سيدة قبائل العرب، والدعوة الإسلامية أول ما تطال كبراءها وزعماءها، وتذهب بتلك الغطرسة القائمة فيهم على الحسب والنسب، وعلى التباهي بأنهم

وحدهم الأشراف وغيرهم السفهاء.

فإذا استتب أمر الدعوة، فلسوف تزال الفوارق، وتتحقق المساواة بين مختلف الطبقات في مكة، فلا يبقى بينهم وبين الفقراء والعبيد والموالي تلك المكانة التي تميزهم، وتجعلهم الأسياد على من سواهم.

ولقد باتت قريش تدرك هذه المخاطر من واقع دعوة محمد الإسلامية، وأن مثل هذه الأخطار قد باتت تلوح في أفق مكة على لسان محمد وأتباعه، وهو ما أوجست منه خيفة؛ فهو أمر يقض مضاجع سادة الكفر، وأركان الشرك، فيوغر صدورهم بالحقد على الدعاة، ويملأ نفوسهم بالبغضاء لهم.

الهجرة إلى الحبشة

كانت قريش على اختلاف بطونها وعشائرها في اعتقاد العرب أهل الحرم، وجيران الله. وكان للحرم مكانة عظمى في نفوس العرب جميعاً؛ ومن أجل ذلك كان العرب يعظمون قريشاً، ويدينون لها بالسيادة عليهم؛ ويعتقدون أن أسياد قريش هم أولو الأمر، وأصحاب الحلّ والعقد في كل ما يتصل بشؤون الدنيا والدين.

وكانت قرش تستفيد من ذلك أيما فائدة، فمكانتهم مرموقة، وسيادتهم مطلقة، وحياتهم مطمئنة وآمنة بما تحمله العرب في مواسم الحج لهم من الأموال والمتاع، وما يقدمونه إلى البيت من أنواع الهدايا، وإلى الأصنام من نذور وقرابين، بالإضافة إلى الضرائب التي يفرضونها على الداخلين في أرض الحرم، والعرب يتقبلونها؛ بحكم العقيدة والدين.

أما وقد جاءهم دين محمد الذي يساوي بين العبيد والسادة، فهذا هو خطر عظيم داهم يهدد مصالحهم، ويقلق أمنهم وراحتهم، ويغير الأوضاع في علاقات المجتمع التي تعارفوا عليها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل.

ومعه سوف لا يبقى بينهم وبين الفقراء، والعبيد والموالي تلك المكانة التي تميزهم، وتجعلهم الأسياد على من سواهم، وأنهم وحدهم الأشراف وغيرهم السفهاء؛ مما أثار مخاوف القرشيين، فاندفعوا للبحث عن طرق وأساليب للقضاء على الدعوة الإسلامية قبل أن يستفحل أمرها، وتنتشر بين الداني والقاصي. فكان

أن ألّف أبو لهب حزباً لمقاومة دعوة الرسول صلى الله عليه وآله، فكان يخرج إلى أحياء مكة وأسواقها بحثاً عن محمد، وكلما وجده مع قوم أفسد عليه أمره، ومنعه من تبليغ رسالته. ووقفت قريش في وجه محمد وأصحابه آخذة بمبدأ أبي لهب العدو اللدود لله ولرسالة رسوله.

وكان أول ما فكرت به قريش في مواجهة الدعوة عن طريق مفاوضات تطمح بالمساواة، والإغراء بالمال والجاه والسلطان؛ أملاً في أن يتنازل محمد عن دعوته. ولكن بعد أن سمعوا من محمد كلمته الفاصلة التي أوضح فيها تصميمه الثابت على دعوته: «**لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه**»، كان لابد لها من تبرير لهزيمتها، ففكرت باتباع سياسة التنكيل والتشريد لأتباع محمد؛ حتى ينفضّوا من حوله، فتموت الدعوة في مهدها. فعمدت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يفتنونهم عن دينهم، ويحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتدّ الحر وحميت الشمس؛ خصوصاً من لم تكن له عشيرة تحميه وتحفظه، فإنه يتعرض لأشدّ البلاء. ومن هؤلاء من سقط تحت التعذيب، وبحراب الجلّادين، كبلال الحبشي فقد كان يخرجه أمية بن خلف ـ سيده ـ إلى البطحاء في الهاجرة، ويضع على صدره صخرة عظيمة، ويقول له: لا أتركك حتى تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. ويرد عليه بلال الحافي الجائع المعذب، فيقول: أحد، أحد.

ومنهم ياسر وسمية وعمار، الأسرة الطيبة الذين كانوا أهل بيت الإسلام، وقد أعطوا الإسلام أجسادهم ودماءهم وأرواحهم. وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار وأبيه وأمه إذا حميت الظهيرة ليعذبوهم برمضاء مكة؛ فيمر محمد على مسرح

التعذيب، فيثير حماس الصابرين بقوله: «**صبراً آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**». فيزداد هتافهم لله عزّ وجلّ، وتصعد أرواحهم إليه راضية مرضية. وبعد حين من التعذيب استشهدت سمية تحت وطأة التعذيب، فقد طعنها أبو جهل بحربته الآثمة في قلبها، فقضى عليها، فكانت أول شهيدة في الإسلام. وكذلك قضى ياسر والد عمار تحت التعذيب، والتحق بزوجته في ركب الشهداء. ولم يتخلص عمار ابنهما من الموت إلّا بعد أن أعطى المشركين من لسانه ما يريدونه.

ومنهم عبد الله بن مسعود، وأبوذر، وخباب بن الأرتّ، وصهيب الرومي، وغير هؤلاء كثير لم يرهبهم قهر ولا بطش، ولا وعد ولا وعيد.

وكان النبيﷺ يرى كل ما ينزل بأصحابه من البلاء والأذى والفتنة في دينهم، والتعذيب في أجسادهم، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، فيتألّم، ويشقّ عليه أنه لا يستطيع أن يفعل لهم شيئاً، ويحزّ في نفسه أنه لا يقدر أن يرفع عنهم الظلم.

وقد ضافت بهم مكة حتى صار الإيذاء عاماً، فلم ينجُ منه أحد من المسلمين، فقد كان القرشيون يلاحقون أولئك النفر المؤمنين به إن خرجوا لأعمالهم وكسب قوت عيالهم، أو ذهبوا إلى الأسواق يبتاعون متاعاً، أو كانوا في زيارة، أو صلاة، أو تبشير؛ حتى حل الضيق بالمسلمين من كل جانب، وانتابهم الخوف على أنفسهم وعلى أهليهم وأطفالهم، وعلى أرزاقهم ومواشيهم.

وكثرت شكوى المسلمين إلى النبيﷺ من شدة غلواء قريش، وكان النبي يدرك هذا الأمر، ويدرك مدى الضيق والألم اللذين يعاني منهما المسلمون، إنه يدرك كل شيء، ويجب القيام بعمل ما يخفف به عن كاهل المسلمين بعض ما

يعانون، فراح يفكر فيما يجب أن يفعل. وبعد طول تفكير جمع أصحابه، وأبان لهم أنه لا يجد مخرجاً مؤقتاً من هذه الأوضاع إلّا بابتعاد المسلمين عن اضطهاد قريش.

ولم يكن النبيﷺ يفكر ويخطط ويعمل وحده، بل كانت العناية الإلهية ترصد تحرك الدعوة فتوحي للرسولﷺ بالأوامر وما يتناسب مع جو الدعوة؛ ولذلك أشار عليهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، وقال لهم: «**إن فيها ملكاً لا يظلم من كان عنده، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه**».

وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث النبيﷺ ـ الموافقة ٦١٥ ميلادية ـ وخرج في ذلك الشهر من تلك السنة المسلمون في أول هجرة لهم في جوف الليل متخفّين عن أعين قريش حتى لا يلحقوا بهم، ويمنعوهم من مغادرة مكة.

استيقظت قريش على أنباء تلك الهجرة لتلك القافلة المؤلفة من اثني عشر رجلاً، وأربع نسوة، وقدّرت أن هؤلاء سيكونون دعاة للإسلام في بلد يؤمن بالنصرانية، فخرجت لتردّهم إلى مكة، ولكنهم كانوا قد انطلقوا آمنين من شواطئ جدة قبل وصولهم إليها.

ولما وصلوا أرض الحبشة أكرم النجاشي وفادتهم، فأقاموا مدة ثلاثة أشهر ـ أو أكثر ـ في أمن وأمان، يمارسون فيها أمور دينهم، ويعبدون ربهم بحرية، لا يخشون أحداً، ولا يسمعون ما يكرهون في ظل ملك عادل يتميز بحسن الخلق؛ فضلاً من اعتناقه دين النصرانية.

وجاءتهم الأخبار بمهادنة قريش للمسلمين، فعاد منهم قوم إلى مكة، وتخلف آخرون، فوجدوا أن قريشاً لا تزال على موقفها العدائي، بل إنها أصبحت أشد في

مواقفها من موقفها الأول، ولذلك كان لابد أن يقرر النبي صلى الله عليه وآله ما يراه في صالح المؤمنين؛ وفقاً لتسديده من السماء بمخطط جديد نفذه بسرية حيث فوّت فيه على قريش الفرصة. فكان أن أمر أصحابه بالهجرة مرة ثانية إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم. وكانت هذه الهجرة ـ الثانية ـ بقيادة جعفر ابن أبي طالب.

وكانت الهجرة الثانية أوسع من سابقتها، فقد هاجر منهم ثلاثة وثمانون رجلاً، وإحدى عشرة امرأة قرشية، وسبع من غير قريش يقصدون جميعهم بلاد الحبشة، فكانت ثاني هجرة في الإسلام. فوجدوا عند النجاشي ما يبغون من أمان، وطيب جوار، وكرم وفادة. ويقيم هؤلاء المهاجرون مع من سبقهم في الهجرة أحراراً آمنين مطمئنين إلى جوار ملك عادل، أكرم وفادتهم، وأحسن معاملتهم بعدما عرف بأمر مجيئهم هرباً من قومهم الذين ناصبوهم العداء وأنزلوا بهم الويلات.

وجنّ جنون قريش عندما علمت أن ملك الحبشة قد أوى المهاجرين، وآمنهم على دينهم، وأمر رعيته أن تعاملهم بالحسنى، فلا يُظلم منهم أحد. فاجتمع أقطاب دار الندوة، فتشاوروا في هذا الأمر، فاستقر رأيهم على أن يبعثوا إلى النجاشي ووزرائه وبطارقته بالهدايا النفيسة من متاع مكة وأطيب الأدم ليستطيعوا التأثير عليه وإقناعه بضرورة إخراج المسلمين المهاجرين من أرضه، وإعادتهم إلى مكة.

فما وجدوا أكثر كفاءة واستعداداً من عمرو بن العاص أحد الدهاة المعروفين، وعبد الله بن أبي ربيعة أجمل فتى في قريش. وفور وصولهما قاما بتوزيع الهدايا والتحف على النجاشي ووزرائه وبطارقته، وجعلا يتملقان له بأشد أنواع الدهاء والخبث، فارتاح لهما النجاشي، وسألهما عما يريدان، وما جاءا من أجله، فقالا:

عفوك أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدكم منا غلمان سفهاء، خرجوا عن ديننا، وضلّلوا أمواتنا، وعابوا آلهتنا، وفارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، بل جاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنتم. وإن تركناهم وداءهم لم نأمن أن يفسدوا دينك، وقد بعثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردوهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً.

وكان النجاشي قد علم أن المهاجرين من مكة إلى بلاده قوم ضعفاء، قد لحق بهم الظلم والقهر، فآثروا الاحتماء بجواره، فقال: لا والله، لا أسلم قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، وقد اختاروني على من سواي، حتى أدعوهم إلي، وأعرف من خبرهم ما يطمئن إليه قلبي؛ فإن وجدتهم على ما تقولان كان لي شأن معهم، وإن كانوا على خلاف ذلك كنت لهم مانعاً، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

فبعث في طلب المسلمين؛ ليطلع على حقيقة ما سمعه من رجلي قريش، فجاء وفد من المسلمين على رأسه جعفر بن أبي طالب، فقال النجاشي: يا معشر المهاجرين، هذان مبعوثان من قريش يقولان: إنكم فارقتم دين قومكم، واتبعتم رجلاً جاء يدعو إلى الفرقة بين أبناء قومه، فماذا تقولون؟ فقال جعفر: اعلم ـ أيها الملك ـ أنا كنا أهل جاهلية، نعبد الحجارة، ونصلي للأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فبعث الله فينا نبياً منا نعرف نسبه وشرفه، وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان والأصنام، وأمرنا بالصلاة والصوم والحج، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء

الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم وإراقة الدماء، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات واجتناب المظالم، ونهانا عن الفواحش، وعن قول الزور، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً. وفقّهنا بتعاليم الإسلام، وحثّنا على اتباع مكارم الأخلاق، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، وعبدنا الله وحده، وحرّمنا ما حرّم علينا، وحلّلنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان والأصنام، والتخلي عن عبادة الله. ولما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ألّا نظلم عندك.

فاهتزت مشاعر النجاشي، وأشرق وجهه، وقال لجعفر: هل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شيء تقرؤه علي؟ قال جعفر: نعم. وقرأ عليه آياتٍ من صدر سورة مريم، وما أن انتهى من التلاوة حتى بكى النجاشي وبطارقته، وكل من حضر عنده، ثم التفت إلى موفدَي قريش وقال لهما: انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما.

ولما أحس عمرو بن العاص وصاحبه عبد الله بن ربيعة مبعوثا قريش بإفلات الزمام من أيديهما، وانتصار المسلمين عليهما، عادا في الغد مرة أُخرى لإغراء النجاشي بالمسلمين المهاجرين، فقالا له: أيها الملك، إن هؤلاء يقولون في المسيح قولاً عظيماً، يزعمون أن المسيح عبداً مملوكاً، وينكرون عليه أنه ابن الله؛ مما جعل النجاشي يشمئز لذلك.

وأرسل على الفور إلى المسلمين مرة ثانية؛ فجاؤوا يقدمهم جعفر بن أبي طالب، وقال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ وكيف تنكرون أنه ابن الله؟ فقال

جعفر: والله ما نقول فيه إلّا ما جاء به نبينا محمد، إنه يقول: إن المسيح هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. وعاد جعفر يتلو عليه آيات من سورة مريم، فلما انتهى من التلاوة أخذ النجاشي عصاه وخط بها على الأرض خطاً وقال ـ وقد بلغت منه المسرة أكبر مبلغ ـ: ليس بين ديننا ودينكم أكثر من هذا الخطّ.

ويطمئن النجاشي، ويقول لجعفر: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، والله ما أحب أن لي ديراً ـ أي جبلاً ـ من ذهب، وأني أذيت أحداً منكم. وأمر بعض رجال حرسه أن يردا إليهما هداياهما، وقال لهما: احملا معكما هدايا قومكما؛ فلا حاجة لي فيها، وارحلا، ولا تعودا بمثل ما أتيتماني به.

وخرج عمرو بن العاص وصاحبه يجرّان أذيال الخيبة والخسران.

صمود النبي وصبره

عاد موفدا قريش من الحبشة وهما يتجرعان كأس المرارة والحسرة، وقد باءت مهمتهما بالفشل، فاجتمع زعماء الشرك يتشاورون فيما آل إليه أمرهم من الخيبة والخسران، فقالوا: والله لقد أصبح محمد بن عبد الله خطراً علينا، لا ندخل بيتاً من بيوت قريش إلّا ونجد أهله يتحدثون عن محمد بن عبد الله، وعن الدين الذي جاء به، وإن هذا الخطر قد بات يلوح في أفق مكة على لسان محمد بن عبد الله وأتباعه، فمحمد لا يتوقف من أن يظهر دين الله الذي يدعو إليه كما أمره ربه. وقد فشا ذكر الإسلام في القبائل بمكة المكرمة، وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وبعد مداولات ومحاولات اتفقوا على أمور تخصّ النبي نفسه منها:

١ـ استمالة النبي وإغراؤه بعروض واسعة: المال، والجاه، والسلطان، والحكم.

٢ـ التعجيز، أي أن يأتيهم بمعجزات وخوارق تشهدها أم العين.

٣ـ الدعاية؛ باتهامه زوراً وبهتاناً بأنه كذاب، وشاعر، ومجنون، وساحر.

٤ـ الاستهزاء والأذى.

فاجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، وبعثوا لمحمد بن عبد الله: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فبادر إليهم ـ ظناً منه أنهم بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ـ فقالوا له: يا محمد، إنا دعوناك لنُعذر إليك؛ فوالله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك؛ لقد كفّرت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلّا جئته فيما بيننا وبينك؛ فإن كنت جئت بهذا تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى

تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كانت علة غلبت عليك طلبنا لك من يشفيك، وإن كنت لم تقبل منا شيئاً مما عرضناه عليك فائت بقرآن غير هذا يذكر آلهتنا بخير، ونحن نذكر إلهك بخير، ونعبد ربك سنة، وتعبد آلهتنا سنة.

فقرأ عليهم سورة (الكافرون). فقالوا: إذا كنت غير مستعد أن تبدل قرآنك، وتريد أن نؤمن بك فاسأل ربك الذي بعثك أن يزيل عنا هذه الجبال التي قد ضيقت بلادنا، ويبسط لنا الأرض، ويفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب؛ فإنه شيخ صدق، فنسألهم عما تقول؛ أحق هو أم باطل، فإن صدقوك صدقناك.

فقال: «ما بي مما تقولون، وما جئت بها جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم ما أرسلت به، ونصحت لكم؛ فإن تقبلوه فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

فقام إليه أحدهم وهو يقول: يا محمد، لقد أفسدت كل أمر بيننا وبينك، ولم يبقَ أمامنا إلّا أن نقتلك ونخلّص أهل مكة من شرّك. فقال محمد: «**حسبي الله ونعم الوكيل**». وقام وانصرف عنهم.

وبعد هذا التحدي من قريش فماذا عليها أن تفعل وهي تراه يعود إلى سيرته الأولى، بل أشد صلابة من ذي قبل؟ فهو لا يترك طوافاً حول الكعبة، ولا صلاة في رحابها، فماذا يفعلون إذن؟

قالوا: إن أبا طالب هو شيخ قريش ـ ولنا عليه حق الرعاية، كما إن لابن أخيه

عليه حق الحماية، فلنذهب إليه كي ينظر بأمر محمد. فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا له: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك محمداً قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف؛ فسنكفيكه.

لقد كانوا يتوهمون بأن أبا طالب على دينهم ودين آبائهم: دين الوثنية والشرك، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، فاشتد الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله، وحض بعضهم بعضاً عليه. ولما رأوا أن محمداً لم يتوقف عن أداء رسالة السماء، عادوا إلى أبي طالب، وهم يتساءلون: هل إن أبا طالب معهم ضد ابن أخيه، أم إنه ضدهم، وعلى دين ابن أخيه؟ فقالوا له: يا شيخنا إن لك سناً وشرفاً، ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك محمد فلم تنهَهُ عنا، وإنا وحق اللات والعزى التي نعبد، لا نصبر على هذا الحال الذي نحن عليه من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.

وهنا أحس الشيخ بعد خروج القوم بأن الضيق يملأ صدره، والقلق يستبد به، والهم بلغه من كل جانب؛ لأن الموقف بات ينذر بالخطر، فهو لا يرغب في فراق قومه ولا عداوتهم، ولا يطيب نفساً أن يخذل ابن أخيه ويسلمه لهم، فحاول أن ينزع أسباب القتال، فبعث إلى ابن أخيه، وعرض عليه ما جاء به القوم، وقال له: كل ما أرجوه منك يا بني أن تبقي عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فرأى الرسول أنه عمه يظهر تردداً، أو تخوفاً؛ فظن أنه قد بدا لعمه فيه، وأنه

خاذله أو مسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فرفع النبي محمد رأسه إلى عمه وقال: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه**».

ثم استعبر وبكى وقام ليخرج، وكان لتلك الكلمة الصادقة أثر عجيب في نفس زعيم مكة وسيدها، بحيث نادى ابن أخيه، وضمه إلى صدره، وكأنه يريد أن يزيل كل ضيق أو قلق أو وهم ساوره، وقال: يابن أخي امضِ على أمرك، وقل ما شئت، وافعل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً. وجعل يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	**حتى أوسّد في التراب دفينا**
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	**وابشر بذاك وقر منك عيونا**
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي	**ولقد صدقت وكنت ثمَ أمينا**
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	**من خير أديان البرية دينا**
لولا الملامة أوحذاري سنة	**لوجدتني سمحاً بذلك مبينا**

ولما عرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه محمد وإسلامه لهم، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، لم يروا بدّاً من المجيء إليه مرة أخرى، يغرونه بشيء قد يطيب له فيتنحّى عن نصرة ابن أخيه.

فمشوا إليه، ومعهم عمارة بن الوليد، فقالوا: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأكثرهم جمالاً، وأنطقهم شعراً، وهو كما تعلمه من جمال الخلق وحسن الصفات، فخذه فلك عقله ونصرته، واتخذه ولداً، وسلم لنا ابن أخيك محمد هذا الذي يخالف ديننا ودينك ويفرق جمعنا وجمعك، فنقتله فإنما هو رجل برجل.

فأخذت الدهشة أبا طالب وهو يرى ما يعرضون عليه، وقد بدأ الاستهجان والعجب واضحين على ملامح وجهه، وقال لهم: والله، لبئس ما تسومونني؛ أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني لتقتلوه؟ هذا والله لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: والله يا أبا طالب، لقد أنصفك قومك يا عم، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، ولكن ما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فغضب شيخ قريش من هذا القول، وقال: اخرس أيها الوقح، ثكلتك أمك، والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم علي، اغرب عن وجهي، وافعل ما بدا لك. فاشتد الأمر، وأظهرت قريش عداوتها لمحمد ومن أسلم معه، فلما علم شيخ قريش عداوتهم لابن أخيه، أنشد قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره أنه غير مسلّم رسول الله، ولا تاركه لشيء أبداً. حتى يهلك دونه:

ولما رأيت القوم لا ود فيهمُ ... وقد قطعوا كل العرا والوسائلِ
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدوّ المزايلِ
وقد حالفوا قوماً علينا أظنة ... يعضون غيضاً خلفنا بالأناملِ
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من ترات المقاولِ

إلى أن يقول:

كذبتم وبيت الله نبزي محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضلِ
ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

الإسراء والمعراج

يقول عبد الباقي العمري:

وسبع السماوات أجرامها لغير عروجك لم تخرقِ
وعن غرض القرب منك السمام لذي قاب قوسين لم تمرقِ
وأسرى بك الله حتى طرقت طرائق بالوهم لم تطرقِ
ورقّاك مولاك بعد النزول على رفرف حف بالنمرقِ

في الوقت الذي أخذت فيه الهموم من نفس المصطفى كل مأخذ، تدخلت العناية الإلهية لتواسي محمداً وتطمئنه على مصير دعوته. فوقعت أعظم معجزة عرفها الإنسان على وجه الأرض تأييداً للمصطفى ذاته، وتشريفاً له وحده دونما أية علاقة لها بالإسلام.

وكأنما أراد الحق عزّ وجل أن يوقع في نفس رسوله المصطفى أنه إذا كان أهل الأرض لم يحمدوه ولم يعرفوا قدره، فإن السماء تعرف له القدر الكبير، وتوليه جزيل الحمد. وإذا كان الناس يرفضونه ويرفضون ما يدعوهم إليه، فإن الله سبحانه وتعالى يجتبيه ويشرفه، ويدعوه إليه ليريه من آياته الكبرى ما تطمئن به نفسه، ويرتاح له فؤاده، ويزيل الأثقال والهموم عنه وعن جسمه وقلبه، فحدثت المعجزة الفريدة: معجزة الإسراء والمعراج.

لقد اتفق المسلمون على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله أُسري به ليلاً من المسجد الحرام

إلى المسجد الأقصى، ومنه عُرج به إلى السماء؛ ليرى من مظاهر قدرة الله، وعجائب مخلوقاته ما خفي على أهل الأرض، وعجزت عنه عقولهم ومداركهم. ونص الكريم على المرحلة الأولى من مراحل تلك الرحلة في الآية الشريفة من سورة الإسراء فقال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾[1].

واختلف المؤرخون والمحدثون في أنها متى، وكيف حصلت.

فأما متى؟ فحين وصلت الحالة بالنبي المصطفى إلى أقصى درجات المرارة والألم. وبدأت الرحلة من بيت أم هاني أخت الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ليلاً.

ورجّح بعض أنها وقعت ليلاً من المسجد الحرام لقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ (لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)**﴾، فالآية الشريفة تصرح بأن العروج وقع ليلاً، ومن المسجد الحرام. لكن هل وقعت هذه الحادثة قبل موت عمه أبي طالب، أم بعد موته؟ وهل هي في السابع والعشرين من شهر رجب، أم في الليلة الأولى منه ليلة جمعة، وهي ليلة الرغائب التي حدثت فيها الصلاة المشهورة؟ وهذه الليلة هي التي قال فيها الشاعر:

ليلة الجمعة أول رجب ... ليلة الجمعة أعرج بالنبي

فقيل: بعد موت أبي طالب، وفي السابع والعشرين من شهر رجب كما جاء في بعض الروايات المؤكّدة.

وهل العروج وقع بالجسد والروح، أم بالروح فقط؟ فرجّح الأكثرية أنه

---

(١) الإسراء: ١

بروحه وجسمه معاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ فهو تعبير يستعمل فيه الجسم والروح معاً، ولو كان المعراج بالروح فقط لزم أن يقول (بروحه).

ومجمل القول أن الإسراء والمعراج آية من آيات الله على نبوة المصطفى التي حدثت بقدرة الله، وقدرته لا تحيط بها العقول، ولا تدركها الأفهام، والمعجز لابد أن يكون فوق مستوى العالم والعقل.

قصة المعراج

كان الليل يخيم على الأفق، ويسود الظلام كل مكان، وقد رقدت جميع الأحياء، وغمضت الأجفان ـ وذلك قانون الطبيعة ـ ولم يكن المصطفى بمستثنى عن هذا الناموس الطبيعي، فبينما هو في المسجد الحرام في حجر إسماعيل بعد أن صلى صلاة العتمة سمع صوتاً مألوفاً مأنوساً، وكان ذلك صوت الأمين جبرئيل يخبره بأن أمامه الليلة سفراً بعيداً، ورحلة طويلة، وأنه سيرافقه في هذه الرحلة.

وأخذ بيده وخرج معه إلى باب المسجد، وإذا بالباب دابة بيضاء اللون من دواب الجنة، مكتوب بين عينيها: «لا إله إلّا الله، محمد رسول الله»، يقال لها البراق، ومعناه البرق، وهي دابة دون البغل وفوق الحمار لها عرف كعرف الفرس، يضع حافره عند منتهى بصره. وهي الدابة التي كان الأنبياء يركبونها من قبل، وهي التي ركبها نبي الله إبراهيم حين جاء بزوجته هاجر وابنها إسماعيل إلى محل البيت الحرام، وكان يزورهما عليها كلّما أراد زيارتهما، وكان مسرجاً ملجماً. يقول: «**فحملني عليها بأمر ربه، فانطلق بي في الهوى، فرأيت الآيات ما بين السماء والأرض، وكان معي جبرئيل لا يفوتني ولا أفوته حتى أتينا بيت المقدس، فوجدت إبراهيم وموسى وعيسى فيما شاء الله من الأنبياء والمرسلين، وكان الله قد جمعهم إلي. فنادى جبرئيل بالصلاة، وأذّن شفعاً، وأقام شفعاً وقال في أذانه حي على خير العمل. ولا أشك أن جبرئيل سيتقدمنا، وإذا به قد أخذ بيدي، وقدمني**

للصلاة، فصليت بهم إماماً، ثم عرج بي إلى السماوات السبع، كل سماء يفتح لي بابها، فتتلقاني الملائكة بالبشرى، حتى انتهينا إلى السماء السابعة، فرأيت ما فيها من عجائب الآيات الإلهية من العظمة والكبرياء، ومواطن العزة والجبروت الدالة على قدرة الله».

لقد رأىﷺ من آيات ربه الكبرى، حتى انتهى به إلى البيت المعمور، فدخله وصلى فيه ركعتين، ثم مضى به إلى سدرة المنتهى، وطاف به إلى ما حول العرش والكرسي والسرادقات، فعاين من مخلوقات الله ما عاين، وأبصر من جبروت ربه ما أبصر، فلما انتهى إلى الحجب تخلف عنه جبرئيل وقال له: «**تقدم يا محمد**». فقالﷺ: «**عند الشدائد تخذلني يا أخي جبرئيل؟**». فقال: «**يا محمد لقد بلغت ما لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك، لقد وطئت بقدمك بساط القدرة الذي لم يطأه نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وليس لي أن أجوز هذا المكان، ولو دنوت قدر أنملة لاحترقت، ولولا أن روحك ونفسك كانا من ذلك المكان لما قدرت أن تبلغه**».

فتقدم رسول الله ما شاء له أن يتقدم حتى تجاوز سدرة المنتهى، وقرب من ساق العرش الأعلى، واستقبل ربه تبارك وتعالى مطرقاً قائلاً: «**السلام عليك**». فنودي من ساق العرش: «**وعليك السلام يا محمد، إني أنا الله لا إله إلّا أنا المؤمن المهيمن العزيز الجبار شققت اسمك من اسمي؛ فأنا المحمود وأنت محمد؛ فمن وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته. انزل لعبادي وأخبرهم بكرامتي إياك، وإني لم أبعث نبياً إلّا جعلت له وزيراً، وإن علي بن أبي طالب وزيرك**».

فقال رسول اللهﷺ: «**أنت السلام ومنك السلام، وإليك يعود السلام**». يقولﷺ: «**فوضع الجبار يده على كتفي، فوجدت بردها بين جوانحي، وكلمني**

ربي وكلمته، ورأيته بقلبي وما رأته عيني». قال تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[١].

وفرض عليه من الأحكام ما فرض، وعلمه الصلاة كما هي اليوم، وكذلك الأذان، وعاد إلى جبرئيل، فطاف به السماوات، وأطلعه على الجنة والنار، وصلى في البيت المعمور بالملائكة، وشرب من ماء الكوثر، وأكل من شجرة طوبى، ثم أعاده جبرئيل إلى المسجد الحرام قبل الفجر من الليلة نفسها.

ولا يمكن للعقل البشري أن يستغرب وقوع هذا الحدث العظيم؛ فالقدرة الإلهية قد أثبتت لبني الإنسان في أكثر من زمان أنه في حياة النبيين والمرسلين لا شأن للقوانين والنظم التي يعرفها أبناء البشر، فالإرادة المطلقة التي خلقت هذا الكون العظيم بما فيه من عوالم وآفاق هي نفسها التي نفذت الإسراء والمعراج.

وهذه الإرادة الإلهية هي التي أعطت سليمان بن داود ملكاً لا ينبغي لأحد من قبله، وسخرت له الرياح ذلولاً، والجن خدماً، والشياطين عبيداً، ومكنته من فهم لغات الطيور والحشرات. وهي نفسها التي جعلت عصا موسى تلقف ما يأفكون، وجعلت المسيح بن مريم يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى ويعلم ما يخفون وما كانوا يكنزون، وهي التي حفظت يونس في بطن الحوت، والتي جعلت نار النمرود على إبراهيم برداً وسلاماً.

فهذه الدلالات تعبر عن الإسراء والمعراج ـ أي الانتقال من مكان إلى مكان آخر بواسطة لا يدركها البشر، وتفرض على الإنسان الإذعان لها والرضوخ لحكمها، وهي التي تقول للشيء كن فيكون ـ فالإسراء والمعراج لا يمكن إنكاره،

---

(١) النجم: ٨ ـ ١١

ولا التنكر له ما دام القرآن الكريم قد أثبته وأكده بصورة واضحة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[١].

لقد أكمل الله حدثي الإسراء والمعراج لنبيه محمدﷺ في ليلة واحدة من بعد صلاة المغرب بروحه ونفسه وجسده من مكة إلى بيت المقدس، ثم إلى السماوات السبع، وعاد إلى مكة قبل أن يطلع فجر تلك الليلة. وجعل يتفكر في السبل التي تمكنه من أن يوصل للناس هذين الحدثين الهامين العظيمين اللذين أكرمه الله واختصه بهما وحده دون سائر عباده. فلما صلى الفجر في تلك الليلة، وطاف بالكعبة، أقبل وجلس مع نفر من قريش كانوا جلوساً في ظلال الكعبة كعادتهم، وراح يحدثهم عن حديث ليلته، وكيف أسرى به الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماوات العلا، حتى كان من ربّه قاب قوسين أو أدنى، والكل سكوت بين ذاهل ومندهش، وبين منكر ومكذب إلّا فئة قليلة آمنت بصدق ما يقول؛ لأنها تعرف أن محمداً ما قال كذباً قط في حياته، ولا ينطق إلّا حقاً، ولا يقول إلّا صدقاً. فإذا كان لا يكذب على الناس، فهل يكذب على ربه، وهو عندهم قبل الرسالة الصادق الأمين؟

---

(١) النجم: ١ ـ ١٨

يقول المجلسي في بحاره: إن الإسراء بمحمد من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات السبع في ليلة واحدة كان بجسده الشريف وروحه الطاهرة الطيبة؛ مما دلّت عليه الآيات الكريمة، وجاءت به الأخبار الشريفة المتواترة من طرق الخاصة والعامة، وإنكاره ناشئ عن قلة التدين، وضعف اليقين. فالإسراء والمعراج حقيقتان واقعتان، والتشكيك فيهما أو إنكارهما يوجبان الخروج من الإسلام عند أكثر المسلمين؛ لأن إنكارهما تكذيب للقرآن الكريم فيما يعود إلى الإسراء، وتكذيب للحديث المتواتر المعلوم الصدور عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بالنسبة للمعراج.

عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**من أقر بتوحيد الله، وآمن بالمعراج فهو من شيعتنا أهل البيت حقاً، ومن كذب بالمعراج فقد كذّب رسول الله صلى الله عليه وآله** ».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء: المساءلة في القبر، وخلق الجنة والنار، والشفاعة يوم المعاد، والمعراج**».

قريش والمقاطعة

لقد رأت قريش أن ما استعملته من وسائلها مع النبي محمد وصحبه من المسالمة والإغراء، ومن السخرية والاستهزاء، ومن الإرهاب والتعذيب، ومن الدعاية والتهويش لم يجدِها نفعاً، ولم يصرف الناس عن دعوة الإسلام، ولم يحل بينها وبين الظهور والانتشار؛ فما من بيت في مكة إلّا وفيه من آمن بها أو هو على وشك الإيمان بها، وقد امتد خطرها إلى خارج الحجاز إلى الحبشة.

ورأت قريش أن فشلها في معالجة الأمور قد زاد الدعوة الإسلامية قوة وانتشاراً، وخاصة بعد فشلها في بلاد الحبشة، وأن عمرو بن العاص وصاحبه قد عادا إليهم من النجاشي بما يكرهون. ورد الفعل الذي أصاب سيد العرب أبا طالب من أنه قد أبى خذلان ابن أخيه محمد وتسليمه لهم، وأنه قد حدب عليه، وقام دونه، واستأثر بقلبه، وأصبح أحب إليه، وأعز عليه من جميع أهله وأولاده، وأن أنصار محمد يزيدون يوماً بعد يوم، وأصبحوا قوة لا يمكن مكافحتها، يعني أنه لا سبيل إلى الوصول إلى محمد، وإنهم غير قادرين على بلوغ ذلك إطلاقاً.

وهكذا فإن عليها إذن أن تعتزم إتباع نمط جديد من أنماط عداوتها، فتفكر في مقاطعة شاملة لا تقتصر على محمد، وعلى أتباع الإسلام وحسب، بل تشمل بني هاشم؛ لأنهم يحمون محمداً ويمنعونه منها؛ مما جعل دار الندوة تفتح أبوابها؛

لتتلقى اجتماعاً لأقطاب الشرك، وبعد مداولات ومشاورات ومفاوضات قررت بكل بطونها مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، وأن تفرض عليهم حصاراً اقتصادياً قوياً، مادياً ومعنوياً، وسياسياً واجتماعياً، تقطع به كل الشرايين الحيوية للمسلمين، وتقضي عليهم من غير أن يكونوا مطالبين بدمهم.

وجاؤوا بصحيفة دونوا فيها بنود المقاطعة، وكتبوا بينهم كتاباً تعاقدوا فيه وتعاهدوا، وهم شيوخ الكفر، وأسياد الوثنية على قطع كل الصِلات مع بني هاشم وبني عبد المطلب، فلا ينكحون منهم ولا ينكحون إليهم، ولا يبايعونهم ولا يبتاعون منهم شيئاً، ولا يخالطونهم قولاً أو عملاً، ولا يتعاملون معهم في شيء بيعاً ولا شراءً، ولا يأخذون منهم أو يعطونهم شيئاً مهما كان نوعه، ولا يجتمعون معهم على أمر من الأمور على الإطلاق، أو يسلموا إليهم محمداً يقتلونه أو يتخلوا عنه ويخذلوه، ويعودوا إلى ندوة قريش يقرون بما تقرر ويأتمرون بما تأمر.

وكتبوا في صحيفتهم عهوداً ومواثيق منها أنهم لا يقبلون من بني هاشم وبني عبد المطلب صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة حتى يدفعوا إليهم محمداً ليقتلوه. وكلفوا منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف أن يكون كاتب الصحيفة، فدعا عليه النبي محمد، فشلّت يداه فما كان ينتفع بهما. وختموا القرار بثمانين خاتماً لرجال كلهم من وجوه قريش ممن يفوق سنه الأربعين، وأدخلوا معهم عبد العزى بن عبد المطلب ـ أبا لهب ـ وأبا سفيان وعلقوا تلك الصحيفة في جوف الكعبة المشرفة توكيداً به لذلك الأمر على أنفسهم.

واتفقوا بينهم أن هذا الحصار سيدوم ما دامت الصحيفة معلقة بالكعبة، وظنوا أن هذه المقاطعة هي أكثر الأسلحة تأثيراً على محمد ودعوته، وكان أبو طالب قبل

الصحيفة مستشاراً في قريش، يرجعون إليه في أمورهم، وكان من أعز الناس عليهم، إذا رفع يده رفعوا أيديهم معه، وإذا طلع عليهم قاموا احتراماً له، فلما كتبوا الصحيفة صاروا لا يعبؤون بأمره، ولا يحضرون له نادياً، ولا يمتثلون له أمراً ولا نهياً.

وصار يتجرّع منهم الغصص، ويتحمل الدواهي، ولكنه لا يزداد إلّا شدة في نصرة ابن أخيه محمد، وقوة لإظهار أمره، ويقول:

فلا تسفَهَنْ أحلامكم في محمد ... ولا تتبعوا أمر الغواة الأشائمِ
تمنيتم أن تقتلوه وإنما ... أمانيّكم هذي كأحلام نائمِ
وإنكّم والله لا تقتلونه ... ولما تروا قطف اللحى والجماجمِ
زعمتم بأنا مسلمون محمداً ... ولما نقاتل دونه ونزاحمِ

فما فت ذلك في عضده، بل دافع عن ابن أخيه محمد دفاع المستميت، وجاهد في سبيل الإسلام جهاد الأبطال، وكافح أقطاب الشرك والوثنية من زعماء القبائل وشيوخها كفاحاً لا هوادة فيه، وثبت ثباتاً باهراً أمام الزعازع والعواصف، ولما بلغه أمر الصحيفة أنشد يقول:

ألا بلّغا عني على ذات بينها ... لؤياً وخصا من لؤي بني كعبِ
ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبيا كموسى خط في أول الكتْبِ
وأن عليه في العباد محبة ... ولا حيف فيمن خصه الله بالحبِّ
وإن الذي ألصقّتم في كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية السغبِ
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الثرى ... ويصبح من لم يجنِ ذنباً كذي ذنبِ
ولا تتبعوا قول الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودّة والقربِ
وتستجلبوا حرباً عواناً وربما ... أمرّ على من ذاقه حلب الحربِ
فلسنا ورب البيت نسلم أحمداً ... لعزّاء من عض الزمان ولا كرب

ولم يكن أمام شيخ قريش إلّا أن يجمع بني هاشم، ويدعوهم إلى ما يجب عليهم من منع ابن أخيه محمد، والموت دونه، والحفاظ على حياته وسلامته، وأنشد قصيدته التي يخبر فيها قريشاً بأنه غير مسلّم ابن أخيه، ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه ومنها:

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم	**وقد قطعوا كل العرا والوسائلِ**
وقد صارحونا بالعداوة والأذى	**وقد طاوعوا أمر العدو المزايلِ**
وقد حالفوا قوماً علينا أظنة	**يعضّون غيظاً خلفنا بالأناملِ**
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة	**وأبيض غضب من ترات المقاولِ**
كذبتم وبيت الله نبزي محمداً	**ولما نطاعن دونه ونناضلِ**
ونسلمه حتى نصرّع دونه	**ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ**

فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه مسلمهم وكافرهم، منهم من فعل ذلك حمية، ومنهم من فعل ذلك إيماناً ويقيناً إلّا ما كان من عبد العزى بن عبد المطلب، وأبي سفيان بن حرب؛ فقد خرجا من بني هاشم وظاهرا عليهم قريشاً.

وأمرهم أن يدخلوا مع محمد شعبهم، وأن يمنعوه ممن أراد قتله، أو إيصال الأذى إليه. وخرجت هذه المقاطعة ببني هاشم إلى شعب أبي طالب بظاهر مكة؛ شيبهم وشبانهم، نسائهم وأطفالهم، وقبعوا فيه منعزلين عن أهل مكة، وعن العرب عزلة تامة. فقال أبو طالب يمدحهم على ما وافقوه عليه من الحدب والنصرة لابن أخيه محمد، فهو يقول:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر	**فعبد مناف سرها وصميمها**
وإن حصلت أشراف عبد منافها	**ففي هاشم أشرافها وقديمها**

وإن فخـرت يومـاً فـإن محمـداً ... هو المصطفى مـن سـرها وكريمهـا
تـداعت قـريش غثهـا وسـمينها ... علينا فلم تظفـر وطاشـت حلومهـا
وكنـا قـديماً لا نقـر ظلامـة ... إذا ما ثنـوا صـعر الرقـاب نقيمهـا
ونحمـي حماهـا كـل يـوم كريهـة ... ونضرب عـن أحجارهـا مـن يرومهـا
بنـا انـتعش العـود الـذواء وإنمـا ... بأكنافنـا تنـدى وتنمـي أرومهـا

نعم لقد هانت عليهم الدنيا وهم في غالبهم أصحاب الثروات والمواشي، وذوو البيوت المفتوحة على مصاريعها، يقرون الضيف، ويطعمون الجائع، ويسوسون الناس، فلا أمر يقطع إلّا برضاهم، ولا شيء يقام في مكة إلّا بإرادتهم، فهم أسياد العرب ومشايخ مكة وأمراء الحرم، وأصحاب مناصب الكعبة. هكذا كانوا حتى أخرجتهم قريش إلى الشعاب، ووصلوا إلى تلك الحالة المزعجة.

وعلى الرغم من كل ما حلّ بهم وحصل لهم فقد كان لهم الشرف الأعلى؛ إذ ما زالوا يحافظون على العهد، فقد عاهدوا شيخهم أبا طالب على منع محمد ـ وهم يلاقون من ذلك العهد ما يلاقون ـ فلا يحيدون عنه، ولا يتخلون عن كلمة أعطوها، فهل تجد أكثر منهم اعتزازاً وشرفاً ومكرمة؟ يقول شاعرهم:

يرجّـون منـا خطـة دون نيلهـا ... ضـراب وطعـن بالوشـيج المقـومِ
ويرجـون أن نسـخي بقتـل محمـد ... ولم تختضـب سـمر العـوالي مـن الـدمِ
كـذبتم وبيـت الله حتـى تفلقـوا ... جمـاجم تلقـى بـالحطيم وزمـزمِ
وتقطـع أرحـام وتنسـى حليلـة ... حلـيلاً ويغشـى محـرم بعـد محـرمِ
على مـا مضـى مـن ظلمكـم وعقـوقكم ... غشـيناكم فـي أمـركم كـل مـأتمِ
وظلم نبـي جـاء يـدعو إلـى الهـدى ... وأمر أتى مـن عنـد ذي العـرش قـيم
فـلا تحسـبونا مسـلميه ومثلـه ... إذا كـان فـي قـوم فلـيس بمسـلمِ
فهـذي معـاذير وتقدمـة لكـم ... لكيلا تكـون الحـرب قبـل التقـدمِ

الحصار في الشعب

إن سياسة المقاطعة التي اعتمدتها قريش قد جعلت أصحاب الشعب معزولين عن سائر الناس، فلا اتصالات معهم؛ لا اقتصادية، ولا سياسية، ولا اجتماعية إطلاقاً، اللهم إلّا ذلك الاختلاط البسيط الذي كان يسمح فيه للمسلمين بالنزول أيام الأشهر الحرم، موسم الحج وموسم العمرة، والذي كان يجد فيه الرسول الكريم سبيلاً للخروج من عزلته المفروضة عليه للاتصال بقبائل العرب التي تفد إلى مكة في الموسم ودعوتها إلى دين الله.

في هذه الأوقات كان النبيﷺ ينزل مع بعض الصحابة كل يوم من أيام الموسم ثم لا يلبثون أن يعودوا في المساء إلى الشعاب دون أن يتمكنوا من حمل شيء معهم؛ إذ كانت قريش لهم بالمرصاد، تمنعهم، وتحول دون قيامهم بأية عملية بيع أو شراء، أو قبول هدية، أو سداد دين. حتى إذا انقضت أيام الأشهر الحرم منع عليهم النزول إلى مكة، وظلوا في الشعاب على أحوالهم المتردية.

لقد حققت المقاطعة أهدافها من العنت والظلم؛ إذ استطاعت قريش أن تخرج الرسول الكريم والمسلمين، وبني هاشم وبني عبد المطلب معهم من مكة إلى الشعاب في ظاهر مكة، فيمضون ثلاث سنوات كاملة في المقاطعة التامة شيبهم وشبابهم، ونساؤهم وأطفالهم، وقبعوا في الشعاب منعزلين عن مكة وعن العرب عزلة تامة.

وكانوا يلاقون من أنواع الجوع والحرمان أشدّها، ومن أشكال الحاجة والعوز أكثرها، فلا يجدون ما يأكلون، اللهم إلّا بعض ما كانت تنبت الأرض من أعشاب صالحة للأكل يشدون بها رمق أكثرهم حاجة. لقد بلغ الجهد والجوع بالمحاصرين في الشعب حدّاً جعلهم يأكلون الأعشاب وورق الشجر، وقد أقامت قريش جواسيسها على الطرق المؤدية إلى الشعب؛ ليمنعوا إيصال الطعام إلى من فيه، فلا يصل إليهم شيء إلّا سراً، وحظروا على من يدخل مكة من العرب على ألّا يبيع عليهم شيئاً، ومن خالف انتهبوا ماله.

تلك هي الأحوال والأوضاع التي كان عليها أصحاب الشعب من جراء المقاطعة التي فرضتها عليهم قريش، والتي وصلت إلى حدّ يفوق التصور، لكنها لم تفتّ في عضد أبي طالب، بل بقي يدافع عن ابن أخيه محمد، حتى إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر محمداً أن يضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكراً واغتيالاً؛ فإذا نام الناس أمر أحد أبنائه أن ينام على فراش محمد، وأقام محمداً وأنامه على فراش ابنه، ويقول:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد ... وأحببته حب الحبيب المواصلِ
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... زينا لمن والاه رب المشاكلِ
أشم من الشم البهاليل ينتمي ... إلى حسب في حومة المجد فاضلِ
فمن مثله في الناس أي مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضلِ
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً ليس فيه بغافلِ
كريم المساعي ما جد وابن ماجد ... له إرث مجد ثابت غير ناضلِ
فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تجر على أشياخنا في المحافلِ
لكنا اتبعناه على كل حالة ... عن الدهر جداً غير قول التهازلِ

لقــد علمــوا أن ابننــا لا مكــذب ... لــدينا ولا نعبــا بقــول الأباطــلِ

فأصبح فينـا أحمـد فـي ارومـة ... تقصــر عنــه سَــورة المتطــاولِ

حــدبت بنفســي دونــه وحميتــه ... ودافعت عنـه بالـذرا والكلاكـل

فأيـــده رب العبــاد بنصـــره ... وأظهــر دينــاً حقــه غيــر باطــلِ

ولم ننسَ دور أم المؤمنين الأولى خديجة بنت خويلد التي أوقفت كل طاقاتها المادية والمعنوية في سبيل دعوة الإسلام؛ فإنها لم تردد في الخروج مع زوجها، وتخلت عن دارها الحبيبة؛ دَورِ صباها، ومجمعِ هواها، ومنبت ذكرياتها. وقامت مع زوجها ونبيّها تنصره، وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد. وقد علت بها السن، ونأت بأثقال الشيخوخة، وأقامت معهم في شعب أبي طالب ثلاث سنين صابرة مع الرسول ومن معه من صحبه وقومه، صابرة مع زوجها على عنت الحصار المنهك، وجبروت الوثنية الراسخة العاتية العمياء.

وكانوا لا يخرجون منها إلّا من موسم إلى موسم؛ مما اضطرهم إلى أكل ورق الشجر اليابس يدرؤون به عوائد الجوع؛ حيث قطعت عليهم قريش الميرة والمادة، فلم يصل إليهم شيء إلا سراً. حتى بلغ منهم الجهد، وسمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشعب. لقد ظنت قريش أن هذه المقاطعة هي أكثر الأسلحة ـ التي استخدمتها حتى الآن ـ أثراً في محاربة محمد ودعوته. ذلك أن الاشتداد على بني هاشم وبني عبد المطلب، ومن تابعهم ودَفْعَهم لترك ديارهم وتجويعهم سوف يقضي على نفوذهم، ولا تكون لهم القدرة على الاحتمال، فيتخلون عن محمد. لقد كانوا يرون أنه إذا رأى محمد نفسه وحيداً، رجع عن دعوته، وتعود الأوثان إلى

سابق عزها ومجدها.

تلك هي تصورات قريش من لجوئهم إلى المقاطعة التي أقرتها ونفّذتها، ولكن هل حققت هذه المقاطعة أغراضها فعلاً؟ أمّا من حيث الظاهر، فنعم، وأما من حيث الجوهر فلم تؤدِّ تلك المقاطعة إلى القضاء على الدعوة الإسلامية؛ لأن المسلمين ظلوا على إيمانهم ثابتين، ومن يمنعون محمداً ظلوا على عهدهم قائمين. إذن فالدعوة باقية، ولا يمكن لإرهاب قريش على غلبة أمر الله.

واستمرت المقاطعة ثلاث سنين، حتى أبطل مفعولها يوم أعلن النبيﷺ عن ربه أن الأرضة قد أكلت صحيفتهم، وبعد أن أخبرهم شيخ قريش بذلك وقعت فتنة بين قوى الشرك، كانت نتيجتها في صالح الرسالة المقدسة حيث أسلم عدد كثير من الناس فضلاً عن أن المقاطعة أدت إلى تصلب عقيدة بني هاشم وبني عبد المطلب وأتباعهم من المؤمنين.

نقض الصحيفة

لما أراد الله أن يجعل كلمته العليا ممثلة في نبيه محمدﷺ، وكلمة الظالمين السفلى ممثلة في طغاة قريش الحاقدة، بعث الله الأرضة على صحيفتهم التي كانت ما تزال معلقة في جوف الكعبة دون أن يجرؤ أحد على أخذها أو المساس بها، فلحست جميع ما كان فيها من شرك وظلم وجور وقطيعة رحم، ولم يبقَ فيها إلّا ما كان من ذكر الله عز وجل. وهنا هبط الأمين جبرئيل على النبي محمدﷺ ـ وهو في الشعب ـ وأخبره بما فعلت الأرضة، فأقبل النبيﷺ إلى عمه، وقال: «**يا عم، إن الأمين جبرئيل أخبرني عن ربي أنه قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلّا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان**». فقال: ربك أخبرك بهذا؟ قال: «**نعم**». فخرج أبو طالب من الشعب يعدو حتى دخل الحرم، وهو يقول: لا والثواقب، ما كذبني محمد قط.

وجاء ووقف بإزاء الكعبة، وصاح: يا معشر قريش، هلموا لأبلغكم ما بعثني به ابن أخي محمد، فذاع الخبر في أرجاء مكة، فاجتمعوا إليه وقد ظن البعض من قريش أن شيخ القبيلة جاء يحمل إليهم خبر الاستسلام، وأنه قبِل أن يدفع إليهم ابن أخيه محمداً، بينما أوجس البعض خيفة من مجيئه لعلمهم بمقدار صلابته وتمسكه برأي يتخذه. لقد جاؤوا يتدافعون نحو المسجد الحرام، وفي نفس كل منهم شتى الظنون، حتى إذا اجتمع الملأ من قريش قام أبو طالب فيهم خطيباً،

وقال: يا معشر قريش، إن الأمين جبرئيل نزل على ابن أخي محمد في الشعب، وأعلمه أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة، فلحست كل ما كان فيها من جور وظلم وقطيعة رحم، ولم تُبقِ فيها إلّا ما كان من ذكر الله. فإن كان ما قاله ابن أخي علمت أنكم ظالمون لنا، قاطعون لأرحامنا، وإن كان الذي قاله ابن أخي باطلاً علمت أنكم على حق، ودفعت إليكم ابن أخي تفعلون به ما تشاؤون، فما ترون في هذا يا معشر قريش؟

وبعد التشاور قالوا: رضينا بما تقول، وتعاقدوا على ذلك، فأرسلوا من يأتيهم بالصحيفة ـ وكانوا يسلمون سلفاً أن النتيجة سوف تكون لصالحهم؛ إذ لا يمكن لأرضة أن تأكل كلّ ما في الصحيفة، ولا تترك إلّا جزءاً يسيراً من رأسها الذي كتب عليه عبارة باسمك اللهم. فلما فتحوها وجدوها كما قال محمد بخلاف ما كانوا يظنون، ونعم كانت دهشة زعماء قريش شديدة حين وجدوا أن الصحيفة داخل اللفافة قد أكلت برمتها إلّا فاتحتها حيث اسم الله تبارك وتعالى، فصاح شيخ القبيلة أبو طالب: أرأيتم يا معشر قريش، إنكم أولى بالظلم والقطيعة منا؟ والله ما كنا لنقدم يوماً على مثل ما أقدمتم عليه، ولا أن نستسيغ هوانكم بمثل ما رضيتم هواننا. فنكس زعماء المشركين رؤوسهم دون أن يقولوا له شيئاً، فهل يقدرون على المضي في المقاطعة وقد انتصرت عليهم الأرضة، فتفرقوا إلى بيوتهم محزونين مهانين.

وعاد أبو طالب إلى الشعب يزفّ إلى أهليه خبر نقض الصحيفة، ويدعوهم إلى العودة إلى مكة مرفوعي الرأس، عالي الهمم. ولم يستطع أبو طالب أثناء عودته في الطريق إلى مكة أن يمنع نفسه من التأثر، فجاشت قريحته، فقال في نقض الصحيفة

قصيدة منها:

لقد كان في أمر الصحيفة عبرة ... متى ما يخبّر غايب القوم يعجبِ

محا الله منها كفرهم وعقوقهم ... وما نطقوا من ناطق الحق معربِ

فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ... ومن يختلق ما ليس بالحق يكذبِ

وانتهت المقاطعة، وخرج من كان في الشعب إلى مكة عائدين إلى ديارهم ليتابعوا الدعوة بعزيمة أمضى، وثبات أشد من ذي قبل. وكان خروجهم في السنة العاشرة من المبعث النبوي الشريف قبل الهجرة بثلاث سنين.

لقد انهار الحصار أمام ذلك الإيمان الصادق، والمجاهدة الباسلة، وآن للنبي أن يعود إلى بيته في جيرة الحرم المكي الشريف مع زوجته المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المحنة ما أبقى لها الزمان من طاقة في عامها الخامس والستين.

نعم، عاد الرسول ـ ومعه المسلمون ـ بعد انهيار حصار الشعب إلى ممارسة نشاطاتهم السابقة في الدعوة إلى دين الله، وفي حثّ الناس على تقبل الإيمان والاهتداء إلى الحق. فازداد عدد المسلمين أكثر من ذي قبل، وازداد تفتح الأذهان على دعوة الإسلام؛ إذ لم يعد لدى قريش أشد من سلاح المقاطعة، وقد استخدمته، فما فتّ في عضد عمه الذي بذل روحه وماله في نصرة ابن أخيه اليتيم، وفدا نفسه في بناء الإسلام، وإقامة دعائمه في أيام محنته وغربته، وكافح جبابرة العرب، وتحدّى طغاة قريش بصلابة وإيمان، ولاقى في سبيل الإسلام أشد ألوان الحقد والتنكيل.

وفي السنة العاشرة من المبعث ـ التي توافق ٦٢٠ ميلادية، وقد ناهز أبو طالب الثمانين من العمر ـ أصابه مرض جعله طريح الفراش، وكانت المعاناة التي لاقاها

خلال سنوات المقاطعة الثلاث قد زادت في وهنه وضعفه، حتى جعلت المرض يقوى عليه. فزارته زعماء قريش على الرغم من موقفه المعادي لموقفها إلّا إنها ترى فيه الصلة التي استمرت قائمة بينها وبين ابن أخيه محمد، واستغلت فرصة اللقاء فكلمته في أمر محمد، وقالت: يا أبا طالب، أنت منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، ونحن نتخوف عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك محمد، فضع حداً للخصام بيننا وبين ابن أخيك؛ فخذ له منا، وخذ لنا منه؛ ليكف عنا، ونكف عنه، ويدعنا وديننا، وندعه ودينه.

وبدافع حبه لابن أخيه، وفي أمله أن يفارق الحياة وقد اطمأن قلبه على ابن أخيه من عنت قريش وظلمها بعث في طلب محمد، وأخبره بما قالته زعماء قريش، فقال لهم: «**نعم، كلمة واحدة تعطونيها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**». فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات. فقال: «**تقولون: لا إله إلّا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**».

فقالوا: يا محمد، أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجيب. وقاموا وخرجوا، فقال أبو طالب: والله، ما رأيتك سألتهم شططاً. ولم ينقضِ على ذلك اللقاء إلّا بضعة أيام حتى توفي شيخ البطحاء.

وصية أبو طالب

لقد تنوزع في اسم أبي طالب فمنهم من قال: إن اسمه عبد مناف بن عبد المطلب، واستدلوا بقول عبد المطلب له في وصيته بمحمد بن عبد الله:

أوصيك يا عبـد منـاف بعـدي ... بمــؤتم بعــد أبيــه فــردِ

مات أبوه وهـو حلـف المهـدِ ... حـافظْ عليـه لا يضـامَ بعـدي

ومنهم من قال: إن اسمه كنيته «أبو طالب»، واستدلوا بأن الإمام علياًعليه السلام كتب في كتاب النبي إلى يهود خيبر بإملاء المصطفى «**علي بن بي طالب**» ـ بإسقاط الألف في (أبي) ـ مما يدل على أن اسمه كنيته.

ومنهم من قال: إن اسمه عمران، وكنيته أبو طالب، واستدلوا بقول عبد المطلب أيضاً في وصيته له بمحمد بن عبد الله:

أوصـيت مــن كنيتــه بطالــبِ ... بابن الذي قد غـاب لـيس آيـبِ

وأجمع الإمامية على أن اسمه عبد مناف، وكنيته أبو طالب، ولقبه الكفيل وذي الكفل، ويعرف بمؤمن قريش، وسيد العرب، ورئيس مكة، وزعيم الحرم، وشيخ البطحاء.

ولما حضرته الوفاة دعا قومه من بني هاشم وبني عبد المطلب، وأحضر أبناءه الأربعة: طالب بن أبي طالب الذي كان به يكنى، وعقيل بن أبي طالب والد مسلم بن عقيل ـ شهيد الكوفة ـ وجعفر بن أبي طالب شهيد مؤتة ـ الأردن ـ ووالد عبد الله بن جعفر زوج شريكة الحسينعليه السلام في نهضته زينب ابنة عليعليه السلام بطلة كربلاء،

والإمام علي بن أبي طالب زوج الصديقة فاطمة الزهراء، ووالد الحسن والحسينعليهما السلام. ولما حضروا جعل يوصيهم ويقول: «يا بني هاشم، ويا بني عبد المطلب، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب النابض، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدام الشجاع، الواسع الباع. اعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلّا أحرزتموه، ولا شرفاً إلّا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم إلب.

وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية ـ يعني الكعبة ـ فإن فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة. صلوا أرحامكم ولا تقطعوها؛ فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق؛ ففيها هلكة القرون قبلكم. أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيها شرف الحياة والممات. وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة؛ فإن فيهما محبة في الخاص، ومكرمة في العام.

يا بني هاشم، ويا بني عبد المطلب، أوصيكم بمحمد بن عبد الله خيراً؛ فإنه الأمين في قريش، والصدّيق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به من مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات. وقد جاءنا بأمر قبله الجِنان وأنكره اللسان؛ مخافة الشنان ـ أي البغض ـ وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً. وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أخطاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطته قيادها».

ثم نظر إليهم، وجعل يؤكد عليهم الوصية في حماية ابن أخيه، ويحثهم على اتّباعه، ويقول: «يا بني هاشم، ويا بني عبد المطلب، دونكم ابن أبيكم، كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، فوالله لا يسلك أحد سبيله إلّا سعد، ولا يأخذ أحد بهديه إلّا رشد. ولا تزالون بخير ما سمعتم من محمد، وما أتبعتم أمره فإنه لا يدعوكم إلّا إلى خير. وأنشد يقول:

إلا إن خير الناس أماً ووالداً ... إذا عد سادات البرية أحمدَ
نبي الإله والكريم بأصله ... وأخلاقه وهو الرشيد المؤيدُ

فأجيبوا محمداً وصدقوه تهتدوا، واسمعوا له وأطيعوه تفلحوا، واحموه واتبعوه ترشدوا، وتنالوا السعادة في دينكم وحياتكم وأُخراكم؛ فهو المبشر به على لسان المسيح بن مريم، وهو أفضل من مضى وأفضل من يأتي، وهو نبي هذه الأمة. ولو كان لنفسي مدة، وفي الأجل تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ودفعت عنه الدواهي».

ثم التفت إلى ولديه علي وجعفر، وإلى أخويه الحمزة والعباس يوصيهم بابن أخيه، ويقول: «إن محمداً نبي صادق، وأمين ناطق، وإن شأنه أعظم شأن، ومكانه من ربه أعلى مكان؛ فأجيبوا دعوته، واجتمعوا على نصرته، وراموا عدوه من وراء حوضته؛ فإنه الشرف الباقي لكم طول الدهر». وأنشد يقول:

أوصي بنصر نبي الخير أربعةً ... علياً ابني وشيخ القوم عباسا
وحمزة الأسد المخشي صولته ... وجعفراً أن تذودا دونه الناسا
وهاشماً كلها أوصي بنصرته ... أن يأخذوا دون حرب القوم أمراسا
كونوا فداء لكم أمي وما ولدت ... في نصر أحمد دون الناس أتراسا
بكل أبيض مصقول عوارضه ... تخاله في سواد الليل مقباسا

ثم خنقته العبرة، وبكى وقال: «أستودعكم الله». وفاضت روحه.

يقول اليعقوبي في تاريخه: لما علم رسول اللهﷺ بموت عمه، عظم ذلك في قلبه، واشتد له جزعه، وراح ودخل عليه، وجعل يمسح جبينه بيده، ويقول: «**يا عم، ربيت صغيراً، وكفلت يتيماً، ونصرت كبيراً؛ فجزاك الله عني خيراً**». ومشى بين يدي سريره وهو يقول: «**وصلت رحماً، وجزيت خيراً**».

وفاة أبي طالب

في نحو من ستة أشهر من انهيار الحصار فوجئ الإسلام بفقد المحامي والمدافع الأول عن النبي محمدﷺ في أقسى ظروفه، مات العم والكفيل أبو طالب بن عبد المطلب، شيخ البطحاء، ورئيس مكة، وسيد العرب، الرجل المؤمن الصلب الذي وقف المواقف البطولية في وجه الشرك وأقطابه في اليوم السادس والعشرين من شهر رجب، وقيل: من شهر شوال في السنة العاشرة من البعثة، وقبل الهجرة بثلاث سنين.

وكان لابن أخيه محمد أباً صديقاً، وكافلاً، ومحامياً، ومانعاً له من قومه طواغيت قريش، وعبدة الأوثان، ولم تشهد أم المؤمنين خديجة مأتمه، فقد كانت في فراشها تودع الدنيا. توفي أبو طالب الذي دافع عن الإسلام، وتوقف القلب الذي نبض بالحب لمحمد بن عبد الله منذ تفتحت عيناه على الدنيا، وظل ينبض بهذا الحب حتى آخر لحظة من حياته.

لقد دافع شيخ البطحاء عن ابن أخيه دفاع المستميت، وجاهد في سبيل الإسلام جهاد الأبطال، وصال وجال في ميادين الذبّ عن الدين ـ وهو بعد رضيع في مهده ـ صولاتٍ كلها إيمان وإخلاص، وجولات حسم وعزم، وكافح أقطاب المشركين من زعماء القبائل وشيوخ العشائر كفاحاً مرّاً لا هوادة فيه.

فلما مات مؤمن قريش الوفي، اشتدت وطأة المشركين على النبي محمدﷺ، وعظمت محنته، وكثر بلاؤه؛ لأنه كان عضداً له، وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً له

على قومه، وقائماً في صفه، ومدافعاً عنه بكل ما يقدر عليه من نفس ومال، ومقال وفعال. وهو الذي كفله صغيراً، وأواه يتيماً، ونصره كبيراً، ولاقى من أجله أشدّ البلاء والعناء. يقول الشاعر:

كفل النبيَّ المصطفى خيرَ الورى ... ورعى الحقوق له بصدق ودادِ
رباه طفلاً واقتفاه يافعاً ... وحماه كهلاً من أذى الأضدادِ
ولأجله عادى قريشاً بعدما ... سلكوا طريق الغي والإفسادِ
وانصاع يحمي أحمداً في نفسه ... بالجاه والأموال والأولادِ

يقول المفيد: لما مات أبو طالب أتى أمير المؤمنين رسول الله، فأعلمه بموت أبيه، فتوجع توجعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، وقال لأمير المؤمنين: «**أمضِ يا علي وتولَّ غسله وتحنيطه وتكفينه، وإذا رفعته على سريره فأعلمني**».

ففعل الإمام عليعليه السلام ذلك، ولما رفعه على السرير اعترضه النبي محمدﷺ برقة وبحزن، وقال: «**وصلت رحمك، وجزيت خيراً يا عم؛ فقد ربيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً؛ فجزاك الله خيراً**». ودفن بمقبرة الحجون بمكة المكرمة، ورثاه ابنه علي بهذه الأبيات:

أبا طالب عصمة المستجيرِ ... وغيث المحول ونور الظلمْ
لقد هدّ فقدك أهل الحفاظِ ... فصلّى عليك ولي النعمْ
ولقّاك ربك رضوانه ... فقد كنت للمصطفى خير عمْ

لقد كانت الفاجعة كبيرة على رسول اللهﷺ، ولكن ما زال عنده خديجة أم المؤمنين الأُولى الوفية، الصادقة المخلصة، التي جندت نفسها منذ تزوجت من هذا النبي العظيم لخدمته، والقيام على راحته، فصارت بعد أبي طالب الملاذ الذي

يأوى إليه، ويخفف عنه بعض أحزانه وهمومه، ولكنها لا تلبث بعد موت أبي طالب إلّا مدة وجيزة من الزمن أن تذوي هي الأخرى، ويعجز الجسم الرهيف الشريف عن التحمل، فترحل عن الحياة في السنة نفسها، وكأنها كانت مع أبي طالب على موعد مع الموت.

وعلى أثر وفاة الشيخ الجليل أخذت يد قريش الحاقدة تمتد إلى النبي محمد بالأذى، وطفقوا يهينونه ويسبونه، فنالوا منه ما لم يكونوا يصلون إليه ولا يقدرون عليه من الأذى. حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً، فجعل ينفض التراب عن رأسه ويقول: «**والله ما نالت مني قريش شيء أكرهه حتى مات عمي أبو طالب**».

فلم يطمع أحد بمحمد، ولم يؤمر بالهجرة إلّا بعد وفاة عمه وزوجه خديجة بنت خويلد. وإليك هذه القطعة الشعرية في إيمان أبي طالب وقوة تضحياته جاءت على لسان العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم في تقريظه كتاب (الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب)، يقول فيها:

بشـــراك فخـــار بمـــا أولا ... ك الخالق في يـوم المحشـرْ
نزّهـــت بحجتـــك الغـــرا ... شـيخ البطحـاء أبـا حيـدرْ
عمـا نسـبوه إليـه مـن الــ ... ـكفر المـردود دعـاة الشـرْ
أنـــى وبـــه قـــام الإسـلا ... م فنـــال بعليـــاه المفخـــرْ
فسـما بـولاء أبـي حسـن ... لـولاه الـدين لمـا أزهـرْ
فعليـــه مـــن الله الرضـــوا ... ن وللأعـــدا نـــار تســـعرْ

أم المؤمنين الأولى

خديجة بنت خويلد القرشية نسباً، والمكية مولداً ونشأة وإقامة ووفاة، ابنة أسد بن عبد العزى بن قصي، الجد الرابع للنبي محمدصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، وفيه يلتقي نسبه الشريف بنسبها. ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة عاماً، وهي أم المؤمنين الأولى، والزوجة الوفية المخلصة للرسول العظيمصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ. أمها من الفواطم اللاتي جاء فيهن الحديث الشريف المروي عن الرسول الكريم: «**أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك من سليم**». واسم أُمّها فاطمة بنت زيد بن الأصم، ينتهي نسبها إلى عامر بن لؤي ـ أحد أجداد النبيصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ـ وهي أحد النساء الأربع المختارات اللاتي اشتاقت لهن الجنة، وجاء فيهن الحديث الشريف: «**سيدات نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**».

وهي أفضل أمهات المؤمنين، وأعظم امرأة في الإسلام، وأول من آمنت من النساء، وسبقتهن بعبادة رب الأرض والسماء. تزوجها النبي وهي في الأربعين من عمرها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وإلى أن لحقت بربها لم يستبدل بها سواها، ولا يضمَّ إليها زوجة غيرها، ولا ينسَ لها طول عمره ما عوضته من حنان الأمومة الذي افتقده عند وداع أمه في الأبواء.

كانت له خلال هذا المدة مثال المرأة الطاهرة النقية، وعنوان الزوجة الوفية المخلصة، بذلت من أجله وفي سبيله ومن أجل دعوته كل ما تملك من مال وفير،

وملك كثير، وجاه عريض، وشرف باذخ، وعز شامخ. لقد جندت نفسها منذ تزوجت من محمد لخدمته، والقيام على راحته، وتقديم العون له بكل ما ملكت مادياً ومعنوياً، وصارت الصدر العطوف الذي يحتمل معه الأثقال، ويخفف عنه الأحمال، ويهون عليه الأحزان، فأنسته بحنانها الغامر مرارة يتمه وحرمانه وكل ما ذاق في طفولته من يتم، وملأت دنياه حباً وأنساً وطمأنينة وسلاماً، وأقامت له بيتاً يتوفر فيه الهدوء والبركة والأمن، وتهيمن عليه المحبة والرضا.

وكانت له عوناً جميلاً على ما قاسى من حرمان، وصدقته وآمنت برسالته، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها، وكانت له سكناً وأنساً وملاذاً، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية.

ولم تحظَ زوجة من زوجاته بمثل ما حظيت به خديجة من الحب والتقدير، لقد دخلت في حياته نساء ذوات عدد، لكن مكانها من قلبه وفي دنياه سيظل أبداً خالصاً لهذه الزوجة الأولى، والحبيبة الرؤوم التي انفردت ببيت زوجها ربع قرن من الزمان لم تشركها فيه أخرى، ولا لاح في أفقه ظل من شريكة.

سوف تفد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات فيهن ذوات الصبا والجمال، والحب والجاه، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح خديجة عن مكانها هناك، ولن تفلح في إبعاد طيفها الذي أقام أبداً يحوم حول الحبيب، ويستأثر بإعزازه ما عاش. وسيشهد بيت النبيﷺ وصول عائشة بنت أبي بكر في عزة صباها، ونضرة شبابها، وحب النبي لها، فتشعلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها إلى قلب محمد، واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه.

أقبلت هالة أخت خديجة لزيارة المدينة ـ وكانت في مكة ـ فجاءت لزيارة النبي محمدﷺ ولتطمئن على ابنة أختها فاطمة الزهراءعليها السلام ـ وكان في بيت عائشة ـ فاستأذنت، فلما سألت عن اسمها قالت: هالة أخت خديجة. فسمع النبيﷺ بذكر خديجة فسر سروراً عظيماً، وهتف خافق القلب: **«اللهم هالة!»**. فقالت: هالة يا رسول الله. فما ملكت السيدة عائشة نفسها أن قالت: ما لك تكثر من ذكر خُدَيجة ـ بالتصغير ـ وتسر باسمها، وهي عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، مهتمة الأسنان قد هلكت في الدهر الأول، وقد أبدلك الله خيراً منها؟ تعني نفسها.

فتغير وجه رسول اللهﷺ، وزجرها غاضباً، وقال: «**والله، ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء**». تقول السيدة عائشة: والله ما غرت من امرأة لرسول الله ما غرت من خديجة؛ لما كنت أسمع من ذكر النبيﷺ لها، وما تزوجني إلّا بعد موتها بثلاث سنين.

هذه هي خديجة في حياة زوجها محمدﷺ، فما يسير إلّا وطيف منها يتبعه، وما يسري إلّا وسنا مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات. هل كان لزوجة عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار، وعطف فياض، وإيمان راسخ دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبداً، فتسبغ عليه ود الحبيبة، وإخلاص الزوجة، وحنان الأمهات، وتضمه إلى صدرها، فيجد فيه حضن الأم الذي يحتمي به من كل عدوان في الدنيا؟ هل كان في طاقة سيدة غير خديجة غنية مترفة أن تتخلى عن جميع ما تملك من الذهب والفضة، والحلي والحلل، والجواري والعبيد، والخيل

والجمال والبغال، وتنفض يدها من كل ما كان يشغلها من شؤون التجارة للزوج الأمين راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة؛ لتقف إلى جانبه في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال افدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد في سبيل ما تؤمن به بأنه الحق حتى أصبحت تنام هي والرسول في كساء واحد لم يكن لهما غيره؟

كلا بل هي وحدها التي منّ الله تعالى عليها وعليه بكل ذلك بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة، فكان رسول اللهصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيبه له فيحزنه ذلك إلّا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت.

وتركت الراحلة بعدها بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسولصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه وملء التاريخ الإسلامي. ومنّ الله عليها وعلى المسلمين بأن حفظ نسل رسول الله في نسل الزهراء بنت الطاهرة، درة نبيه محمدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه، فكان أن حفظ في نسلها قبساً من سنا نوره، ونفحة من عطر شذاه؛ فهي أم آل بيت النبيصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه.

وفاة السيدة خديجة

في مكة المكرمة، وبجوار الحرم المكي الشريف، وفي الدار التي شهدت زواج نبي الإسلام محمد بن عبد الله ـ بعد المبعث بعشر سنين وقبل الهجرة بثلاث سنين، وفي العشرين وستمئة ميلادية، وبعد انهيار الحصار، وتمزيق صحيفة المقاطعة بحوالي ستة أشهر ـ رقدت السيدة خديجة في فراشها تتهيأ للقاء بارئها ـ بعد أن اطمأنت على زوجها ـ ولم تشهد مأتم عمه أبي طالب، ثم أسلمت الروح بين يدي الزوج الذي تفانت في حبه منذ لقيته، وكأنها كانت مع أبي طالب على موعد مع الموت في هذا العام.

داهمت النبي محمداً ﷺ فاجعتان أليمتان، فقد المحامي المكافح، والمؤانسة المواسية، فيحق لتلك السنة أن تكون «**عام الأحزان**»، كما دعاها رسول الله ﷺ. وكيف لا، وفي مدة وجيزة فقد الحبيبين: العم أبا طالب، والزوجة المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المحنة ما أبقى لها الزمن من طاقة في عامها الخامس والستين؟ فأي أثر يمكن لنا تصوره مما تركته هاتان الفاجعتان في نفس محمد بن عبد الله، مما جعله يقول: «**اجتمعت على هذه الأمة، وفي هذه الأيام مصيبتان، لا أدري بأيهما أنا أشد جزعاً**»؟.

وهذه الكلمة ترينا أن وراءها قلباً قد هدّه الأسى، وأخذ مأخذه فيه، وقد تنجلي هذه الحقيقة إذا قلنا: إن رسول الله ﷺ قد أطلق على العام الذي فقد فيه أبا طالب والسيدة خديجة «**عام الأحزان**». ماتت خديجة في العام الذي مات فيه أبو

طالب، وذلك بعده بأيام، وكانت تبلغ من العمر خمساً وستين سنة، ودفنت بالحجون، ونزل المصطفى في حفرتها.

وعليه فتكون قد عاشت مع زوجها الأمين محمد بن عبد الله خمساً وعشرين سنة كانت خلالها مثال الطاهرة النقية، وعنوان الزوجة الوفية المخلصة.

فتتابعت على رسول الله المصائب بعد موت خديجة، وأخذ التفكير يلازمه وهو يخلو إلى نفسه، وفي الليالي الموحشة، وهو يستعيد ذكرى الأيام التي عاشها مع خديجة، فيجدها الإنسانة التي آمنت به يوم كفر بنبوته الناس، وصدقته إذ كذبوه، وواسته إذ حرموه.

لقد ماتت خديجة، فغاب مؤنس الرسول إذا استوحش من الناس، وتوارت المرأة الكريمة العظيمة التي كانت للنبي محمد ﷺ مكان الهداة والسكن إذا أحب أن يرتاح مما يعاني من مكائد المعاندين. فكيف لا يكون موتها مأساة بالنسبة إليه؟ أو كيف لا يكون رحيلها فاجعة ليس أكبر منها ولا أشدّ في حياته؟فقد كان لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيحزنه ذلك إلّا فرج الله ذلك عنه بخديجة إذا رجع إليها؛ حيث تثبته، وتهون عليه أمر الناس حتى يزول ما به من حزن.

لقد سكن إليها منذ أن بلغ الخامسة والعشرين من العمر إلى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاثة أعوام، لم يستبدل بها سواها، ولم يضمّ إليها زوجة غيرها، ولم ينسَ لها طول عمره ما عوضته حنان الأمومة الذي افتقده منذ ودع أُمه بالأبواء.

فلازمها في مرضها، ومنحها العطف والحنان والرعاية، اعترافاً لها منه بالجميل، وتكريماً لمكانتها في الإسلام. وإذا خرج لأمر من الأمور كلّف أسماء بنت

عميس ـ تلك المرأة الصالحة ـ أن تقوم على خدمتها بالإضافة إلى بنتها أم كلثوم. تقول عن أُم كلثوم: سهرت ذات ليلة عند فراش أُمها خديجة التي علت بها السن، وأنهكتها الأحداث، وأحست دنو أجلها ـ وإن بدا أنها تقاوم الضعف والمرض ببسالة، وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب المصطفى، ومن أجل ابنتيها فاطمة وأُم كلثوم ـ فقالت لابنتها: ليت الأجل يمهلني حتى تنجلي المحنة، فأموت قريرة العين، راضية. فقالت لها أم كلثوم: لا بأس عليك يا أماه. فقالت خديجة: إي وربي، لا بأس عليّ يا ابنتي، ما من أمرأة في قريش ذاقت ما ذقت من نعيم، بل ما من امرأة في هذه الدنيا نالت مثل الذي نلت من مجد، حسبي من دنياي أني زوجة الحبيب المصطفى، وحسبي من آخرتي أني المؤمنة الأولى، وأم المؤمنين. ثم همست قائلة: اللهم لا أحصي ثناء عليك، اللهم لا أكره لقاءك، ولكن أطمع في مزيد من التضحية؛ لأكون جديرة بما أنعمت علي.

فلما اشتد بها المرض، التفتت إلى زوجها ـ وكان بجانبها ـ فقالت: يا رسول الله، عندي ثلاث وصايا تسمعها مني يا نبي الله. فاستوى جالساً وقال: «**قولي يا خديجة**».

قالت: الأولى: إن رأيت مني ذنباً أوتقصيراً فاعفُ عني، واسمحه لي. قال: «**حاشاك يا خديجة من الذنب والتقصير، ما رأيت منك إلّا جميلاً**».

قالت: الثانية: أوصيك بابنتي فاطمة؛ فإنها صغيرة، وتحتاج إلى من يعطف عليها؛ فإنها تصبح بعدي يتيمة. فقال: «**فاطمة بضعة مني، من أحبها فقد أحبني، ومن أبغضها فقد أبغضني**».

قالت: الثالثة: أقولها لابنتي فاطمة؛ فإني استحيي أن أقولها لك.

فقام النبي، وخرج من الدار مغموماً مهموماً، فدعت خديجة بابنتها فاطمة، وقالت لها: قولي لأبيك: إن أمي خائفة من القبر؛ فإذا ماتت فكفِّنْها بردائك. فأخبرت فاطمة أباها بذلك، ثم ما برحت روحها أن فاضت والنبي إلى جانبها، يهون عليها سكرات الموت، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم الجنة.

فلما قضت خديجة نحبها، وصعدت روحها الطيبة إلى بارئها، قام رسول الله في جهازها، فغسلها، وحنطها، وأراد أن يكفنها، فهبط الأمين جبرئيل وقال: «**يا رسول الله، العلي الأعلى يقرئك السلام، ويقول لك: يا محمد، إن كفن خديجة من عندنا؛ فإنها بذلت مالها في سبيلنا**».

ودفع له كفناً من الجنة هدية من الله عزّ وجلّ إلى خديجة المؤمنة، فكفنها رسول الله بردائه أولاً، ثم بالكفن الذي جاء به الأمين جبرئيل من الجنة، فكان لها كفنان: كفن من الله، وكفن من رسول الله، ثم حملت إلى مقبرة الحجون، ونزل الرسول في قبرها، وأضجعها بيديه في حفرتها، وسوّى التراب على قبرها، ودعا لها، ثم ودّعها وآب إلى بيته.

لقد حزن عليها حزناً مريراً، هدّد صحّته وحياته، ويزداد ألماً ويتأصل في نفسه عندما تتعلق بضعته الزهراء ربيبة الوحي بثيابه؛ إذ استولى الأسى على مشاعرها فتتعلق بأبيها باكية حزينة، وهي تقول: «**أبي أبي، أين أمي؟ أين أمي؟**». فيبكي الرسول لبكائها، فتشترك السماء معه في المأساة، وينزل الأمين جبرئيل ويقول: «**قل لفاطمة: إن الله بنى لأمك بيتاً في الجنة من قصب، لا تعب فيه ولا صخب**»؛ تلطيفاً لمشاعرها، وتخفيفاً لحزنها وآلامها، ويشمت الأعداء بمحمد، وتشتد مؤامراتهم للنيل منه بعدما وثقوا من قلة ناصره بعد موت عمه وزوجته خديجة.

عام الأحزان

على أثر وفاة الشيخ الجليل أبي طالب، والزوجة الرؤوم خديجة، أخذت يد قريش الحاقدة تمتد إلى النبي محمدﷺ بالأذى، وطفقوا يهينونه ويسبونه، ونالوا ما لم يكونوا يصلون إليه ولا يقدرون عليه من الأذى، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً. ويصور النبي حالته تلك التي وصل إليها مع قريش التي تندفع في صب جام حقدها وغضبها عليه ـ بعد موت عمه أبي طالب، وزوجته خديجة، وفقد الحماية له ـ حيث تبرح به الآلام، وتثقل كاهله الهموم، فيصرح على الملأ بقوله: «**والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات عمي أبو طالب وزوجتي خديجة**».

لقد تتابعت على رسول الله ـ بموت عمه أبي طالب المدافع الأول، وزوجته أم عياله ـ المصائب والبلايا، وأحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به، فلم يعد له فيها بعد رحيلهما مقام، وأحس أنه قد فقد ناحية كبيرة من الحماية كانت تشجعه وتشد أزره، فسمى ذلك العام «**عام الأحزان**».

لقد اشتد أذى قريش على النبي محمد، وأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين في النصر على النبي، وعادت معركة الاضطهاد التي فترت هوناً عقب فك الحصار إلى أشد ما كانت عليه تأججاً وسعيراً، وبدأت تتعرض لأذاه في شخصه الكريم. وأخذت سفهاء قريش يتعرضون له كلّما مر في أحد أزقة مكة، ينثرون التراب عليه، ويرمونه بالأوساخ والأقذار، ويقذفونه بالحصى والحجارة، وينهالون عليه

بالشتائم والسباب.

وقد وصف حاله بقوله: «**والله ما كنت أرفع قدماً ولا أضعها إلّا على حجر**».

وبدأ أصحاب محمد يهاجرون من مكة فراراً بدينهم من الفتنة والأذى حتى لم يبقَ معه بمكة إلّا من حبس أو فتن غير الإمام علي.

وكانت ابنته فاطمة في ريعان الصبا، تشارك أباها في مصابه ـ بعد رحيل أمها خديجة ـ عندما يأتيها وعليه آثار مساءات قريش الفادحة، فتهب الفتاة المكلومة المحزونة لملاقاته؛ لتزيل عنه آثار تلك المساءات، وتغسل أثوابه، وهي تشهق بالدموع، فيضمها إلى صدره، ويقول لها كلما همى الدمع في عينيها: «**لا تبكي يا بنية؛ فإن الله مانع أباك**».

وكان من عام الأحزان يدعوها بأم أبيها بدلاً من فاطمة؛ لأنها كانت بنت أبيها، وأم أبيها، وحاملة وظيفة حنان البنت والأم. وحق لها أن تحمل هذا الاسم الذي يفرج عن قلب النبي محمدﷺ همومه وآلامه؛ سواء بسواء، فهي مأواه، ومشتكى همومه وبلواه، ومسّاحة الهم والغم عن جبينه كلما أتاه هم، أو ألمّ به غم. ففاطمة هي أمه، وهي بنته، وهي والدعوة كل دنياه. ويشمت الأعداء بمحمد، وتشتدّ مؤامرتهم للنيل منه بعدما وثقوا من قلة ناصره بعد عمه أبي طالب الدرع الواقي للرسالة، فأحس بالخطر المحدق به وبرسالته.

وبلغت هذه المعركة ذروتها يوم سرى الهمس في مكة أن مشركي قريش قد ائتمروا بمحمد ليقتلوه، ويستريحوا منه. ونزل الأمين جبرئيل على النبي محمد يقول له: «**اخرج يا محمد من القرية الظالم أهلها فقد مات ناصرك**».

فخرج الرسول من مكة يلتمس الأنصار لإيوائه وحمايته من القتل، وراح يتّصل بالقبائل خارج مكة يفاوض أهلها وأشرافها بغية منعه من القتل، ولكن أحداً من قومه لم يجره، ففكر في الخروج إلى الطائف.

النبي في الطائف

بعد أن مات أبو طالب عم النبي وزوجته خديجة، ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياته صمّم على الخروج إلى الطائف؛ فلعل فيها أناساً يقبلون الإسلام، ويتخذونه عقيدة وديناً، ثم يحثون الناس على اتّباعه، ويكونون من أعوانه في ميدان نشر أمر الله تبارك وتعالى.

وكانت الطائف بلداً ذات قوة وثروة لا تقل عن قوة مكة وثروتها؛ بفضل ما حباها الله به من جودة في المناخ، وخصب في الأرض ساعدا على انتشار زراعة الفواكه والخضار، حتى صارت الزراعة مورداً اقتصادياً هاماً إلى جانب التجارة الواسعة التي تتعاطاها مثل مكة باعتبارها ملتقى طرق كثيرة.

خرج النبي صلى الله عليه وآله إلى الطائف في أواخر شهر شوال من السنة العاشرة لمبعثه ـ سعياً على الأقدام ـ يرافقه ربيبه زيد بن حارثة الذي أبى البقاء في مكة بدافع من حبه لرسول الله صلى الله عليه وآله، ورغبة في القيام على خدمته من دون سائر الصحابة. وكان النبي صلى الله عليه وآله قد منع بعض من آمن به من مرافقته. خرج النبي إلى الطائف متخفياً يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من ربه. ولما انتهى إلى الطائف قصد الرسول العظيم أشراف ثقيف ـ وكانوا ثلاثة إخوة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب أبناء عمرو بن يعمر بن عوف الثقفي ـ فجلس إليهم، وراح يحدثهم عن دعوته وأهميتها في حياة العرب وحياة الناس

أجمعين، ويدعوهم إلى نصرته والقيام معه على من خالفه من قومه في قريش، وتلا عليهم بعض آيات الله العظمى، ولكن ـ وعلى الرغم ممّا في البيان من آيات لقوم يتفكرون ـ لم يستجب زعماء ثقيف لنداء الإيمان، بل على العكس ردوا على محمد وهو يبلغ رسالات ربه بشر جواب، فقال أحدهم: هو يمرّط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الثاني: ما وجد الله أحداً غيرك يرسله؟

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً؛ لأنك إن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك.

هذا ما كان من أشراف ثقيف فقد ردوا على رسول الله بالسخرية والتكذيب، فقام رسول الله من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف. فإذا كانوا قد اشتروا الضلالة بالهدى، فلم يستجيبوا لدعوة الإيمان، فإنه كان أولى بهم ـ وهم أشراف ثقيف ـ أن يكون عندهم استجابة لواجب المروءة، فيكتموا خبر الرسولﷺ ـ كما طلب إليهم ـ ولا يذيعوه في أبناء قومهم، حتى لا يكون مجلبة أذى له، ولا يصل خبره إلى قريش فتزيد في صلافتها وعتوها. ولكن في الواقع كانت أصالة الشرف والمروءة ميتة في النفر الثلاثة الذين قصدهم، فبدلاً من أن تحدوهم النخوة، فيخفوا أمره، قاموا ـ على العكس من ذلك ـ يغرون به جهلاءهم وعبيدهم، ويسخرون منه ويهزؤون به، وينهالون عليه بالسباب والشتائم، ويؤلبون أهل الطائف عليه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يرشقونه بالحجارة، حتى إنه كان لا يرفع رجلاً ولا يضعها إلّا رضخوها بالحجارة، حتى

دميت رجلاه، وتخضبت قدماه بالدماء. هذا وزيد بن حارثه الوفي الأمين يذود عنه بجسمه، ويتلقى الضربات عنه بصدره، فتقع عليه حجارتهم وهو غير آبه بما ينزل عليه، بل همه أن يحمي نبيه، وأن يبعد الأذى عنه. وهنا راحا يحثّان الخطا ليفرا من هذه الجماعة الظالمة.

هكذا خرج الرسول من الطائف ليحتمي في الجوار بحائط في ظل شجرة من عنب تدلت على سور بستان ـ كان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة ـ فجلس يلتقط أنفاسه من شدة ما أصابه من التعدي اللئيم، رافعاً يديه إلى السماء يقول: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين**».

وكان صاحبا البستان يرقبان حركاته، والكآبة بادية على وجهه فأثارهما أمر هذا الرجل الذي ظل ثابت الجأش، متماسك الأعصاب على رغم الذي لاقاه، فتحركا؛ إشفاقاً عليه ورحمة به، فأمرا غلاماً لهما ـ كان يدعى عداساً، وكان على دين النصرانية ـ أن يقطف بعض العنب ويقدمه إليه مع صاحبه.

فأخذ عداس طبقاً، وملأه وقدمه إلى النبي محمد، ويدعو الرسول زيداً إلى تناول بعض العنب، ويمد يده إلى حبة وهو يقول: «**باسم الله**» ثم يأكل ويفعل زيد مثل ذلك، وعداس واقف ينظر إليهما، فلما سمع ذكر الله قال: هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد.

وأدرك الرسول أن هذا الغلام ليس على الوثنية، وأن شيئاً يتردد في نفسه، فسأله عن بلده وعن دينه، فقال عداس: أنا من أهل نينوى، وعلى دين النصرانية، فقال له النبي: «**إذن أنت من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**».

وبهت عداس لذكر النبي يونس بن متى، وقال: ما يدرك ما يونس بن متى؟ قال له النبي: «**ذلك أخي كان نبياً، وأنا نبي هذه الأمة**».

فارتمى عداس على النبي متأثراً يقبّل رأسه ويديه، وحاول أن يقبّل قدميه، فمنعه رسول الله عن ذلك، ولكن عداساً قال له: دعني يا نبي الله أغسل هذه الدماء عن قدميك بدموع عيني. فدعا له النبي بالبركة والرحمة، فلما رجع عداس إلى سيده قال له: ويلك مالك أنكببت على هذا الرجل تقبله وتبكي، حتى رغبت في تقبيل قدميه؟ فقال: والله لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلّا نبي مرسل.

وجلس النبي محمد تحت تلك الشجرة مكلوم الفؤاد، وقد هانت عليه الدنيا، رافعاً طرفه نحو السماء يشكو إلى الله ظلم قومه، ويسأله الرضا والمغفرة، فهبط عليه الأمين جبرئيل وقال له: «**يا محمد، إن الله قد سمع قول القوم، ورأى فعالهم، وقد بعثني الله إليك لتأمرني بأمرك؛ فإن شئت بعثت إليهم ملك الجبال فيزلزلها بهم ويرميهم بالصواعق**». فقال محمد: «**لا يا جبرئيل، بل أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده على وجه الأرض**».

وحين لم يحقق رسول الله ما أراده في الطائف، كان لا بد له من الرجوع سريعاً إلى مكة مهبط الوحي؛ كي يتمكن من الاتصال بقبائل العرب التي ستفد إلى مكة، وقد بات موعدها قريباً بحلول الموسم. فقام يجد السير ـ وبجانبه زيد بن حارثة لا يفارقه أبداً ـ حتى وصل إلى مشارف مكة، ولما أراد الدخول خاف عليه زيد من كيد قريش، فرجاه ألّا يدخل إلّا في جوار أحد من أهل مكة، فجلسا ينتظران حتى مر بهما رجل من أهل مكة، فسأله النبي أن يذهب إلى المطعم بن عدي، ويقول له: «**إن محمد بن عبد الله يسألك الجوار**».

فأجاره، ودخل الرسول مكة يبلغ رسالة ربه لا يعبأ بما ينزل عليه من مصاعب، ويحلّ عليه من متاعب، غير مبالٍ بإعراض القبائل عنه، وعدم الاستجابة له، موقناً أن الغلبة للحق وإن طال الزمن، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج بعد الكرب، وأن مع العسر يسراً.

عرض النبي نفسه على القبائل

تحل أيام الموسم، وتفد إلى أم القرى قبائل العرب آتية من كل فج عميق؛ لتشهد منافع لها، ولتقيم مناسك الحج والعمرة. وكان لا بد لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله أن يمضي في الخطة التي رسمها لنشر الدعوة على الرغم من أن أهل الطائف لم يستجيبوا له، وعلى الرغم من إصرار قريش على مقاومته ومحاربته، وعلى إنزال العذاب والأذى به وبأصحابه المسلمين. فلم ييأس ولم يقنط، بل واصل رسالته لملاقاة شيوخ القبائل ورؤسائها. وبعدما ضُربت المنازل في منى، واعتلت الرايات تعلن عن النازلين فيها واصل الاتصال بهولاء الذين وجدهم يملكون السلطة آنذاك، ويجسدون من دون غيرهم مراكز القوى في بيئتهم، فيكونون نصرة لمن استنصرهم.

نعم جاء محمد قاصداً أهل النصرة من القبائل العربية التي وفدت إلى مكة في ذلك الموسم، فتوجه إلى سيد كندة في مضاربه ـ وهو يومذاك شيخ يقال له مليح ـ فعرض عليه نفسه، ودعاه إلى الله، ودعا جماعته معه، وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، ولكنهم أبوا الهداية.

وبعدهم جاء إلى بني كلب ـ وكان قد نزل منهم بطن يقال لهم بنو عبد الله ـ فقال لهم: «**يا بني عبد الله، إن الله قد احسن أسم أبيكم، وقد اخترتكم على من سواكم**». وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم آيات من القرآن، فلم يقبلوا منه،

ورفضوا مثل بني كندة الانصياع إلى الحق.

ثم أتى بعدهم إلى منازل بني حنيفة، فكان موقفهم أشد من موقف من سبقهم، وردوه رداً غير جميل.

ولكنه ـ على الرغم من كلّ هذا الإنكار من قبائل العرب، وعلى الرغم من عدم الاستجابة إلى الإيمان الذي يدعوهم إليه ـ لم ييأس ولم يقنط، ولم يفتّ ذلك في عضده، ولم يصرفه عن إظهار أمر الله أي عائق أو أية شدة أو عداوة، بل تابع الاتصال بالقبائل، فأتى شيوخ بني عامر بن صعصعة يبلغهم رسالة ربه، فعرض عليهم نفسه، ودعاهم إلى الله. وطمع هؤلاء ـ إذا هو انتصر بهم ـ أن يكون لهم الأمر من بعده ـ فراحوا يفاوضونه على ذلك، وقالوا له: أرأيت إن نحن تابعناك، فأظهرك الله على من خالفك وناواك أن يكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال ﷺ: «**الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء**».

فقالوا له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرت كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

تلك هي النزعة التي تسيطر على النفوس، وتذهب بالعقول يبرزها بنو عامر في طلبهم إلى رسول اللهﷺ أن يكونوا خلفاء له في الأرض. ولكن ذلك لم يمنع رسول اللهﷺ أن يستمر بدعوة القبائل في منازلها، ويعرض عليها دعوته، ويسألها نصره وحمايته، حتى يبلّغ رسالة ربه، غير مبالٍ بإعراض القبائل عنه، وعدم الاستجابة له موقناً أن الغلبة للحق ـ وإن طال الزمن ـ وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج بعد الكرب وأن مع العسر يسراً.

فكان على ذلك من أمره، كلما اجتمع الناس في الموسم أتاهم يدعو القبائل إلى

الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من عند الله من الهدى والرحمة، فكان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلّا تصدى له، ودعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده.

واستمر النبيﷺ لا يدع أحداً من وجوه العرب في أيام الموسم إلّا وقصده، يقف على منازلهم منزلاً منزلاً، ويعرض دينه عليهم، ويدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل.

وكان يوافي المواسم كلّ عام يتبع الحجاج في منازلهم بمنى وعرفات، يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة، ويسأل عن منازلهم، ويطوف بهم في أسواق الموسم: عكاظ ، ومجنة، وذي المجاز.

وكان الحجاج إذا أرادوا الحج أقاموا بسوق عكاظ شهر شوال، ثم يأتون سوق مجنة ويقيمون عشرين يوماً، ثم يأتون إلى سوق ذي المجاز فيقيمون بها إلى أيام الحج. وكان النبي يعرض نفسه عليهم، ويدعوهم إلى الله وإن يمنعوه، حتى يبلغ رسالة ربه.

جاء في (السيرة الحلبية): كان النبي ﷺ ـ قبل أن يهاجر إلى المدينة ـ يطوف على الناس في منازلهم، ويذهب إلى أسواق مكة ينادي بين الناس: «**قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا**». وخلفه رجل له ذؤابتان يرجمه بالحجارة حتى أدمى كعبيه، ويقول: أيها الناس، هذا ابن أخي، وأنا أعرف الناس به، وإنه لا يدعوكم إلى خير، وإنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له.

بيعة العقبة الأولى

كانت المدينة المنورة قديماً تدعى يثرب، ثم عرفت فيما بعد بمدينة الرسول. وقد سكن في هذه المدينة منذ أوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتا الأوس والخزرج اللتان كانتا من مهاجري عرب اليمن (من القحطانيين). وكانوا من عبدة الأوثان. وكان يعيش إلى جانبهم الطوائف اليهودية الثلاث المعروفة: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع الذين قد هاجروا إليها من شمال شبه الجزيرة العربية، واستوطنوها ـ وهم أهل كتاب ـ وكان يقدم إلى مكة كل عام جماعة من عرب يثرب للاشتراك في مراسم الحج، فبينما الرسول محمد ﷺ عند العقبة الأولى بمنى يعرض الإسلام على القبائل، إذ لقي رهطاً من عرب يثرب ـ وكانوا ستة أنفار، وقيل: سبعة ـ فسألهم إلى أي القبائل ينتمون؟ فقالوا له: من الخزرج. فقال لهم: «**أمن موالي يهودا أنتم؟**» قالوا: نعم. قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فعرض عليهم الإسلام، ودعاهم إلى الله، وتلا عليهم شيئاً من القرآن الكريم، فأحدثت كلمات النبي محمد ﷺ في نفوسهم أثراً عجيباً، ومما ساعد على ذلك أن اليهود ـ وهم أهل كتاب وعلم ـ كانوا إذا وقع بينهم وبين العرب شر قالوا لهم ـ يهددونهم ـ: إن نبياً قد بعث، وقد أطل زمان ظهوره، وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وأرم. فلما كلم الرسول أولئك النفر، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: إنه والله النبي الذي كان اليهود يتوعدونكم به، فلا يسبقُنَّكم إليه.

فأجابوه فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام، وصدقوه، وآمنوا برسالته. ولمّا عادوا إلى بلادهم ـ وهم مؤمنون بكل ما دعاهم إليه ـ راحوا يذكرون الإسلام في مجالسهم ومحافلهم، ويتحدثون عن رسول الله ﷺ ورسالته، ويدعون الناس إلى الإسلام به والتصديق بنبوته.

وقد أثّرت دعوة هؤلاء النفر في أهل يثرب تأثيراً حسناً، حيث سبب في إسلام فريق من أهل يثرب، واعتناقهم عقيدة التوحيد، وصار الرسول ودعوته حديث أهل يثرب.

فلما كان موسم الحج الثاني جاء إلى مكة من أهل يثرب اثنا عشر رجلاً، وقد عقدوا النية على الاجتماع بالنبي محمد ﷺ. وعندما بنوا منازلهم من منى عرف عنهم الرسول من خلال دأبه المستمر على الاتصال بجميع العرب الذين يفدون على مكة في الموسم، فأرسل إليهم أن يجتمعوا إليه سراً عند حلول الظلام عند العقبة الأولى حتى لا تكشف قريش أمره.

فالتقوا برسول الله ﷺ حسب الموعد الذي جعله النبيﷺ معهم، ثم جعل النبي محمد ﷺ يبين لهم معاني الإسلام، ويتلو عليهم آياتٍ من القرآن، فلانت قلوبهم للإيمان، وهنا طلب منهم النبي ﷺ أن يبايعوه؛ لأنهم نقباء من الأوس والخزرج، فبايعوه، وآمنوا به وصدقوه، وانعقدت هناك أول بيعة إسلامية. وكان من بينهم عبادة بن الصامت، وجاء عنه أنه قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى ـ وكنا اثني عشر رجلاً ـ فبايعنا رسول الله على ألّا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.

وأقام هؤلاء المبايعون في مكة يؤدّون فرائض الحج، فلما أكملوها وهموا بالرجوع إلى يثرب طلبوا من النبي محمدصَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن الكريم، ويفقههم في الإسلام. فدعا النبي محمدصَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ بمصعب بن عمير وقال له: «**اذهب معهم على بركة الله**».

أول سفير في الإسلام

ومصعب هذا هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي المكي؛ ولادة، ونشأة، والمدني وفاة أول سفير في الإسلام، وأول من سمي بالمقرئ، ويكنى أبا عبد الله. كان قبل إسلامه من أنعم قريش عيشاً، وأعطر أهل مكة شباباً وجمالاً وسناءً. ولد في النعمة، وغذي بها، وشب تحت خمائلها. وكانت أمه شديدة الكلف به، وكان يبيت وقعب الحيس عند رأسه، حيث يستيقظ فيأكل. فلما أسلم أصابه من الشدة ما غيّر لونه، وأذهب لحمه، ونهكت جسمه. وكان قد خرج يوماً على بعض المسلمين وهم جلوس حول رسول الله، فما إن بصروا به حتى حنوا رؤوسهم، وغضّوا أبصارهم، وذرفت عيونهم دمعاً شجياً؛ ذلك أنهم رأوه يرتدي جلباباً مرقعاً بالياً، وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه حين كانت ثيابه كزهور الحديقة نضرة وألقا وعطراً. وتملى رسول الله مشهده بنظرات حكيمة شاكرة ـ وعليه فروة قد رقعها ـ فبكى؛ لما كان يعرف عليه من نعمة، وقال: «**ما رأيت بمكة أحسن لمة، ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير، وقد ترك كل ذلك حباً لله ولرسوله**».

لقد كان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان شاباً جميلاً يلبس الحضرمي من النعال. وحلفت أمه حين أسلم وهاجر إلى الحبشة ألّا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها، وكانت تقف في الشمس

حتى تسقط وقد غشي عليها.

ولما تأكدت من إسلامه، وعاد من هجرته من الحبشة منعته من كل ما كانت تفيض عليه من نعمة، وأبت أن يأكل طعامها إنسان هجر الآلهة، حتى لو كان هذا الإنسان ابنها. وخرج مصعب من النعمة الوافرة التي كان يعيش فيها مؤثراً الشظف والفاقة، وأصبح الفتى المتأنقُ المعطّرُ لا يُرى إلّا مرتدياً أخشن الثياب، يأكل يوماً ويجوع أياماً، ولكن روحه المتعلّقة بسمو العقيدة، والمتألقة بنور الله كانت قد جعلت منه إنساناً آخر يملأ الأعين جلالاً، والأنفس روعة.

وقد اختاره الرسول الأعظم في مهمة كبيرة في حينها، وهي أن يكون سفيره إلى المدينة، يفقّه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول عند العقبة. وكان في أصحاب الرسول يومئذٍ من هم أكبر منه سناً، وأكثر جاهاً، وأقرب من الرسول قرابة، ولكن الرسول اختار مصعب الخير، وهو يعلم أنه يكل إليه بأخطر مهمّة عرفت، ويلقي بين يديه بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة، ومنطلق الدعوة والدعاة، والمبشرين والغزاة بعد حين من الزمان قريب.

امتثل مصعب أمر نبيه، فحمل الأمانة مستعيناً بما أنعم الله عليه من عقل راجح وخلق كريم، وارتحل مع القوم إلى يثرب ليقوم بالمهمة الجليلة التي ندب لها. ونزل على سعد بن زرارة، ومنذ وصوله راح يعلم المسلمين عقيدة الإسلام، ويقرئهم القرآن، حتى سمي في يثرب بالمقرئ. وبهذا فقد غزا أفئدة أهل المدينة بزهده وترفعه وإخلاصه، فدخل أكثرهم في دين الله أفواجاً.

لقد جاءها يوم بعثه رسول الله إليها، وليس فيها سوى، ولكنه لم يكن يتم بينهم بضعة أشهر حتى استجابوا لله وللرسول.

وفي موسم الحج التالي لبيعة العقبة أرسل مسلمو المدينة إلى مكة للقاء الرسول وفداً يمثلهم وينوب عنهم، وهو وفد يتألف من سبعين مؤمناً ومؤمنة جاؤوا تحت قيادة معلمهم، ومبعوث نبيهم إليهم مصعب بن عمير، فيستقبله رسول الله مهللاً ومرحباً، ويقول له: «**كيف تركت أهل يثرب يا مصعب؟**». فيقول: مسلمين والحمد لله يا رسول الله.

وتمضي الأيام والأعوام، ويهاجر الرسول وصحبه إلى المدينة، وتثير قريش أحقادها، وتعد عدتها، وتقع غزوة بدر، فيقف الرسول يتفرس الوجوه المؤمنة؛ ليختار من بينها من يحمل الراية واللواء، فيدعو علياً ويدفع له الراية، ويدعو مصعب بن عمير ويدفع له اللواء، فلم يزل اللواء بيد مصعب بن عمير حتى استشهد في واقعة أحد، وسقط اللواء، فضم الرسول صلى الله عليه وآله الراية واللواء للإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

بيعة العقبة الثانية

كانت نفوس الوفد اليثربي الذي جاء من المدينة مع مصعب بن عمير إلى مكة لأداء فريضة الحج ـ وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ـ مشوقة لرؤية رسول الله صلى الله عليه وآله والتحدث إليه قبل أن تكون غايتهم أداء فريضة الحج؛ لأن بوسعهم كل عام أن يقوموا بأداء تلك الفريضة، أما الاجتماع برسول الله صلى الله عليه وآله فتلك فرصة لا تسنح دوماً.

وبتلك الروح الإسلامية المتوثبة أقام الأوس والخزرج منازلهم في منى، وبعثوا إلى رسول الله أن يلقاهم في الزمان والمكان الذي يريد، فأوعدهم النبي صلى الله عليه وآله أن يأتوه عند العقبة ليلاً بدون أن يعلم بأمرهم أحد ممن كان معهم من المشركين، وخفية عن عيون قريش، وأن يأتوا إليه متفرقين.

فلما مضى من الليل ثلثه قاموا يتسللون متخفين عن كفار بلدهم ومحاذرين كشف قريش لأمرهم، فلما اكتملوا جميعاً جاء محمد صلى الله عليه وآله، ومعه عمه العباس ـ وكان على دين قريش، إلّا إنه لم يوافقهم على الوقيعة برسول الله صلى الله عليه وآله والغدر به ـ فتقدم العباس وقال: يا معشر الأوس والخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو يريد اللحاق بكم فإن كنتم وافين له ومانعيه ممن خالفه فذاك، وإن كنتم تريدون غير ذلك فدعوه فإنه في عز ومنعة.

فقالوا: سمعنا قولك، ونريد أن نسمع لرسول الله صلى الله عليه وآله، فراح محمد يتحدث عن الإسلام ومعانيه، وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، ودعاهم إلى الله،

ورغبهم في الإسلام، فمالت قلوبهم للإسلام، وقالوا: علامَ نبايعك يا رسول الله؟ قال: «**تبايعونني على السمع والطاعة، وأن تقولوا في الله، ولا تخافوا لومة لائم، وأن تمنعوني إذا قدمت إليكم ممّا تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم وأهليكم**». فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبين اليهود حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «**الدم الدم، الهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أُسالم من سالمتم، وأُحارب من حاربتم؛ تطلبون بدمي، وأطلب بدمكم**». فقالوا: يا رسول الله، فما لنا إذا نحن وفينا بذلك؟ فقال صلى الله عليه وآله: «**الجنة**». فقالوا: ابسط يدك نبايعك.

فبسط النبي يده وبايعوه، وكان أول من ضرب على يده سعد بن زرارة، وتتابع القوم يتسابقون إلى بيعته بقلوب يغمرها الفرح والثقة. وتمت البيعة على السمع والطاعة، وفي العسر واليسر، وعلى أن يقولوا الحق أينما كان، وألا يخافوا في الله لومة لائم. وطلب منهم النبي صلى الله عليه وآله أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً؛ ليمثلوا قومهم، ويكونوا هم المسؤولين عنهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله. فاختاروا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية في جوف الليل، وعلى غفلة من قريش، والجميع يحرصون على أن لا يطلع أحد على عملهم إلّا الله.

وسميت هذه البيعة بيعة العقبة الثانية، وكتب النبي لهم كتاباً يأمرهم فيه بالإلفة والمؤاخاة، والنصح والنصيحة، وأنهم أمة واحدة، لها رسالة واحدة.

وكانت قريش تتصور أنها قد حدّت من تقدم الإسلام في مكة، وأنه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والانحدار، وأنه لن ينقضي زمان إلّا وتنطفي جذوته، وتخمد شعلته، وتُمحى آثاره. وفجأة استيقظت على دوي بيعة العقبة

الثانية التي كانت بمثابة انفجار قلب كل طموحاتهم، وأسقط كل تصورات قريش الساذجة. فعندما عرف زعماء الوثنيين بأن ثلاثة وسبعين شخصاً من اليثربيين عقدوا ليلة أمس ـ وتحت جنح الظلام ـ بيعة مع رسول الله على أن يدافعوا عنه كما يدافعون عن أبنائهم وأهليهم، وصاروا بذلك حلفاً له في دعوته، أحدث هذا النبأ حزناً عجيباً في قلوب قريش وسادة مكة الوثنيين؛ لأن هذا الحلف من شأنه أن يضيّع تلك الجهود المضنية التي بذلتها قريش خلال عشر سنين للقضاء على هذه الدعوة، أو على الأقل لجعلها محصورة في دائرة مكة؛ فلا تتعدّاها، ولا يطّلع عليها العرب. فماذا تصنع قريش وقد حالفت الأوس والخزرج محمد بن عبد الله، وبهذا فإنه يمكنه إقامة قوة تهدّد قريشاً، وتقضي على جميع أحلامها في غلبته والإجهاز على دعوته.

واجتمعت في دار الندوة أكثر من مرة للتشاور في كيفية القضاء على الإسلام، وطرحت في ذلك المجلس خططاً متنوعة، واقترحت أموراً كثيرة للمنع من انتشار الإسلام واتّساع رقعته، ولكنها باءت كلّها بالفشل. فماذا تصنع قريش الآن إلّا الاندفاع في إيذاء محمد والمسلمين، ومعاملتهم بالقسوة وأساليب الظلم وأنواع العذاب حتى يصبحوا بين مفتون عن دينه وبين معذب مضطهد، وبين هارب متخفٍّ في البلاد. ولم يكن يغيب عن بال رسول الله بعد افتضاح أمر العقبة الثانية ما سوف تقدم عليه قريش من قسوة وظلم واعتداء، وأن المعركة التي ستشنها عليه وعلى المسلمين هي أشد من كل شيء مضى، وأنها ستكون بالنسبة لقريش معركة حياة أو موت.

فلما رأى رسول الله ذلك آخى بين أصحابه، وأمرهم بالهجرة إلى يثرب.

المسلمون يهجرون مكة

مرّ بنا أنه في العام الثاني عشر والثالث عشر من البعثة النبوية وقعت البيعة بين محمد بن عبد الله وجماعة من الأوس والخزرج، وهي بيعة واجه أهل مكة بسببها خطراً كبيراً يهدد وجود المشركين والوثنيين والزعامة القرشية؛ ذلك أن المسلمين قد حصلوا على مركز هام، وعلى قاعدة صلبة في يثرب بعد أن تعهد اليثربيون بحماية رسول الله ﷺ والدفاع عنه.

لقد نبّهت حماية اليثربيين للمسلمين قريشاً من غفلتها ونومها العميق مرة أخرى، وكانت بيعة العقبة الثانية بمثابة جرس خطر لها، فبدأت من جديد وبشكل أشدّ من ذي قبل أذاها واضطهادها ومضايقتها لمحمد بن عبد الله وأصحابه، وتهيأت للعمل على الحيلولة دون انتشار الإسلام ونفوذه وتقدمه في الجزيرة العربية. فماذا يعمل الرسول ليقهر قريشاً الحاقدة التي تقف حجر عثرة في سبيل نشر الإسلام وانطلاقه؟ ما العمل وهو لم يؤمر بالمقاومة، ولم تُحَلَّ له الدماء، وإنما هو مأمور بالدعاء والصبر على الأذى؟ لقد واجه الرسول العظيم ﷺ كل ذلك بحكمة وأناة، وبكل تقدير واحتساب؛ صمم على القيام بما يحقق له الإفادة التامة من حلفه مع اليثربيين، ورأى أن الخير كل الخير في هجرة المسلمين إلى يثرب؛ هرباً من ظلم قريش وبطشها، وحباً في تركيز نواة دولة الإسلام. ولكنه ما كان ليقطع أمراً، ويستبد فيه ما لم تتضح له نتائجه بواسطة الوحي الذي كان يأتيه

بأمر الله بين الحين والآخر. وفيما هو يفكر، ويخطط، وينتظر أمر الله، وإذا بالوحي قد نزل يأمره بترك مكة والهجرة إلى يثرب، ويقول له: «**يا محمد، إن الله يأمرك أن تخرج من القرية الظالم أهلُها، فقد مات ناصرك**».

فجمعﷺ بعض الصحابة وأمرهم أن يبلغوا جميع إخوانهم المسلمين ممّن معهم في مكة بقراره في الهجرة إلى يثرب، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال لهم: «**إن الله قد جعل لكم إخواناً في الدين يعزّونكم وينصرونكم، ويذودون عنكم بدافع الإيمان الصادق، وداراً تأمنون بها، وليكن خروجكم خفية؛ حتى لا تثور ثائرة قريش، وتحول بينكم وبين الخروج**».

وبعد أن آخى بينهم راح المسلمون يهاجرون في الخفاء فرادى وأزواجاً، وهم يلبون نداء الواجب، ويمتثلون لأمر رسول الله.

وكان ممن هاجر إلى المدينة عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص مع مجموعة من المسلمين.

جاء في مجلة المنبر الشيعية للعلامة نجاح الطائي: وبما أن أبا بكر كان ملازماً لعمر بن الخطاب في حلّه وترحاله، وقد ثبت أن ابن الخطاب قد هاجر إلى المدينة مع مجموعة من المسلمين قبل هجرة النبي إليها، فلا يبعد أن يكون أبو بكر هاجر معه.

وقد أنزل الله في المهاجرين الأولين قرآناً، فقال تعالى في سورة الحشر: ﴿**لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[1].

---

(١) الحشر: ٨.

وبقي الرسول العظيم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى دار السلام، إلّا إن قريشاً ما لبثت أن كشفت أمرهم، وعرفت تدبيرهم، فاندفعت تحاول منعهم من ترك مكة.

فترد كل من تستطيع رده، وتنزل به أشد العذاب؛ لتفتنه عن دينه. وقد بلغ بها الظلم أنها كانت تحول بين الزوج والزوجة، فلا تدعها تخرج معه إذا كانت قرشية، ولا يأخذ من متاعه شيئاً. وأن تحبس كل من لا ينصاع لأوامرها في سبيل ثنيه عن دينه.

ولكن على الرغم من تعدّي قريش على المسلمين، وإيقاعها بهم، فقد ظلت هجرتهم تَتَتابعُ إلى يثرب حيث ينزلون على الأنصار في بيوتهم.. الأنصار الذين يشرعون أبوابها لاستقبالهم، ويفرشون أرضها لإكرامهم، والاحتفاء بقدومهم، ويقدمون لهم الطعام، ويبذلون في سبيلهم الأموال راضين قانعين.

وكانوا يشعرونهم بأنهم ليسوا مهاجرين، بل إنهم بين أهليهم وذويهم، فمن كان له داران استقل بواحدة ودفع الأخرى لأخيه المهاجر يسكنها، ومن له زوجتان طلق إحداهن فإذا انتهت عدتها زوجها من أخيه المهاجر. ويقاسمه ماله ومتاعه. وقد أنزل الله في حقهم قرآناً، فقال تعالى في سورة الحشر: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1].

وقال قائلهم للنبيﷺ حين قدم عليهم المدينة يصف كرمهم: يا رسول الله،

---

(١) الحشر: ٩.

ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بدلاً من كثير؛ لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنا، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.

وهكذا جعل المسلمون يهجرون مكة ويلحقون بالمدينة، والرسول العظيم يحضهم على الهجرة إليها حتى خلت منهم ديار مكة، وهُجرت دور بأسرها، وأغلقت أبوابها، وغدت تصفر فيها الرياح، حتى لم يبقَ بمكة من المسلمين إلّا رسول الله وعلي بن أبي طالب وعدد قليل من المسجونين أو المرضى دون أن يعرف أحد ما يعتزمه النبي محمدﷺ؛ أيظل في مكة، أم يهاجر إلى المدينة؟ حتى تنادى زعماء الوثنية لعقد اجتماع في دار الندوة؛ للتشاور في الرأي، وتقرير ما يتوجب عليهم حيال محمد بن عبد الله، وخاصة في أمر إخراجه أو إبقائه أو قتله.

دار الندوة

يقول ابن إسحاق: لما رأت قريش أن الإسلام ينتشر ويزيد، وأن عمرو بن العاص قد عاد إليهم من الحبشة بما يكرهون، وأن رسول الله قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، داهم الخوف قريش بهجرة المسلمين إلى يثرب، وحلت بهم أزمة كبرى. ولكن سبب هذه الأزمة هو محمد ابن عبد الله وحده، فماذا تصنع قريش وقد وقعت في هذه الأزمة، فبات زعماؤها يتشاورون؛ هل يدعون محمداً يهاجر إلى يثرب وقريش تخاف أن تكون له قوة يستطيع بها مداهمة مكة والإيقاع بها؟ وهل تحبس محمداً وهي التي تخاف إذا جاء الموسم أن يطلب أصحابه المساعدة من أهل الموسم، ويخلصوه من أيديهم بالقوة، أم تقتله وهي هنا تخاف من بني هاشم وبني عبد المطلب أن يطالبوا بدمه، فتقع الحرب الأهلية التي لا تبقي ولا تذر؟ فماذا تصنع قريش والإسلام يفشو وينتشر، ورسول الله صار له شيعة وأصحاب، والمهاجرون قد نزلوا لهم داراً، وأصابوا منهم منعة؟

تتابعت الأزمة تهدّد حياة قريش على امتداد بضعة شهور، حتى تنادى زعماؤها لعقد اجتماع في دار الندوة[1] ـ وهي دار قصي بن كلاب جدّ النبي محمدﷺ التي

---

(١) دار الندوة، هي كل دار يرجع إليها ويجتمع فيها، وهو مجلس القوم، والنادي ـ في اللغة: مجلس مشاورة الجماعة. ويقال: ندي ونادي، والجمع أندية. قال تعالى في سورة مريم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾. وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ

كانت قريش لا تقضي أمراً إلّا فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر محمد حين خافوه. وكان لا يدخل في هذه الدار إلّا من أتى عليه أربعون عاماً، فاجتمع أربعون رجلاً من مشايخ قريش وساداتها وزعماؤها من بني عبد شمس، وبني نوفل، وبني عبد الدار، وبني أسد بن عبد العزى، وبني مخزوم وبني سهم، وبني جمح وغيرهم، وعلى رأسهم عتبة وشيبة والوليد وأبو جهل وأبو سفيان.

فلما اكتمل عددهم، راحوا يستعرضون الظرف الذي تعيشه الدعوة بعد وفاة أبي طالب، والطريقة التي تريحهم من محمد ـ وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرحمة، وقيل يوم الزحمة ـ فجاءهم إبليس في صورة شيخ من أهل نجد، جليل القدر، عليه كساء من صوف، فوقف على باب الدار، فقال له البواب: من أنت؟ قال: أنا شيخ من أهل نجد، بلغه اجتماعكم في أمر محمد بن عبد الله، فحضر ليسمع ما تقولون، وعسى ألّا يعدمكم منه رأياً صائباً ونصحاً. قالوا: أجل. وادخلوه معهم، فلما أخذوا مجلسهم قام أبو جهل[1] وقال: يا معاشر قريش، إنه لم يكن أحد من

الْمُنكَرَ﴾. وقال تعالى في سورة العلق ﴿فَلْيَدْعُ (نَادِيهُ)﴾.

(١) أبو جهل، هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي المكي ولادة ونشأة، وأشد الناس عداوة للنبي محمدﷺ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. قال صاحب عيون الأخبار: سودت قريش أبا جهل ولم يطر شاربه، فأدخلته دار الندوة مع الكهول. أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان يقال أبو الحكم، فدعاه المسلمون أبا جهل. وقد سأله الأخنس بن شريق الثقفي ـ وكانا قد استمعا شيئاً من آيات القرآن الكريم يتلوها محمد ـ: ما رأيك يا أبا الحكم فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا في الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. واستمر على عناده، يثير الناس على محمد رسول الله وأصحابه، لا يفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم حتى كانت واقعة بدر الكبرى،

العرب أعزّ منا ولا أمنع، نحن آل الله وقرابينه، تفد إلينا العرب في السنة مرتين، ويكرموننا. ونحن في حرم الله، لا يطمع فينا طامع، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فكنا نسميه الصادق الأمين؛ لصلاحه وسكونه وصدق لهجته حتى إذا بلغ ما بلغ، وأكرمناه، ادعى أنه رسول الله، وأن أخبار السماء تأتيه، فسفّه أحلامنا، وسب آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرق جماعتنا، وزعم أن من مات من أسلافنا ففي النار.

ولم يرد علينا شيء أعظم من هذا، وإننا ـ والله ـ ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، وقد رأيت فيه رأياً. قالوا: وما رأيت فيه يا أبا الحكم؟ قال: ندس إليه رجلاً منا يقتله فنستريح منه؛ فإن طلبت منا بنو هاشم دية، دفعنا لهم عشراً. فقال الشيخ النجدي: ما هذا برأي يا أبا الحكم؛ فإن قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فقال: آخر الرأي أن نلقي القبض عليه ونحبسه بالحديد، ونغلق عليه باباً، ونتركه حتى يموت كما مات زهير والنابغة وامرؤ القيس من الشعراء الذين كانوا قبله. فقال الشيخ النجدي: ما هذا برأي، فلو حبسناه فإن دعوته ستبقى، وإن بني هاشم وبني عبد المطلب لا ترضى بذلك. فإذا جاء موسم العرب استغاثوا بهم، فاجتمعوا عليكم وأخرجوه بالقوة، وربما وقع بينكم وبينهم حرب شعواء. فقال: آخر الرأي أن نخرجه من بلادنا منفياً، ونتفرغ لعبادة آلهتنا؛ فإذا خرج عنا لا نبالي إلى أين ذهب. فقال الشيخ النجدي: وما هذا برأي أيضاً، تعمدون إلى أصبح الناس وجهاً، وأفصحهم لساناً، وأعذبهم منطقاً، فتخرجوه إلى بوادي العرب، فيخدعهم بقوله، ويسحرهم

فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها (كتاب عيون الأخبار).

بلسانه، فيصبوا له القوم ويبايعوه، ويسير بهم إليكم فما يفاجئكم إلّا وقد ملأها عليكم خيلاً ورجالاً، فتهلكُنّ كما هلكت أياد ومن كان قبلكم.

قالوا: فما الرأي يا شيخ؟ فقال الشيخ النجدي ـ وفي رواية أخرى أنه أبو جهل ـ: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً، نسيباً جليداً وسيطاً فينا، حتى من بني هاشم، وتدفعوا إلى كل فتى منهم سيفاً صارماً فإذا جاء الليل، وأوى محمد إلى فراشه، يدخلون عليه ويضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه، فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً، فلا تستطيع بنو هاشم وبنو عبد المطلب على حرب قومهم، والمطالبة بدمه، وهم شاركوكم في قتله، ويرضوا منكم بالدية، فأعطوهم ثلاث ديات. قالوا: نعم وعشراً.

فأعجب هذا الرأي المجتمعين، وقالوا: هذا والله هو الرأي، وصفق المؤتمرون لرأي قطب الشرك والضلال أبي جهل، وأقروه بالإجماع، واعتمدوا اغتيال محمد وهو نائم في فراشه إذا جن الليل، وساد الظلام كل مكان.

مبيت علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله

تفرق زعماء قريش من اجتماعهم في دار الندوة ليختاروا فتيانهم للقضاء على محمد ودعوته، وهم يحسبون أن أمر النبي محمد صلى الله عليه وآله قد بات على وشك النهاية، فإن هي إلّا بضع ساعات وسوف يقتل محمد، وبقتله تموت دعوته، وينتهي أمرها، ويتفرق أتباعه عنها، فلا يجد المهاجرون مناصاً من العودة إلى بلدهم وقومهم، والرجوع إلى دينهم وآلهتهم، وبذلك تعود لقريش وحدتها التي تمزقت أو أوشكت على أن يحصل لها ذلك، ومكانتها التي تضعضعت أو كادت أن تتضعضع.

فينزل الأمين جبرئيل على النبي محمد صلى الله عليه وآله يخبره باجتماع قريش، وما دار بينهم، وما اتفقوا عليه من قتله، وقرأ عليه هذه الآية من سورة الأنفال: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[1]. ويأمره بالهجرة إلى غار ثور، ومنه إلى يثرب دار السلام، وقال له عن ربه عزّ وجلّ: «**لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي تنام عليه، ودعه لابن عمك علي بن أبي طالب عليه السلام ينام عليه هذه الليلة**».

وكان الرسول العظيم قد مكث في مكة بعد هجرة المسلمين ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى يثرب، فلما تناهى إلى مسامع النبي صلى الله عليه وآله على

---

(١) الأنفال: ٣٠.

لسان الأمين جبرئيل ما بيتت له قريش وما أعدت له من مؤامرة لقتله، بعث لابن عمه الإمام عليعليه السلام أن يأتيه على جناح السرعة لأمر هامّ يحتاجه إليه، فجاء علي ودخل على النبيﷺ، فوجده يتلو القرآن، والنور ينبعث من وجهه الكريم، وجلس فأمره النبي أن يدنو منه، وأخبره بما أوحى الله إليه، وقال: «**يا علي، إن قريشاً قد تآمروا على قتلي، وإن الله قد أمرني أن أهجر دار قومي، وأذهب إلى غار ثور، ومنه إلى يثرب دار السلام، وأمرني أن آمرك بثلاث:**

الأولى: أن تنام على فراشي مساء هذه الليلة، وتتوشح ببردي الحضرمي الأخضر، لتخفي بمبيتك عليهم أثري. واعلم أنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم.

الثانية: أن تبقى بعدي بمكة لتؤدي عني الودائع والأمانات التي كانت عندي».

لأنه ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلّا وضعه عند النبي محمدﷺ؛ لما يعلم من صدقه وأمانته، فقد كان يعرف بينهم بالصادق الأمين.

«**الثالثة: أن تخلفني في أهلي، فإذا أديت الأمانات والودائع إلى أهلها، تحمل ابنتي فاطمة ومن معها من الفواطم إلى المدينة، فما أنت قائل وصانع؟**».

فقال عليعليه السلام: «**يا رسول الله، أوَتسلم؟**». قال: «**نعم**» قال: «**فداك نفسي وروحي**»، وخرّ ساجداً على الأرض لشكر الله على ما أنبأه من سلامته.

فكان أول من سجد لله بعد رسول اللهﷺ عليعليه السلام.

ولما كان لابد من إنسان يمثل دور النبي أمام عيون المتآمرين، وأن يكون هذا الإنسان من أعلى درجات الحب والإخلاص والفداء للدين الإسلامي، وللنبي محمدﷺ، بحيث يقدم على الموت فداء لرسول الله ولدين الله تبارك وتعالى، ولما كان لابد أن يكون هذا الإنسان في أعلى درجات الشجاعة ورباطة الجأش اختار

الله علياً؛ لأنه كان يعلم بأنه الإنسان الوحيد الذي تجتمع فيه كل الشروط المطلوبة للقيام بعملية التضحية والفداء، فلم يكن في المسلمين من يماثله في حبه وإخلاصه للدين الإسلامي، فهو الإنسان الوحيد المرشّح لهذه المهمة الجسيمة حتى يمكن للنبي محمد صلى الله عليه وآله أن يهاجر من مكة إلى يثرب بأمان.

وتلقى علي الأمر من النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو يقول: «**نم على فراشي، وتوشّح ببردي الحضرمي الأخضر؛ فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه**».

وتقبل علي الأمر دون خوف أو وجل، لم يتسلل إلى نفسه شبح الخوف، ولم تطرق خياله سيوف قريش تشرع فوقه، وتهم بالانقضاض عليه، بل تراءى له أمر واحد هو نجاة النبي وخلاصه من كيد الكافرين.

وقام النبي إلى صندوق أماناته ليسلمها للإمام علي بن أبي طالب ويدلّه على أصحابها. ولم يزل علي يأنس بحديث النبي، ويتزود بنصائحه حتى حان وقت النوم، فذهب علي إلى حجرة النبي التي ينام فيها، واندس في فراشه، واتّشح ببرده الحضرمي الأخضر، متوقعاً ما سيحيق به من الموت المباغت إذا أحاط به الأعداء من كل صوب، فهانت عليه نفسه وراء ما ينشد من فداء صاحب الدعوة. ومكث الليل الطويل ينتظر الموت ما بين لحظة وأخرى، وقد برقت الأسنة، ولمعت السيوف، وبقي النبي ينتظر أمر ربه في الخروج.

فتعجبت الملائكة من فعل الإمام علي وتضحياته، فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل: «**إني قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر أخاه بالحياة**». فاختار كل منهما الحياة لنفسه، فأوحى الله إليهما: «**ألا كنتما مثل وليي علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين حبيبي محمد بن عبد الله، فبات على فراشه**

يقيه بنفسه، ويؤثره بالحياة دونه؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه».

فهبطا إلى الأرض وجلس جبرئيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، فقال جبرئيل: «**بخٍ بخٍ لك يا علي، فقد باهى الله بك ملائكة السماء**». وأقبل فتيان قريش، وأحاطوا بدار النبي محمد من كل جانب، وهم مدججون بالسلاح، يرقبون ويترصّدون كل حركة حول المنزل، وبعضهم يتطلّع من وقت لآخر من شقوق الباب، فيرون في الفراش رجلاً نائماً، فيطمئنون إلى أنه محمد، وأنه ينام كعادته قرير العين.

وبقي النبي مكانه، حتى إذا كان الثلث الأخير من الليل نزل الأمين جبرئيل على النبي محمدﷺ، فأخذ بيده وخرج به من الدار، وأمره أن يأخذ حفنة من التراب وينثرها على رؤوس القوم الواقفين على باب داره، ويقول: «**شاهت الوجوه**»، ويقرأ سورة يس لمناسبة مطلعها لظروفه، حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾(1). فأقامت بينهم وبين محمد سدّاً جعلتهم لا يرونه ولا يبصرونه، وهو يخرج من بينهم، ولم يبقَ فيهم رجل إلّا وقع على رأسه تراب، وأمره جبرئيل أن يأخذ على طريق ثور دون أن يراه أحد.

وفي رواية: جاءهم إبليس في صورة رجل، وقال لهم: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: ننتظر خروج الفجر؛ لنهجم على محمد بن عبد الله في داره، ونضربه ضربة واحدة، فنقتله، ونريح الناس منه. فقال لهم: خاب والله أملكم، لقد خرج عليكم محمد بن عبد الله، وما ترك منكم رجلاً إلّا وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته.

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه ترابٌ، فنظروا في الدار فرأوا شخصاً نائماً على فراش النبي محمد، متّشحاً ببرده الحضرمي الأخضر، فقالوا: هذا

---

(١) يس: ٩.

محمد نائم على فراشه. فلما جاء الفجر، هجموا على الدار، وقصدوا الفراش شاهرين سيوفهم ليقتلوا النائم فيه، فوثب علي في وجوههم شاهراً سيفه ـ وكان علي شاباً شجاعاً فارساً، عرف بالقوة والصراع، وهو يقول: «**ما شأنكم؟ وما تريدون؟**» قالوا: أين محمد؟ قال: «**أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم: نخرجه من بلادنا، فقد خرج عنكم**».

لقد عد علي عمله بالمبيت على فراش النبي محمد صلى الله عليه وآله ليلة خروجه من مكة نموذجاً من بذله وتفانيه في سبيل الحقّ، كما يتضح ذلك في شعره (سلام الله عليه)، حيث يقول:

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجرِ
رسول إله خاف أن يمكروا به ... فوقاه ربي ذو الجلال من المكرِ
وبتّ أراعي منهُمُ ما يسوءني ... وقد وُطِّنت نفسي على القتل والأسرِ
وبات رسول الله في الغار آمناً ... هناك وفي حفظ الإله وفي سترِ

وقال الكعبي يمدح علياً بمبيته على فراش النبي محمد صلى الله عليه وآله:

ومواقف لك دون أحمد جاوزت ... بمقامك التعريف والتحميدا
فعلى الفراش مبيت ليلك والعدا ... تهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما ... يهدي القراع لسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً ... للنفس لا فشلاً ولا رعديدا

وذاع الخبر في قريش أن محمداً قد ترك مكّة، وخرج دون أن يراه أحد، أما النائم في فراشه فقد كان ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام.

النبي محمد في الغار

اعتمد النبي محمد السرية التامة في أمر هجرته تلك الليلة خاصّة بعدما أمر بهجرة جميع أصحابه من المسلمين من مكة، وأبقى علياً؛ لأنه وصيه، والقائم مقامه في تأدية حقوق الناس وأماناتهم المودعة عنده، وخليفته على أهله. وكان لابد من اعتماد السرية؛ لأن كفار قريش كانوا يحيكون المؤامرات للحيلولة دون وصول النبي محمدصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى يثرب؛ حيث سيقود من هناك الدولة التي ستحطم ملكهم وسلطانهم، وتقضي على جبروتهم.

لذا فإن أحداً لم يكن عالماً بخروج النبي محمد في تلك الليلة سوى أهل بيته المقربين علي وفاطمة، وأم هانئ بنت أبي طالب. وكان من حرص النبي محمدصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ على إنجاح سرية الهجرة والتستر عن أعين المجرمين أن طلب من أصحابه المسلمين القليلين في مكة عدم الهجرة في تلك الليلة التي أمره الله أن يهاجر فيها، مخفياً عنهم سبب طلبه. وكان من حرصه أيضاً على اختيار سرية الهجرة اختيار الله له وقت الهجرة ليلاً، وفي نهاية شهر صفر، لئلا يكون في السماء ضوء القمر، فينكشف في الطرقات، كما جاء عن الشيخ نجاح الطائي: وجاء عن ابن عباس قال: خرج رسول الله من منزله ليلاً بأمر من الله عزّ وجلّ وحيداً متستراً في ظلام الليل الدامس قاصداً غار ثور، وأبقى علياً بمكة؛ لأنه وصيه، والقائم مقامه في تأدية حقوق وأمانات الناس المودعة عنده.

وغار ثور كهف صغير بأعلى جبل ثور في أسفل مكة، يقع على ثلاثة أميال تقريباً جنوب مكة، لا تزيد مساحته على مترين ونصف مربعين، وأقام فيه ثلاثة أيام.

يقول الشيخ نجاح الطائي: أجمعت الروايات على أن النبي محمداًﷺ خرج وحيداً من منزله ليلاً إلى غار ثور، وهناك سأل الله أن يبعث إليه من يدّله على الطريق. فكان أن التقى بعبد الله بن أُريقط في اليوم الأول من هجرته ـ كما جاء في (المستدرك)[(١)] ـ فقال له النبيﷺ: «**يابن أُريقط، أئتمنك على دمي**». فقال: إذن والله أحرسك وأحفظك، ولا أدل عليك، فأين تريد يا محمد؟ قال: «**يثرب**». قال ابن أُريقط: لأسلكن بك مسلكاً لا يهتدي فيها أحد.

وبقي محمد في الغار ثلاثة أيام، يقول الذهبي في (ميزان الاعتدال) فكان ابن أُريقط يختلف على رسول اللهﷺ مدة إقامته في الغار، وطلب منه المساعدة، فاستجاب الرجل للأمر النبوي، وكان يوصل الطعام إليه خفية، ويأتيه بالأخبار طوال فترة مكوثه في الغار.

وفي بعض زياراته للنبي محمدﷺ تفاجأ بمجيء قريش، ووصولهم إلى الغار عن طريق الاستدلال على آثار قدمي محمد بن عبد اللهﷺ؛ لأن قريشاً لما بلغها الخبر أن محمداً خرج من بيته دون أن يراه أحد، وترك مكة، وأفلت من سطوتها، وأن النائم في فراشه كان علي بن أبي طالب، خرجوا بأجمعهم بعصيهم وهراويهم وسيوفهم يبحثون عن محمد للقبض عليه قبل أن يصل يثرب. ودفعوا مكافأة لمن

---

(١) رواية المستدرك أنهﷺ خرج مع أبي بكر ثم التقيا بابن أبي أُريقط. وليس فيه خطاب رسول اللهﷺ له، ولا جواب ابن أُريقط لهﷺ.

يدلهم عليه، وهي مئة ناقة، ومن يقبضْ عليه ويأتهم به فله مئتا ناقة.

وأخذت معها رجلاً من خزاعة يقال له أبو كرز بن علقمة الخزاعي؛ لتستعين به على أثر أقدام محمد بن عبد الله؛ لأنه كان عالماً بقص الأثر؛ وذلك للقبض على محمد وقتله. وكانت خزاعة من أصحاب الاستدلال بآثار الأقدام، وكشف مسالك المارة، فهم يعرفون قدم الشاب من قدم الشيخ، وقدم الرجل من قدم المرأة، وقدم الغريب من قدم المواطن. وبعد أن جاؤوا أبا كرز قالوا له: يا أبا كرز اليوم يومك. وجاؤوا به حتى أوقفوه على دار النبي محمد ليرى أثر قدميه. فلما نظر إلى أثر قدمي محمد قال: نعم، هذه والله أخت القدم التي في المقام. يعني بذلك قدمي إبراهيم الخليل التي في المقام قرب الكعبة. وسار أبو كرز ومن خلفه مشركو قريش يتعقب آثار أقدام محمد بن عبد الله، حتى صعد بهم الجبل الذي كان محمد مختبئاً فيه، وأوقفهم على باب الغار، وكان عليه حجر صلد، وصخر أصمّ، وجبال لا رمل عليها ولا طين ولا تراب، فتبين عليه أثر الأقدام، وقال هذه قدم محمد بن عبد الله المشايعة للقدم التي في المقام، والله ما جاوز محمد هذا المكان؛ فإما أن يكون صعد إلى السماء، أو نزل تحت الأرض.

وراح القرشيون يدورون حول الغار، وبعضهم يتسلقه دون أن يحاولوا الدخول إليه، علماً أن غار ثور ـ كما شاهده الكثير من الناس ـ كهف صغير بأعلى جبل ثور، لا تتعدى مساحته مترين ونصف مربعين، وله فتحتان: فتحة ضيقة في جانب منه، والأخرى في الجانب الآخر لا تزيد سعتها على نصف متر، وهي التي يستطيع الداخل أن يدخل منها بغير مشقة، الأمر الذي يجعل الضوء ينفذ ويضيء الغار بأكمله مما يسهل الرؤية فيه.

فمن غير الممكن أن يحجب أي شيء الروية إلى داخله، فلو وقف أي شخص

أمام إحدى الفتحتين، لشاهد كلّ ما فيه بشكل واضح جداً. ولكن الله قد أخفى أمر نبيه محمدﷺ عن المشركين؛ فقد كانت العناية الإلهية تحرس محمداً وترعاه.

وعندما وصلت قريش إلى الغار عميت أبصارهم، ولم يتمكنوا من مشاهدة أي أحد داخل الغار، كما حصل عندما مر من أمام أعينهم في خروجه من بيته في مكة، وكما حدث له مع أم جميل حين نزل القرآن الكريم بذمّها وذمّ زوجها، وأخذت فهراً من حجر، فخرجت تطلب رسول الله لتقتله، فانتهت إليه جالساً مع أبي بكر في ظل الكعبة، فأعمى الله بصرها عن رؤيته، وجعلت تسأل عنه أبا بكر، وهو جالس أمامها.

فالوثنيون كانوا يبحثون في الخارج، والله يمنعهم من الدخول إلى الغار، والنبي يراهم من داخل الغار، وهو يصلي ويدعو الله أن يكف شرّ الباحثين عنه، فحزن ابن أُريقط، وخاف على نفسه من قريش حين سمع وقع أقدامهم على باب الغار، وجعل يلوذ بالنبي محمدﷺ ويقول: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه، لرآنا تحت قدميه. فعلم رسول الله أن الله بقدرته قد درأ عنه كيد الوثنيين، وسخر ملائكة لحفظه، ورصدهم لحمايته ورعايته، فهمس النبي في أذنه ليطمئنه وهو يقول: ﴿**لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾(١).

أما الشائع من القول فإن الذي كان مع رسول الله في الغار أبو بكر الصديق، وأن آيات النصر من سورة التوبة نزلت فيهما، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾(٢). والمراد بصاحبه: هو أبو بكر.

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) التوبة: ٤٠.

وبعد أن أعيا قريشاً البحث بالإعجاز الإلهي، انصرفوا عائدين إلى مكة، وهم على قناعة تامة بأنه لا فائدة من الدخول إلى هذا الغار. ويروى أنه كان بأعلى الجبل امرأة ترعى أغنامها، ورأت رسول الله صلى الله عليه وآله عند صعوده الجبل ودخوله الغار، وكانت قد سمعت أن قريشاً ستدفع لمن يدلّهم على محمد مئة ناقة، فداخلها الطمع، وأقبلت لتخبر قريشاً بما رأت، وقبل أن تتكلم مسخها الله حجراً بالقرب من باب الغار.

يقول الراوي: وكان الحجر موجوداً حتى أوائل القرن الخامس عشر، والناس يتبركون به لكونه آية من آيات الله، ومعجزة من معاجز نبي الله، ثم غيب.

وبعد أن استولى على قريش اليأس، كفّت عن البحث، وأيقنت أن من المستحيل أن يكون محمد قد بقي في مكة. بينما حلت السكينة على نبيه محمد صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿**فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

وأمر النبي صلى الله عليه وآله ابن أريقط بالمبادرة بالخروج بعد أيام ثلاثة قضاها في الغار ـ وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ـ وعمر النبي محمد ثلاث وخمسون سنة ـ أي بعد المبعث بثلاث عشرة سنة، الموافق الثامن من أيلول عام ٦٢٢ ميلادية ـ وحينها أخذ الركب وجهته إلى المدينة، وهنا نظر النبي إلى مكة مهد الصبا، ومبعث النور، وقال: «**والله، إني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب أرض الله وأكرمها على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**». ثم رمق السماء بطرفه، وقال: «**اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إلي، فأسكنّي أحبَّ البلاد**

---

(١) التوبة: ٤٠.

إليك». فأنزل الله تعالى عليه: يا محمد ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ**﴾(١). فأخذ به أريقط على طريق نخلة بين الجبال إلى أرض يثرب، وكان دليلاً ماهراً بالدلالة ، يهتدي إلى المنازل وطرقها الخفية.

وكانت المدينة تبعد عن مكة بـ ٤٩٥ ك، وتتابعت مسيرة تلك الهجرة المباركة في أرض تهامة، وكان أكثر مشي الركب ليلاً؛ احتماء من لظى الهاجرة المحرقة، وابتعاداً عن الناس، وغدر قريش وصلافتها. وخلال الطريق مر الركب بوادي القديد وهو موضع بين مكة والمدينة وفيه خيمة أم معبد الخزاعية.

---

(١) القصص: ٨٥.

النبي في خيمة أم معبد

خرج النبي محمدﷺ من مكة هرباً من قريش بعد أن قضى ثلاثة أيام في الغار؛ متوجهاً إلى يثرب، وقد اتخذ له دليلاً هو عبد الله بن أُريقط؛ لخبرته الواسعة في طرق الصحراء. فسلك به دروباً غير مألوفة، متخذاً من السبل ما قل أن يطرقه أحد، حتى كانت الرواحل لا ترى طريقها بوضوح. ولكن رحمة الله، وعينه الساهرة على نبيه محمدﷺ هما الضمان البالغ له، يحميانه من صعاب الطريق وعثراتها، ومن وحوش الفلاة الكاسرة وهجماتها، ومن الحشرات القاتلة وغدراتها، فلا يتعرض لخطر ولا أذى، اللهم إلّا وعثاء السفر ـ وهي مقبولة ما دامت الهمم عالية، والثقة بالله كبيرة ـ وخلال الطريق مر الركب بوادي القديد ـ وهو موضع بين مكة والمدينة ـ وكانت فيه خيمة أم معبد الخزاعية. فنزل بها وهي لا تعرفهم، فسألوها عن طعام يأكلونه أو لبن يشربونه، فاعتذرت لهم المرأة، وقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى.

فرأى النبي محمدﷺ شاة واقفة في كسر الخيمة، فسألها النبيﷺ: «**ما هذه الشاة التي أرى يا أم معبد؟**». قالت: شاة خلفها الجهد عن المسير مع الغنم. قالﷺ: «**هل بها من لبن؟**». قالت: هي أجهد من ذلك. فقالﷺ: «**أتأذنين لي أن أحلبها؟**». قالت: إن كان بها حلب فاحلبها. فدعا النبيﷺ بالشاة، فمسح على ظهرها وضرعها، وذكر اسم الله تعالى، وقال: «**اللهم بارك لها في شاتها**». ثم دعا بإناء، وراح يحلب الشاة فإذا الحليب ينزل من ضرعها غزيراً بقدرة الله تعالى وبركة رسول الله، حتى امتلأ الأناء لبناً، وأم معبد واقفة تنظر ولا تصدق عينها، وراحت تقول في نفسها: كيف لهذه الشاة أن تحلب، وهي من ضعفها لم تقوَ على

السرح، ولم تلد هذا العام، بسبب الجفاف والجدب. فسقاها فشربت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب هو آخرهم، وقال: «**ساقي القوم آخرهم شرباً**». ثم حلبها مرة ثانية، حتى ملأ الوعاء، ودفعها إلى أم معبد، وودعها وارتحلوا عنها. وسُمع صوت بمكة عالياً بين السماء والأرض يسمعونه، ولا يرون القائل، وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه — رفيقين حلا خيمتي أم معبدِ
هما نزلا بالبر وارتحلا به — فأفلح من أمسى رفيق محمدِ
فيا لقصي ما زوى الله عنكمُ — به من فعال لا يجازى وسؤددِ
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها — فإنكمُ إن تسألوا الشاة تشهدِ
دعاها بشاة حائل فتحلبت — له بصريح ضرة الشاة مزيدِ
فغادرها رهناً لديها لحالب — تدّر بها في مصدر ثم موردِ
فما حملت من ناقة فوق رحلها — أبرّ وأوفى ذمة من محمدِ

وفي (ربيع الأبرار) للزمخشري عن هند بنت الجون ابنة أخت أم معبد قالت: دعا النبي محمدﷺ بماء، فتوضأ تحت شجرة ميتة بقرب خيمة خالتها أم معبد، فاخضرّت تلك الشجرة، وأورقت وأثمرت، فما أكل من ثمرها جائع إلّا شبع، ولا سقيم إلّا برئ، ولا أكل من ورقها شاة إلّا درت لبناً. فكنا نسميها الشجرة المباركة، فأصبحنا في يوم من الأيام وقد جفت تلك الشجرة، واصفر ورقها، وتساقط ثمرها، ففزعنا لذلك، فما راعنا إلّا نعي رسول اللهﷺ.

ولما ابتعد القوم عن خيمة أم معبد جاء زوجها أبو معبد يسوق غنمه، فاستقبلته أم معبد بإناء اللبن، فعجب وقال: من أين لك هذا، ولا حلوبة في البيت، والشاة عازب؟ قالت: لقد مر بنا رجل مبارك الطلعة، وهو الذي حلب الشاة، فحلبت

وأشبعني وأشبع من معه لبناً، واخضرت هذه الشجرة ببركته. قال: ومن هو هذا الرجل يا أم معبد؟ قالت: لم أسأله عن اسمه. قال: هل تصفينه لي؟ قالت: نعم، كان رجلاً ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه، وسيماً قسيماً، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، أبهى الناس وأجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب، ربعة، لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنظر من معه منظراً، وأحسنهم قداً. له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محفود محشود، لا عابس ولا معتد. قال: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو كنت وافقته لالتمست أن أصحبه، ولأفعلن إذا وجدت لذلك سبيلاً.

النبي محمد يصل يثرب

لقد ترك الركب المحمدي خيمة أم معبد الخزاعية، وسار تحفه بركات الله ورضوانه، يغذّ السير إلى يثرب التي كانت تنتظره بلهفة وشوق. وقد دخل حبه قلوب المسلمين فيها لمجرد سماعهم بذكره الطيب، وخصاله الحميدة التي أهلته لأن يكون رسول الله، لا لأهل مكة، ولا لأهل يثرب وحدهم، ولا لكل العرب فحسب، بل إلى الناس كافة؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾[1].

نعم لقد أحبه اليثربيون قبل أن يروه، فراحوا ـ بعدما سمعوا بخروجه من مكة وقصده يثرب ـ يرقبون اليوم الذي يصل فيه إليهم؛ حتى تستقبله قلوبهم وأفئدتهم قبل عيونهم وآذانهم. إنهم يعلمون أنه قد خرج من مكة ولكنهم لم يعرفوا أي طريق يسلك، ولو عرفوا لذهبوا إلى ملاقاته يحمونه بالمهج والنفوس، إلّا إنهم ظلوا في انتظاره.

وفي صباح كل يوم كانوا يخرجون إلى منافذ مدينتهم، ويبقون ممدودي الأنظار إلى الجهات كلها، علهم يرونه من بعيد، أو أن أحداً يخبرهم عنه بخبر.

وبقوا على هذا الحال من الشوق والانتظار يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح إلى ظاهر المدينة، يلتمسونه، حتى تغلبهم الشمس على الظلال في تلك الأيام الحارة من شهر أيلول.

---

(١) سبأ: ٢٨.

أما النبي محمدﷺ فقد كان يجدّ السير، حتى يخلص من وعثاء ذلك السفر الذي طال به، حتى بلغ قباء على بعد فرسخين من المدينة المنورة. وكان ذلك يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ـ الموافق (١٦) أيلول عام ٦٢٢ ميلادية ـ بعد زوال الشمس، يقول ابن إسحاق: حدثني رجال عن قومي من أصحاب رسول اللهﷺ قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله من مكة، انتظرنا قدومه، فكنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال؛ فإذا لم نجد ظلاً دخلنا البيوت. وذلك في أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول اللهﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبقَ ظل دخلنا بيوتنا. وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود ـ وكان على أطمة، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا كنا ننتظر قدوم رسول اللهﷺ علينا ـ فعرفه، فصاح بأعلى صوته: يا بني قيلة ـ نسبة إلى جدة الأنصار الذين كانوا ينسبون إليها، ويقال: إن هذه كنية عرب المدينة ـ تقول الصديقة فاطمة في خطبتها: «**إيه بني قيلة.**» تعني بذلك الأنصار ـ هذا صاحبكم قد جاء. وفي رواية: جدكم قد جاء.

ومثل سريان النور الشديد سرى مقدم خبر رسول اللهﷺ في يثرب؛ فخرج أهلوها: شيوخهم وفتيانهم، ونساؤهم وأولادهم، يستقبلون الوافد العظيم الذي جاء يحمل لهم الهداية ونور الحق، ويبشرهم برضوان الله ورحمته. خرجوا يكبرون: الله أكبر الله أكبر، جاء محمد بن عبد الله، الله أكبر الله أكبر، جاء رسول الله. وفتيانهم يردّدون أناشيد الترحيب:

طلـــع البـــدر علينـــا   مـــن ثنيـــات الـــوداعْ

وجـــب الشـــكر علينـــا مـــــــا دعـــــــا لله داعْ
أيهـــا المبعـــوث فينـــا جئـــت بـــالأمر المطـــاعْ
جئـــت شـــرفت المدينـــة مرحبـــاً يـــا خيـــر داعْ

وبوصول النبي محمدﷺ إلى يثرب انتهى العهد المكي، وابتدأ عهد جديد في حياة الدين الإسلامي هو العهد المدني.

الرسول في قبا

قبا مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، تقع جنوب غرب المدينة المنورة على يسار القاصد إلى مكة المكرمة على بعد ميلين منها. وهي في الأصل بئر هناك عرفت القرية بها، لكنها الآن أصبحت حياً من أحياء المدينة المنورة. فلما هاجر الرسول محمدﷺ من مكة إلى المدينة، نزل على كلثوم بن الهرم ـ وهو شيخ من بني عمرو بن عوف الساكنين قبا، وأقام فيها أربعة عشر يوماً ـ وقيل: أقل، وقيل: أكثر ـ ينتظر فيها قدوم ابن عمه وابنته من مكة. وقد أراد منه أبو بكر أن يدخل المدينة، فأصرَّ على بقائه في قبا، وقال: «**ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن عمي وابنتي**».

وكان النبي محمدﷺ لم يترك الوقت يذهب سدى خلال إقامته في قبا، فخط مسجداً لقبيلة بني عمرو بن عوف، ونصب قبلته. وهو أول مسجد أمر بإقامته بعد بعثته. إنه رسول اللهﷺ، وقد هاجر لإعلاء كلمة الله، وما إقامة المساجد إلّا إحدى السبل التي تجمع المسلمين على إقامة شعائرهم، فأقام مسجد قبا، وهو أول مسجد أسس في الإسلام، وكان النبي محمدﷺ هو أول من وضع حجراً في قبلته، ثم أخذ الناس في بنائه.

وعن أبي خيثمة قال: إن رسول اللهﷺ حين أسس مسجد قبا كان هو أول من وضع حجراً في قبلته، ثم أخذ الناس في البنيان.

وكان عبد الله بن رواحة ينقل الحجر وهو يقول:

أفلح من يعالج المســاجدا يقرا القران قائماً و قاعدا

ولا يبيت الليل عنه راقدا

وكان النبي ينقل إليه الحجر، وبياض التراب يرى على بطنه، فيأتيه الرجل من أصحابه ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أعطني أكفيك. فيقول: «**لا، خذ مثله**». حتى أسسه. وكان جبرئيل هو يؤم الكعبة؛ لذا قيل فيه: إنه أقوم مسجد قبلة. يروى أن عمر بن الخطاب أتى يوماً مسجد قبا فلم يرَ فيه أحداً، فقال: والذي نفسي بيده، لقد رأيت رسول الله ينقل حجارته على بطنه، وجبرئيل يؤم به البيت، وفي هذا المسجد نزل قوله تعالى: ﴿**لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ**﴾[(١)].

ويقال: إن عمار بن ياسر هو الذي أشار على النبي محمدﷺ ببناء المسجد، فلما أسسه رسول الله استتم بنيانه عمار بن ياسر، وهو شهير بموقعه المسمى به. وكانت له أهمية تاريخية في الإسلام لأسباب عدة منها أنه أول مسجد أسسه رسول اللهﷺ بعد مبعثه في المدينة عندما وصل إليها مهاجراً من مكة، وصلى فيه بأصحابه. وأنه مذكور في القرآن الكريم. وأنه أول مسجد أسس على التقوى، وأن الصلاة فيه تعدل عمرة، كما جاء عن النبيﷺ، وأنه نقطة بداية للتاريخ الهجري. وقد ورد في فضله عن النبي محمدﷺ قال: «**صلاة ركعتين في مسجد قبا تعدل عند الله ثواب عمرة**». وعن سهل بن حنيف قال: قال رسول اللهﷺ: «**من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قبا، فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**». وكان

---

(١) التوبة: ١٠٨.

النبي محمدﷺ يذهب إليه في كل يوم سبت راكباً وماشياً، فيصلي فيه.

وفيما راح النبيﷺ يهتم منذ أول يوم وصل إلى قبا بتأسيس مسجد قباء، كان في الوقت نفسه يفكر بعلي بن أبي طالب وابنته فاطمة، وماذا حل بهم بعد هجرته. فقد خلّف الإمام علياً في مكة لأداء الودائع، ودفع الأمانات إلى أهلها، وهي الودائع والأمانات التي كانت عند رسول اللهﷺ ثم يلحق بالرسول إلى يثرب ومعه الفواطم. ولكنه لم يلبث أن استراح واطمأن بوصول ابن عمه علي، والفواطم، وبرفقته أيمن بن أُم أيمن، وأبو واقد الليثي، وآخرون من ضعفاء المسلمين الذين لم يستطيعوا الخروج من قبل.

فيضم الرسول ابن عمه إليه حتى خشعت العواطف لاعتناقهما، وذابت المشاعر لشدّهما، ونظر النبي إلى علي، وما وصل به من الجهد من وعثاء السفر، وتحمل النساء الاتي أوصاه بهن رسول الله؛ فقد صارت سلامتهن أغلى عليه من حياته. وأن ذلك الجهد قد أدى إلى ورم في رجليه، وتشنج في أعصابه، فجعل النبيﷺ يمسح عليهما بيديه الطاهرتين، فلم يشتكِهما علي بعد ذلك أبداً.

واحتضنت يثرب الدعوة؛ لتكون مكاناً ومنطلقاً لها لتشعّ على العالم بنور الهداية والفضيلة. وبهجرة الرسول القائد إلى يثرب دخلت الدعوة مرحلة جديدة من عمرها، حيث أقام الرسول الأعظم دولته العظيمة التي راحت تحمل القرآن الكريم في يد، والسيف في يد أخرى؛ ذوداً عن الرسالة، ونشراً لتعليماتها المنقذة. وقد آن للرسالة أن تمرغ قوى الضلال في الوحل، وقد آن لهذا الدين أن يظهره الله ولو كره المشركون.

هجرة علي بالفواطم

مركز القيادة الإسلامية المتمثلة بالقائد محمدﷺ قد حل في أرض جديدة هي يثرب، وهي بدورها قد احتضنت محمد بن عبد اللهﷺ، وهو كذلك قد وجد فيها المنطلق الحيوي لبث تعاليم السماء إلى الآفاق شرقاً وغرباً. ومكة الآن قد اختفى فيها صوت محمد بن عبد الله، فهو لم يُرَ في شارع يدعو ولا في وادٍ يعدو ويبشر، ولا في سوق يندد بالأوثان، ولا في نادٍ يوجه أتباعه ويدلّهم على معالم رسالته المباركة. ولا يُرى محمد حتى في بيته، وقريش قد تأكدت من هجرته إلى يثرب بعد أن فشل المأجورون في قتله.

والوحي هو الآخر قد انتقل إلى يثرب؛ ليواصل حلقات الرسالة الإلهية المتسلسلة، وقريش امتلأت حقداً يصحبه طابع من الخوف بعد أن رأت أن أحياء مكة قد اختفت عنها نشاطات الصفوة المؤمنة. وأنها قد هاجرت إلى أرض جديدة أكثر قدرة على توطيد الدعوة المباركة بعيدة عن ضغط قريش ومكائدها وسلطانها.

ولم يبقَ في مكة إلّا علي بن أبي طالب، ونفر من النساء في طليعتهن فاطمة الزهراء بنت محمدﷺ، وبعض من عجزة المؤمنين وشيوخهم.

وعلي هو الآخر عازم على الرحيل؛ ليحمل بقايا الدعاة الصابرين إلى مركز قيادتهم. ولكنه غير فاعل ذلك ما لم يؤدِّ أمانات أخيه محمد بن عبد الله الذي اعتاد

الناس أن يودعوا حاجاتهم لديه، وسموه بالصادق الأمين. ويسرع علي بتنفيذ هذه المهمة، وبعد مضي ثلاثة أيام على هجرة القائد النبي محمد يعلن علي ابن أبي طالب نبأ رحيله إلى يثرب ويهيّئ هوادج لحمل النساء الهاشميات.

ولم يزل يرد الودائع، ويسلم الأمانات إلى أهلها حتى برئت منها ذمة رسول اللهﷺ، وبعدها تأهب للخروج، فأقبل إلى البيت الحرام وطاف وسعى، وجعل ينادي: «**من كانت له عند رسول الله وديعة أو أمانة ولم يأخذها فليأتِ ليستلمها مني، فإني خارج غداة غد إن شاء الله**».

ولما عزم على الخروج أقبل وصعد الصفا، وصاح بأعلى صوته: «**يا معشر قريش، من أراد منكم الهجرة إلى الله وإلى رسوله فليتبعني، ومن أراد أن يثكل أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي؛ فإني خارج بالفواطم**».

ونزل من الصفا، وصعد المروة وفعل مثل ذلك، فلما أصبح هيّأ الهوادج ووطائها على الجمال، وقامت فاطمة تغلق الأبواب التي شهدت ماضيهن الجلي، وخرجت مع النساء الهاشميات إلى مقبرة الحجون لإلقاء النظرة الأخيرة على قبر أم المؤمنين الأولى، وروين قبر الأم بدموعهن إلّا إن الذي خفف عنهن ألم الفراق أنهن ذاهبات إلى رسول اللهﷺ في دار هجرته: يثرب. وأخذ علي في تركيب الفواطم: فاطمة بنت محمد، و فاطمة بنت أسد أم الإمام أمير المؤمنين، و فاطمة بنت شيبة بن ربيعة زوجة عقيل بن أبي طالب، و فاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب، و فاطمة أم هاني بنت أبي طالب.

ولبس درعه، وتقلّد سيفه، وساق الظعينة قاصداً يثرب بعد أن ودّع مكة، ونفسه ممتلئة عزة وكبرياء، غير آبه بما وراءه من طغاة قريش وعصاة الخالق، مهما

دبروا، ومهما خططوا لإيقاف ذلك الركب المقدس المسدد بقوة السماء. ولكن قريشاً فزعت لهذا الحدث الجديد، وحملها حنقها الشديد على مواجهة الموقف بعملية عسكرية لتدرك ثأرها من محمد بن عبد الله وأتباعه بقتلها علياً؛ لأنها رأت في خروجه والتحاقه بابن عمه محمد بن عبد الله في يثرب على مسمع ومرأى منها تأكيداً لإهانتها، وهي بالأمس قد ذاقت مرارة فشل ذريع بعد أن فشلت المؤامرة الأثيمة لقتل محمد التي صمم أدوارها صناديدها وكبراؤها، فلابد والحالة هذه أن تقوم بعملية صارمة لغسل العار الذي لحقها على يد محمد ابن عبد الله.

ولكن ما هو السبيل الناجح الذي تسلكه قريش لتدرك ثأرها من محمد، فها هي قافلة علي والزهراء ومن معهم تبدو من بعيد، وهي تحثّ السير، قاصدة يثرب. وما هي إلّا ساعات وسوف تختفي القافلة المهاجرة تاركة خلفها عاراً وشناراً جديداً يلحق صناديد قريش وأسياد العرب يومذلك. كل هذه الأوهام راحت تدور في ذهنية الزعماء من قريش، فحملتهم على وضع حل حاسم للحادث الجديد قبل أن يفلت الزمام من أيديهم كلياً. واجتمعت الكلمة بعد مناقشات ومداولات واجتماعات عاجلة في دار الندوة فرضتها الحادثة الجديدة، وانفضّ الجمع بإعلان قرار يقضي بإلقاء القبض على علي وقافلته ومنعها من الهجرة ولو اقتضى الأمر قتله.

فانتدبوا ثمانية فرسان من شجعانهم بقيادة مولى لأبي جهل، وكان بطلاً شجاعاً جريئاً، وأمروه أن يأتيهم بعلي بن أبي طالب حياً أو ميتاً. وتسرع خيولهم لقافلة المجاهدين ليقطعوا عليها طريقها، فصادفهم راعي غنم، فسألوه عن القافلة، قال: مر بي ركب عليه سيما العظمة والجلال، يحدوه بطل من الأبطال، بيده سيف

صقيل، وعليه عمامة هاشمية، فسلم عليٌّ وقال: «**قل لمن يسأل عني: إني ماض في طريقي إلى يثرب**». فتبعوا أثره؛ فلما أبصروا الركب قال أحدهم: هذا والله طلبتنا، فإني أرى الركبة قرشية، والشمائل هاشمية، والقامة مضرية، وما أحسبه إلّا علي بن أبي طالب.

فلما دنوا منه، وحققوا شخصيته أنه علي صاحوا به: يا علي قف، واستمع ما نقوله لك. ولم يكن مع علي سوى أيمن بن أم أيمن، وأبي واقد الليثي، فأمرهما أن ينيخا الإبل، وتقدم وأنزل النسوة، وحسر عن لثامه، ووقف مستقبل القوم بوجهه، شاهراً سيفه وقال: «**ماذا تريدون؟**». قالوا: أن ترجع بهذه النسوة إلى مكة. فقال: «**هيهات، لقد أمرني رسول الله بأمر، وأنا ماضٍ فيه**». فقال له مولى أبي جهل: ظننت ـ يا غدار ـ أنك ناجٍ بهذه النسوة، ارجع لا أبا لك. وأسمعه كلمات نابية نابعة من صميم الحضارة الجاهلية العفنة، وأهوى بسيفه ليضرب الإمام، فراغ عن ضربته، وصده بضربة لم يفلت منها، شطره شطرين فارق الحياة بعدها. وما إن رأى الغزاة المتآمرون الذين معه عقيدهم وفارسهم يتخبط في دمه إلّا وعمّهم الخوف والجزع، فلاذوا بالفرار يجرون خلفهم أذيال الهزيمة لقريش؛ لتضيفها إلى سجل مخازيها وعارها، كما اعتادت.

ويستولي على قريش الذهول، وتعود إلى أصنامها الواهية تسألها النصر على محمد. ويقيني أن قريشاً ـ فضلاً عن حقدها على محمد وأتباعه ـ أرادت من محاولتها لصد علي عن الهجرة إخضاع محمد وإجباره على العودة بعد أن يحاط علماً بعملية إلقاء القبض على أعز الناس عليه علي وفاطمة وبقية الفواطم. ولكن مساعيها احبطت بتسديد من الله على يد علي بن أبي طالب المعروف برباطة الجأش، وصلابة اليقين.

وتستمر القافلة يحدوها النصر، ويهزها الشوق إلى القائد محمد بن عبد الله، وهي تلهج بآيات الله الكريمة. ونزل الأمين جبرئيل على النبي محمدﷺ وهو في قباء، وأخبره بما عملته قريش، وبشره بسلامة ابن عمه ومن معه. وما هي إلّا أيام حتى يستقبل محمد بن عبد الله ومعسكره الفتي بمسجد قبا الوفد المهاجر بابتسامات ملؤها الإكبار والإجلال والمودة، ويضم الرسول الكريم ابن عمه إلى صدره قائلاً: «**لقد وفيت يا علي بعهدك، وأنجزت وصية رسول الله؛ فجزاك الله عن الإسلام خيراً**».

وتصل قافلة المجاهدين، وهي آخر موكب من مواكب النور المتجهة صوب يثرب لتطل على العالم فيما بعد دولة وحضارة تمد يدها لانتشال هذا الكوكب من ظلمات الجاهلية وأدناسها.

المحتويات

آيات قرآنية ٧

الإهداء.. ٩

المقدمة.. ١٣

فضل النسب... ١٥

عدنان.. ١٧

معد بن عدنان ٢٢

نزار بن معد ٢٣

مضر بن نزار.. ٢٦

الياس بن مضر ٢٧

مدركة بن الياس...................................... ٣٠

خزيمة بن مدركة ٣١

كنانة بن خزيمة...................................... ٣٢

النضر بن كنانة...................................... ٣٣

أصل قريش ٣٥

مالك بن النضر...................................... ٣٨

فهر بن مالك ٣٩

غالب بن فهر.. ٤٠

لؤي بن غالب.. ٤٠

كعب بن لؤي.. ٤٢
مرة بن كعب.. ٤٤
كلاب بن مرة.. ٤٤
قصي بن كلاب ٤٦
زواج قصي ٤٨
تولي قصي أمر مكة ٥١
مآثر قصي ٥٤
وصية قصي ووفاته.. ٥٧
عبد الدار بن قصي ٥٩
عبد مناف بن قصي.. ٦٢
هاشم بن عبد مناف.. ٦٤
هاشم وأمية بن عبد شمس ٦٨
وفاة هاشم ٧٠
المطلب بن عبد مناف ٧٣
تولي عبد المطلب الكعبة ٧٧
إيمان عبد المطلب ٧٩
عبد المطلب وحفر زمزم ٨٣
نذر عبد المطلب وذبح ولده.. ٨٧
عبد المطلب وهدم الكعبة ٩١
عبد الله بن عبد المطلب.. ٩٨
وفاة عبد الله.. ١٠٤

مولده الشريف.. ١٠٩
اسمه الكريم.. ١١٥
رضاعه ١٢١
كنيته.. ١٢٥
لقبه الشريف.. ١٢٧
صفاته ١٢٩
وفاة آمنة.. ١٣٣
إيمان أبويه ١٣٩
عبد المطلب يكفل محمداً.. ١٤٣
وفاة عبد المطلب ١٤٧
مآثر عبد المطلب ١٥١
أولاد عبد المطلب ١٥٤
محمد في كفالة عمه ١٦٣
النبي محمد صلى الله عليه وآله في سفره إلى الشام مع عمه.. ١٦٥
محمد يعود من سفره من الشام مع عمه.. ١٦٩
محمد في بيت عمه أبي طالب ١٧٣
حماية أبي طالب لابن أخيه ١٧٧
إيمان أبي طالب.. ١٨١
البشارة بالنبي صلى الله عليه وآله.. ١٨٥
الاحتفال بمولده.. ١٨٩
أخبار الكهان ١٩٣

قريش تبني الكعبة ١٩٧
حلف الفضول...٢٠٣
أبو جهل والإراشي..٢٠٩
حكومة مكة وزعماء قريش ٢١٣
ديانات العرب ٢١٩
العرب قبل الإسلام...٢٢٧
محمد الفتى...٢٣١
محمد في تجارة خديجة ٢٣٥
محمد الزوج..٢٤١
البيت الجديد...٢٤٧
مولد الصديقة فاطمة...٢٥١
مراتب الوحي ٢٥٥
بعثة النبيﷺ...٢٥٩
الدعوة إلى الله ٢٦٣
دعوة الأقربين..٢٦٩
الجهر بالدعوة..٢٧٥
الهجرة إلى الحبشة...٢٨١
صمود النبي وصبره..٢٨٩
الإسراء والمعراج...٢٩٥
قصة المعراج ٢٩٩
قريش والمقاطعة ٣٠٥

الحصار في الشعب ٣١١
نقض الصحيفة ٣١٥
وصية أبو طالب ٣١٩
وفاة أبي طالب ٣٢٣
أم المؤمنين الأولى... ٣٢٧
وفاة السيدة خديجة... ٣٣١
عام الأحزان... ٣٣٥
النبي في الطائف... ٣٣٧
عرض النبي نفسه على القبائل ٣٤١
بيعة العقبة الأولى ٣٤٥
أول سفير في الإسلام ٣٤٩
بيعة العقبة الثانية... ٣٥٣
المسلمون يهجرون مكة... ٣٥٧
دار الندوة... ٣٦١
مبيت علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله ٣٦٥
النبي محمد في الغار... ٣٧١
النبي في خيمة أم معبد... ٣٧٧
النبي محمد يصل يثرب ٣٨١
الرسول في قبا... ٣٨٥
هجرة علي بالفواطم... ٣٨٩
المحتويات ٣٩٥